

الحياة والوفاء للدين

مكتبة

الإمام أبي حمزة عثمان بن عتبة الغفاري

الوفاء لله

المجلد الرابع

دار المعرفة

بيروت - لبنان

أحياء العلماء الذين

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للمعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسن العزالي

المتوفى في سنة ٨٠٠ هـ

وتماما للنفع الحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول : تعريف الأحياء بمضائل الإحياء للمعلمة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله

ابن شيخ بن عبد الله العبدروس باعلوك

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي ، وذهب به اعتراضات
أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف : للمعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الرابع

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب التوبة

وهو الكتاب الاول من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميمه يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبجمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب ، وبأسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتتوب إليه توبة من يؤمن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التقاب ، ونخرج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب ، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلنى وحسن مأب .

أما بعد ؛ فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمي واجترم ، فهي شذوثة نعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فإظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النقي والإنياب والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتقدم على ماسبق منه وتقدم . فن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافي بحجة الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين ؛ فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والتجرد للشر شيطان ، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سميتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حقه الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد

لمحض الخير نفارج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم مجنا عكما لا يخلصه إلا إحدى النارين : نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضروري في تخلص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون الناريين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار. إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربيع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : (الركن الأول) في نفس التوبة وبيان حذما وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثاني) : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدرجات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر . (الركن الثالث) : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة . (الركن الرابع) : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين .

و يتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول : في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور عربية : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأول والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء إطراد سنة الله في الملك والمملوك . أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة ييقن غالب على قلبه نار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب الذي كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوت للمحسوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرق على الهلاك فتشعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة ^(١) » ، إذ لا يخلو الندم عن علم

(١) حديث « الندم توبة » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أبي بصير عن علي بن أبي حمزة .

أوجبه وأثمه ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعنى ثمرته وثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدة التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ، ولذلك قيل : هو نار في القلب تلتهب ، وصدع في الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل في حدة التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل ابن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحزكات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر ؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أم من طلب الألفاظ المجردة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار ^(١) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة . قال سالك لما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، ولما بصير يهدي إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين يتقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير ؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده محتصر وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره الإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلك طريق معوضة وقطع عصبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، وهو لشدة نور باطنه يجتري بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيتته يضيء ولو لم تمسه نار ؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة ، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها ، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لو لا تعاقب السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل : صار واجباً بالإيجاب ، حديث مجتزأ فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه ؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لاهالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم . وعلم أنه لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي أعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً فبعدها عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم ، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد ، وما لم يتوجه فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم ، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة : أخرج مسلم من حديث الأغر المزني « يا أيها الناس توبوا إلى الله .. الحديث » وابن ماجه من حديث جابر « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى المحبوب ، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة ، وأما من لم يترشح لثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا توبوا إلى الله توبة نصوحا . . ﴾ الآية ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ التَّوْبَةَ وَيَجِبُ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقال عليه السلام : التائب حبيب الله والتائب من الذنب كن لا ذنب له ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحزن والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده لموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ؛ فالتفت إلى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته ^(٢) . وفي بعض الالفاظ : قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله : أنار بك وأنت عبدى ، ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا : يا آدم فزت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه : يا آدم وزئت ذوبك التعب والنصب ووزئتهم التوبة ، فن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب . والاختبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى ، وهذا داخل فى وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف فى وجوبها . ومن معانيها : ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال ، وذلك لا يشك فى وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافى ، فكيف لا يكون واجبا ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العمر وضاع فى سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابعنى أن العلم بخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فإن ذلك محال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال .

« فإن قلت : أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضا من خلق الله ، والعبد مضطر فى الاختيار الذى له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

(١) حديث « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كن لا ذنب له » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشعر الثانى « دون الأول ، وأما الشعر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب التواب من حديث أنس بسند ضعيف » ان الله يحب الشاب التائب « ولعبه الله بن أحد فى زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على « ان الله يحب العبد المؤمن المؤمن التائب » (٢) حديث « الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس . زاد مسلم فى حديث أنس « ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا .

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجز الإرادة الباعثة على التناول ؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه ؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق لإرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميل في النفس ، ولا يذبح هذا الميل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل ، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ؛ فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدا تستدرف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستتبع المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة لا أن العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حى عالم ، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال ، فهما وجد شرط الوصف استتبع المحل به لقبول الوصف لحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ؛ وهى مرتبة في قضاء الله تعالى الذى هو واحد كليح البصر ترتيبا كليا لا يتغير ، وظهرها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وعن القضاء السكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كليلح بالبصر ﴾ وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة ، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت ، وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ، ونودى من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . وما قتلت إذ قتلت . ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعند هذا تحجير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة ؛ فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم . فلم يترك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط عليه بجوانبه ، وتتمام علته ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب ، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول . وقد بطلع على الشهادة

من لم يدخل في حيز الارتضاء ، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه .

• فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل ماهو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذي لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلط الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذي لمس الأذن : لعمري هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ، ولكنهم بحملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل ، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما يختلف الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم والندم والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور المتقضى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهده ما لم يصر باعثا عليه ؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا لتركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »^(١) ، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحديته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي ، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت ، كما إذا قال الطيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطيب وكونه طيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واخدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمادة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمادة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن

(١) حديث « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الخبث حتى يتميز عن البهائم الملوثة بأروائها المستكرهة الصور بطول غالبها وأظلالها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإيمان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لأصل الروح ، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا مايسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصي للطبع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار * أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون ؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض عاف الموت ، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار ؛ فالعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصي ، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المتقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تنصرم أعمار الدنيا دون عشر عشر مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبته ؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطبله واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقحمون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ولا يغترنك لفظ الإيمان ، فنقول: المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن ، فالنجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل ؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها ، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان . إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ، ومباده يظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما الآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المسكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يسكل سلكه ملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لا تحسبن ذنبتك إلا قليلا ﴾ وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيه الشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غيبا ، فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطلق في تبدلها ، فإذا نكل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يفتنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانسكاف والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الآكثرون إذ عجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة ، فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم ، مخلقة الولد لا تنسح لما لم يتسع له خلقه الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو

أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير ، فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ^(١) » ، الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

فإن قلت : لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفته كنهه جلال الله نقص ، وإليه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب نقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لأفرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع : فما المراد بقولك : التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدل خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ماضى ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة ، فإن تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا ، كما قال تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبووع من الخبث ، ولا يمكن في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الآريان التي انطبع في القلب ، كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أتبع السيئة الحسنة تمحها ^(٢) » ، فإذا لم يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ؛ هذا في قلب حصل أولا صفاءه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة ؛ فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة ؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا ، وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته وتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالسكينة ، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالسكينة ، فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى ، بل شغل الحياة

(١) حديث « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » أخرجه مسلم من حديث الأهرمزي ، إلا أنه قال « في اليوم مائة مرة » وكذا عبد أبي داود ، ولبخاري من حديث أبي هريرة « أني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة » ورواية البيهقي في الشعب « سبعين » لم يقل « أكثر » وتقدم في الأذكار والدعوات (٢) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذي من حديث أبي درزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح ، وقد تقدم في رياضة النفس .

والحرافة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، لجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار ، والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد ما ، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ، كما يقال : العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان ، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً يفتنح بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا ، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل ، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهى الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفعهم ملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للأخرة؟ فقال: نعم ، وما الذي حدث فقال : توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزع^(١) وشغله شرك لعله الذي جتده حتى أعاد الشرك الخلق^(٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عبادته ، فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنع عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجاً؟ فلم تاب عن شربه بالتدراك على حسب إمكانه بتخليه المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسرور في صدره عزفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله ، وإياك مرة واحدة أن تغترك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف مرة أن يغترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استشفق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنفذك من شقاوة الأبد ، وأي جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراً مميئناً ، وإن صرفتها إلى معصية

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضاً (٢) حديث نزع العرق الجديد وإعادة العرق الخلق : تقدم في الصلاة أيضاً .

فقد ملكت ملاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة ، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا ، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ فقول : الأجل القريب الذي يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يمالك الموت أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأزود صالحا لنفسي ، فيقول : فليت الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخرني ساعة فيقول : فليت الساعات فلا ساعة ، فيخلق عليه باب التوبة فيتغرر بروحه وتردد أنفاسه في شراسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ، ومثل هذا يقال ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ وقوله ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتقدم عليها ويحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل المحو (الثاني) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر : « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية »^(١) ، فإدراك من هلك إلا بالتسوية . فيكون تسويده القاب نقدا وجلالؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانتته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واثمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . (والثاني) عند خروج روحه يقول : عبي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء ، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ أو فؤا بهدى أو ف بهدى ﴾ وبقوله تعالى ﴿ والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

(١) حديث « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية » لم أجده أصلا .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أيها القارئ إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في حوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تغوته السلامة بكهورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ، فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له ، وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قد أفلح من زكاه ﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يخلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كشيء عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه ، إذ بقلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لظول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تترك الذنوب حتى تصير طبعا وربنا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به ، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ، ولكننا نعصد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث ، والفرح وراء القبول ، فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة ليل إلى النهار ولمس إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ^(١) » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طاب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ^(٢) » ، وقال أيضا « إن العبد ليذنب

(١) حديث « إن الله يبسط يده بالتوبة ليل إلى النهار ولمس إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ببسط يده بالليل يتوب مسمى النهار ... الحديث « وفي رواية لطبراني « ليل إلى أن يتوب بالنهار . الحديث » (٢) حديث « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة واسناده حسن بإسناد « لو أخطأتم » وقال « ثم تائب » .

الذنب فيدخل به الجنة، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائباً منه فأزاح حتى يدخل الجنة^(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: كفارة الذنب الندامة^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وبروى: أن حبشياً قال: يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: نعم، فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: نعم، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه^(٣).

ويروى أن الله عز وجل لما آمن إبليس سأله النظره فأظهره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجب عن التوبة ما دام الروح فيه^(٤). وقال صلى الله عليه وسلم: إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ^(٥)، والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى ﴿إِنَّ كَانَ لِلْآقَابِينَ غُفُورًا﴾ في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المدنبيين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبهم.

وقال طاق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألم بها فرجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب. ويروى أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصني لأعودن فعمصه الله تعالى.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب. وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشغفاً منه، فيغفر له.

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتعلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يفلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ﴿إِنْ يَنْتَهَوْا﴾

(١) حديث «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة... الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلًا، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة «إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له.. الحديث» وفيه صالح المري، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث. وابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر «لأن الله لينع العبد بالذنب يذنبه» والحديث غير محفوظ، قاله العقيلي (٢) حديث «كفارة الذنب الندامة» أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب عن حديث ابن عباس، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف.

(٣) حديث: أن حبشياً قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال «نعم» الحديث لم أجده أصلاً. (٤) حديث «إن الله لما آمن إبليس سأله النظره فأظهره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح... الحديث» أخرجه أحمد وأبو يعل والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال: وعزتك يارب لا أزال أغوي عبداً ما دامت أرواحهم وأجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وأورد المصنف بصيغة: ويروى كذا ولم يزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرته احتياطاً. (٥) حديث «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ» لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى «أتبعت السيئة الحسنة فتحوها» رواه الترمذي وتقدم قريباً.

يغفر لهم ما قد سلف) فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ، وأند بلغني أن توبة المسلم كما إسلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب ، نزل ، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفه عين سقط عنه أسرع من طرفه عين .

قال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين وإنهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل : ومتى ؟ قال : إذا تاب على .

وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة .

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فسأه ذلك فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أتقبلني ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً : أحببتنا فأحببتنا ، وتركنا فتركنا ، وعصيتنا فأهلنا ، وإن رجعت إلينا قبلنا .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبداً نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب ، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً ، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكى ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وغاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأفلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة ، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة .

فإن قلت : أفقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله : إن الثوب إذا غسل بالصاؤون وجب زوال الوسخ ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش ، وأنه إذا دام العطش وجب الموت ، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلًا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة .

فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته ، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة ، فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشك في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته ، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتى في شروطها إن شاء الله تعالى ،

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صفاتها وكبائرها

اعلم أنَّ التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا ، فعرفة الذنوب إذن واجبة ، والذنوب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكاليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنَّ للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوامله ، ولكن تنحصر ماثرات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنّت من أخلاط مختلفة ، فانتضى كل واحد من الاخلاط في المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران في السكنجين آثارا مختلفة ، فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يمدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لاكثر المعاصي كما استقصيناه في ربيع المهلكات (الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والسكب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع عنها جل من الذنوب ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة ، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق . فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالسكر والبدة والنفاق وإضمار سوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قصة ثانية : أعلم أنَّ الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير ، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدع والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجرامة على الله تعالى كما يفعله بعض الرعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالفقر فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء في الخبر ، الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك : فالديوان الذي يغفر : ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى : وأما الديوان الذي لا يغفر : فالشرك

بالله تعالى . وأما الديوان الذى لا يترك . فظالم العباد ^(١) . د أى لابد وأن يطالب بها حتى يعنى عنها .
 قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صفائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون :
 لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة ، وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون
 عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
 إلا اللثم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر ^(٢) ،
 وفى لفظ آخر : كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص
 : الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ^(٣) ، واختلف الصحابة والتابعون فى عدد
 الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : هن أربع . وقال ابن عمر :
 هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو : هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع ، يقول : هن إلى
 سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال مرة : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وقال غيره : كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو
 من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة ، وقيل : لأنها مبهمة لا يعرف عددها
 كليلة القدر وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها
 عند قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ فبكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب
 المكي : الكبائر سبع عشر جمعها من جملة الأخبار ^(٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر

(١) حديث « الدواوين ثلاثة : ديوان يفر... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وفيه صدقة بن موسى
 الدفقي ضعفه ابن معين وغيره ، وله شاهد من حديث سلمان ، رواه الطبراني . (٢) حديث « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
 تكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث عبد الله بن عمرو : الكبائر الإشراك
 بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » رواه البخاري .

(٤) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال : الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار ،
 وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم . الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمة ،
 والأمن من مكروه ، وشهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ، والسحر ، وشرب الخمر والمسكر ، وأكل مال اليتيم ظلما
 وأكل الربا ، والزنا ، والواط ، والقتل ، والسرقه ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ما ورد منها
 صرغها ، وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو ، وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات »
 قالوا : يا رسول الله وماهى ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم
 والتول يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات » ولهما من حديث أبي بكر « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال « الشرك بالله ،
 وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور - أو قال قول الزور - » ولهما من حديث أنس : سئل عن الكبائر قال « الشرك بالله ، وقتل
 النفس ، وعقوق الوالدين » وقال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور ، أو قال شهادة الزور ، ولهما من حديث
 ابن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى ؟ قال « أن
 تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قلت ثم أى ؟ قال « أن تزاني حيلة جارك » . ولطبراني من حديث سلمة بن قيس : « لما نهى
 أربع : لا تفسركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وفى الصحيحين من حديث
 عبادة بن الصامت : « بايعوني على أن لا تفسركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وفى الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس
 « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو « أعظم الكبائر شرب الخمر » وكلامها ضعيف . ولطبراني
 من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال « الشرك بالله ، والإيأس من روح الله ، والقنوط
 من رحمة الله » وله من حديث بريدة « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضل الماء ومنع الفحل » وفيه صالح
 ابن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما ، وله من حديث أبي هريرة « الكبائر أولهن الإشراك بالله » وفيه « والاستئصال لى
 الأعراب بعد هجرته » وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف ولطبراني فى الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة فى الكبائر « والتعرب
 بعد الهجرة » وفيه ابن لهيعة ، وله فى الأوسط من حديث أبي سعيد الخدرى « الكبائر سبع » وفيه « الرجوع لى الأعراب بعد
 الهجرة » وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني ، ولطبراني من حديث عبيد بن عمير عن أبيه « الكبائر تسع » فذكر منها
 (٣) — (أحياء علوم الدين — ٤)

وغيرهم : أربعة في القلب وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع في اللسان ، وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس - وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن : وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنان في اليدين وهما : القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين : وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنتين والعشرة من العشرين . وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين ، قال : وجلة عقوقها أن يقسا عليه في حق فلا يبر قسمها ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيها ، وأن يسبها فيضربها ، ويجوعان فلا يطعمهما : هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ، فإيه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل ، فأما فقه العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر « من الكبائر السببتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم ^(١) » ، وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أمي كبيرة

= واستحلال البيت الحرام « ولطبراني من حديث واثلة « إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل » وله أيضا من حديثه « إن من أكبر الكبائر أن يقتني الرجل من ولده » ولمسلم من حديث جابر « بين الرجل وبين الشرك - أو الكفر ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « من الكبائر شتم الرجل والديه » ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد « من أرى الربا الاستطالة في مرض المسلم بنير حق » وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم مر على تمرين فقال لهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ولأنه لسكير ، أما أحدهما فكان يمشي بالغفيمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله « الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكر « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس « عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أو فيها رجل ثم نسبها » سكت عليه أبو داود واستنبره البخاري والترمذي . وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس « لاصميرة مع إصرار » وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منسكرك يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله . وروى البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : الكبائر الإشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين الغموس الفاجرة ، واللواط ، ومنع الزكاة . وشهادة الزور ، وكتبتان الشهادة وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ، ونقض العهد ، وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس : كل ذنب أصر عليه المد الكبيرة ، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله : لاصميرة مع الإصرار ، وإسناده جيد ؛ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون ، لا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم ، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف . والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له : الكبائر سبع ، فقال : هي إلى السبعين أقرب . وروى البيهقي أيضا في عن ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(١) حديث « من الكبائر السببتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم » عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد ، والذي عندهما من حديثه « من أرى الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بنير حق » كما تقدم . (٢) حديث أمي سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر . أخرجه أحمد والبخاري بسند صحيح وقال « من الموقوفات » بدل الكبائر . ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرس وقال . صحيح الاستناد .

أم لا : لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة ، والمراد بها كقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من الإضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالملحاحة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونعني بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيمًا وكبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، فإن هذا لإثبات حكم الكبائر . والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم إنها معدودة في الصغائر ، وإلى ما يشك فيه ، فلا يدري حكمه ، فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب للمسلم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : إن أردت بالكبائر عشرة أو خمسة ويفصلها فإن لم يرد هذا - بل ورد في بعض الألفاظ ثلاث من الكبائر ^(١) ، وفي بعضها سبع من الكبائر ^(٢) ، ثم ورد أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث : علم أنه لم يقصده العدد بما يحصر ، فكيف يطمع في عدد ما لم يعدده الشرع ؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسوله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي ليكونوا عبيداً ، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى بعثة الأنبياء ، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا مزرعة الآخرة ^(٣) ، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعا للدين لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيان : النفوس والأموال ، فكل ما يستد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يستد باب حياة النفوس ويليه باب ما يستد المعاش التي بها حياة الناس ، فهذه ثلاث مراتب ، لحفظ

(١) حديث « ثلاث من الكبائر » أخرجه الشيطان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاث - الحديث . وقد تقدم . (٢) حديث « سبع من الكبائر » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « الكبائر سبع » وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر « من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ... الحديث » ثم عد من سبها . وتقدم من الصحيحين حديث أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » . (٣) حديث « الدنيا مزرعة الآخرة » لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى الأصيل في الضعفاء ، وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ، الحديث ، وإسناده ضعيف .

المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها المال ، فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد بيعته لإصلاح الخلق فى دينهم ودينهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال ، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : (الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر ، فلا كبيرة فوق الكفر ، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقوية له إليه هو العلم والمعرفة ، وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله ، ويتلو الجهل الذى يسمى كفرا الأمان من مكر الله والقنوط من رحمته ، فإن هذا أيضا عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض ، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وأوامره ونواحيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر ، وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلية تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن ، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ؛ وإلى ما يدرك فيه وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطعم . (المرتبة الثانية) النفوس إذ بقاءها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصد عن المقصود وهذا يصد م وسيلة المقصود ، إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للأخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها ، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإثبات يختص بها عن سائر الفحول ، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح ، وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال وينبغى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرتة . (المرتبة الثالثة) الأموال فإنها معاش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقه وغيرهما ، بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها . نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك . الثانى : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف النصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة فإن المدعى خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طرق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس : وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع

في مثله ، وإذا لم يجعل الغضب الذي هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة ، والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين ، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا ، لأن العقل معطوظ كما أن النفس معطوظة ، بل لا خير في النفس دون العقل ، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها في محل الشك ، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، ولا فلتتوقف فيه بحال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراس ، والأعراض دون الأموال في الرية ، ولتناولها مراتب ، وأعظمها تناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظن ظنا غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجزمه لا يدل على كبره وعظمته ، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويمجد المشهود عليه بمجزمه شهادته ، فإن لم تقبل شهادته لحدته ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات ، فإذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بنصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ، وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر - إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه - فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحلق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلى أن النفي بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع . وذلك بما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه ، والمتوقف فيه بعضه مطلق للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة ، وإذن لا مطمع فيه - فطلب رفع الشك فيه محال .

* فإن قلت . فهذا إقامه برهان على استحالة معرفة حدها ، فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده ؟ فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فيكشف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً في توير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؛ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من يشتهي الحر بطبعه ولو أبيع له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم من يشتهي الحر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المشابهات فلا يغرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع، بل ورد بالفاظ مختلفة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الصلاة إلى الصلاة كفارة، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث: إشراف بالله، وترك السنة، ونكث الصفقة ^(١) »، قيل ما ترك السنة؟ قيل الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة: أن يبيع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهماً.

* فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا بمن يحتجب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا! فأعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الخنزير التبيد حددته ولم أرد شهادته، فقد جملة كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدر في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والفلان وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا نرد الشهادة بها لو واطب عليها لآثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وطلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

(١) حديث « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراف بالله وترك السنة ونكث الصفقة... الحديث أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد.

بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة

على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب الداني منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة ، فإننا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ، ولا ينصّور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ، ولذلك قال تعالى (ولا تأتوا الأمثال لنضرها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وهذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ^(١) ، وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا الأمثال المحوكة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون في بقعة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال ، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير ، وبكيفية منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال : إنك مؤذن ، تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أملك سيبت في صفرك ، لأن الزيتون أهل الزيت فهو يرد إلى الأصل ، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سيبت في صفره . وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدزني أثنائي الخنازير ، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجدده صادقا ، وإن نظر إلى صورته وجدده كاذبا : فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه وجدده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وعرفوا أن المثل صادق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) ، وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون ، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت الله تعالى يدا وأصبعاً - تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ^(٣) ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت الله تعالى مثل ذلك - تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . من ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول ، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثله يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده ، كقوله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح ^(٤) فيثور الملحد اللاحق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله . الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما ؟ وهل هذا إلا

(١) حديث « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » لم أجده مرصفا ، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب .

(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » تقدم (٣) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » تقدم .

(٤) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح ... » الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد .

حال ، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الخبيث عن معرفة أسرارهم فقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ولا يدري للسكينة أن من قال رأيت في منامى أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والأمركا رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلق الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عزفه بما في اللوح المحفوظ بمثل ضربه له ، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثله صادقا وكان معناه صحيحا ؛ فالرسول أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفعالهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في « كتاب قواعد العقائد » من ريع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض ، فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا أبته ، فإن مدبر الملك والملوك واحد لا شريك له . وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها ، إلا أنما إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الاجناس . فنقول : الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخضع على بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جازدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ، ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلى عليه ، ولا يتلج إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة المراتب بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بجز الرقبة أو تنكيلا بالمثل بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون ، فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحمل في دار السلامة ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحملون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس ، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر (١) ، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم ، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلندكر كيفية توزيعها عليها .

(١) حديث « ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأما أولهم مكانا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

(الرتبة الأولى) وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال ، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه ، فإن السعادة الآخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوه فحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون مخترقا نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال العارفون : ليس خوفا من نار جهنم ولا رجاءا من اللهور العين وإنما طالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لثيم كأن يعبد له طلب جنته أو لخوف ناره ، بل العارف يعبد لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحرق مع ألم القواد ، ولذلك قيل :

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فقدنا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضب يستولى عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار » (١) ، واحتراق القواد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزمين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام ، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إبلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك أما وقال : العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلب شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا . ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا ، وذلك لمن استرقت صفات الهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الأذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصير ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان ، وليس لكل إنسان قلب ؛ ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ لجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر ، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء

(١) حديث « الغضب قطعة من النار » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه ، وقد تقدم .

عالمه ومملكته ، والله الخلق والأمير جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ هو الأمير والمملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق ، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ، ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المنعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وحكته يختص بها من يشاء ﴾ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولنعُد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب ، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردنا .

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد : وهو أن لا يعبد إلا الله ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكلل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحذ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة . فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فذلك يقتضي لاحالة نقصانا في درجات القرب ، ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ؛ فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوة الإيمان وضعفه ، والثاني : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خرفنا لأننا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان ^(١) قال الحسن : ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأغلاها ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو ؛ وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ، كما يطرَق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع ، إذ ليس من يعذب بمصادرة المسال فقط كمن يعذب بأخذ المسال وقتل الولد واستباحة الحرم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد

(١) حديث « من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان » أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال الصملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

والأنف والأذن وغيره ؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع ، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ اليوم نحجز كل نفس بما كسبت ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال ، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ؛ إذ قال تعالى قبا أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي »^(١) ، وقال تعالى ﴿ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض - أعنى الأركان الخمسة - ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصير عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته ، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرا للصغائر ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب ، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشه راحية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمترون عليه . وإيمان كشيئ يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه ، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقرَّبون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملائكة الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم الساهون ومنهم من دهمهم ؛ وفقاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ؛ ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازلة ؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن تقليديا فن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرئين ، وهم أيضا على درجات ؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها - أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادتين باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام ، فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال

(١) حديث « سبقت رحمتي غضبي » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

بأذى شك وخيال ، والعارف الصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان بعذابان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناشة في الحساب ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات ، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ؛ ففي الخبر : آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف ^(١) ، فلا تظن ثمن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ؛ فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : أخذته جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار ؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والمثل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة مبادئ الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لا يقصد ثقله وطوله وعرضه وصاحته بل لماليته ، فروحه المسانية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسدية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المسالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيتك عشرة أمثاله ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون ؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى ، راء البصر ، لذلك يكذب به العبي بل القروى والبدوى ويقول : ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ؛ ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله : إن أعطيتك عشرة أمثاله ، والكاذب بالتحقيق هو العبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والسكال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدركه أرواح الحواهر وسائر الأموال ، فمثل ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر مدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الراية ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : الجنة في السموات ^(٢) ، كما ورد في الأحبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم العبي تلك الموازنة ، وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى في تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذ بلى بالبلبد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزير قوم ذل ^(٣) ، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » ^(٤) فلا تظن أن البلاء بلاه أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن ؛ فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » ^(٥) ، فإذن لا تغفلوا بالأنبياء

(١) حديث « إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » متفق عليه من حديث ابن مسعود .
 (٢) حديث كون الجنة في السموات : أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن » (٣) حديث « أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس ، وعيسى ضعيف ، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال « عالم ثلاثين بين الصبيان » وفيه أبو البحتري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين . (٤) حديث « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى في الكبرى ، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولياء ولطبرانى من حديث فاطمة « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ... الحديث » . (٥) حديث « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود .

عن الابتلاء بالجاهدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلنا يفتك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ؛ وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين ، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فأدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم ؛ فمن ذهل عن ذلك وعظمه وأهمله وقع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإغراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله ، إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس ، وكل من نسى الله أنساه الله - لا محالة - نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك النزق إلى الأفق الأعلى وعان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعزضا لنعمته إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة ، فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الثاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقيمتهم وانكسبت رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال ؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبة وأيدي الغائبين عن ماله ، ومدة الرقبة والمسال مدة الحياة ، لحث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان ، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها لإيمان الله . وعلامته أن لا يفتض على أحد من الخلق بما يجري عليه ، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل ، وهذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان ^(١) » ، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة ، والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود ، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك ، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها ، ففي الآخر « إن العبد

(١) حديث « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان » الحديث هدم .

ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقتضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فنقول الملائكة ياربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير ، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار ، وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال : لا أفعل ، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغرض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم ، إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لها أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعمو والرضا وعمما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز العمو عن الماصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ؛ فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ماسعى ، وسعيه هو الذي يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينه ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر ، إذ للبصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فإلى يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين ، وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم ، فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف ، وحلول طائفة من الخلق ^(١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف : أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال « هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عساة لأبائهم فتمتعتهم المشاهدة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار ... الحديث » وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف . ورواه الطبراني من رواية =

أنوار الاعتبار ؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم ؛ فهذا مظنون وليس يستيقن ؛ والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ؛ ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ؛ والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة . حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وما يدريك ، ^(١) فإذا الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين ، وهم المقربون السابقون ؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب العين وهؤلاء هم المقربون وما يلقي هؤلاء يجاوز حدة البيان ، والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان ، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فلأنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يفتنوا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجهه تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتي في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفسكر فيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ، ومجنأ أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبة ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبة حتى يلتفت إليه لانفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن

= أني معشر من يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصراً ، وأبو معشر تجميع السندی ضيف ، ويحيى بن شبل لا يعرف . ولما حكاه عن حديثه قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم الدار وقصرت سيئاتهم عن الجنة .. الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى التلمذ عن ابن عباس قال : الأعراف موضع عال في المصراط عليه العباس وحمة وعلى وجعفر .. الحديث ، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين .

(١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال « ما يدريك » رواه مسلم ، قال المصنف : والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » فقيل : يارسل الله ، وأولاد الممركين ؟ قال وأولاد الممركين « ولطبراني من حديثه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الممركين فقال « هم خدمة أهل الجنة » وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة ، وهو ضعيف يرويه عن عيسى ابن شبيب ، وقد ضعفه ابن حبان . وللنسائي من حديث الأسود بن سريع . كذا في غزاة لنا .. الحديث في قتلى القرية ، وفيه « ألا إن خياركم أبناء الممركين » ثم قال « لا تفعلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ... الحديث » وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » وفي رواية لأحمد « ليس مولود يولد إلا على هذه الملة » ولأبي داود في آخر الحديث : يارسل الله أفرأيت من يموت وهو صبي ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد الممركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ولطبراني من حديث ثات بن الحارث الأنصاري : كانت يهودى لما هلك لهم صبي صغير قالوا . هو صديق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كذبت يهود ، مامن نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد ... الحديث » وفيه عبد الله بن لهيعة ، ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار « وله من حديث عائشة : قلت يارسل الله ذراري المؤمنين ؟ فقال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : فذراري الممركين ؟ قال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ولطبراني من حديث خديجة : قلت يارسل الله أين أطفالك منك ؟ قال « في الجنة » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : أطفالك قبلك ؟ قال « في النار » قلت : بلا عمل ؟ قال « لقد علم الله ما كانوا عاملين » ولستأده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة . وفي الصحيحين من حديث الصمب بن جثامة في أولاد الممركين « هم من آبائهم » وفي رواية « هم منهم »

تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور . أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأبكم ، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ، ويرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿ وإن أئدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلفظه .

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلاً لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الأعمال أدومها وإن قل ^(١) ، والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في توير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يرمى الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتمفها صغائر سابقة ولا حقة ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلها استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراميته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الآلاف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تويره بالطاعات ، والحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة ، وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » ^(٢) ، وقال بعضهم : الذنب الذي لا يغفر قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعله بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لاصغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلمها غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه ،

(١) حديث « خير الأعمال أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحب » وقد هدم .

(٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ... الحديث » أخرجه البخاري . من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين : أحدهما من النبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر من نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا .

كما يقول : أما رأيتني كيف مزقت عرضه ، ويقول المناظر إني مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخطئته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التحارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحقتة ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجي شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحله عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما ، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمته من مكر الله وجهله بمكام الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبه جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾^(١) ومنها أن يأق الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيائه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ففاظلت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحل عليه وتهية الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ، وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين ببيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه »^(٢) وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر ؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبن ، ولذلك قال تعالى ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ وقال بعض السلف : ما انتك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب ، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم آماد متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا »^(٣) ، قال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل . وقال ابن عباس : ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويفرق أهلها . وفي الإسرائيليات : أن عالما كان يضلل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرًا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ، فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفاءه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا ، فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجميل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدر على التجميل إلا بخدمة السلاطين

(١) حديث « كل الناس معافي إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « كل أمي » وقد هدم

(٢) حديث « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله

وقد تقدم في آداب الكسب .

وجمع الخطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك ، لحركات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالرج وإما بالخسران ، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

الركن الثالث : في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها : أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبتة وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شىء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار ، فإلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلاصة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة (١) » ، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلواتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفى الإسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه - وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم يرق قبول توبته فقال - وعزنى وجلالى لوشفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه .

فإن قلت : فالذنوب هى أعمال مشتهية بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلبه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار فى كل ذنب . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال ؛ وهو يوجب ترك كل محذور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال . وله تعلق بالماضى ؛ وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشروط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من

(١) حديث « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » لم أجده سرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال « جالسوا التوابين فإن رحمة الله لى النادم أقرب » وقال أيضا « فالموعظة لى قلوبهم أسرع وهم لى الرقة أقرب » وقال أيضا « التائب أسرع دعة وأرق قلبا » .

عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فى ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهلة بشرط النية فيقضيها عن آخرها ، فإن شك فى عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض ؛ فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لامن زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة فى مال الصبي - فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته ، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يحجزه أصلا ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يوجب به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام : من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ^(١) ، والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجناة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاء وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم : اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ^(٢) ، بل من قوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالمعصية ، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقييله بأن يكتب مصحفا ويعمله وفقا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى التناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد لابلحارارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا ... الحديث » تقدم فى الحج (٢) حديث « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى آداب الكسب وبهذه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس .

به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السوء بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم يذب بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم »^(١) ، وفي لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه »^(٢) ، ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكتيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثمكلى قال : فإله عند الله ؟ قال : أجر مائة شهيد . فإذا الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد فيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا ، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضعافها ، فيقابل إبداءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غضب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب . لأن تلك لإحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق لإيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فنوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عندولى الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويمتلك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزينيت وإني أريد أن تطهرني ! فرده فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زينيت ! فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فخفر له حفرة ثم أمر به

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم » وفي لفظ آخر « إلا الهم في طلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النسخاح .

(٢) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم » وتقدم أيضا في النسخاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »^(١) ، وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إني قد زينت فطهرني ! فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا ، فوالله إني لحبلى : فقال صلى الله عليه وسلم : « أما الآن فأذهبي حتى تضعي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال : « أذهبي فأرضعيه حتى تظميه » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها لخفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال : « مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .^(٢)

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بنصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبس كتدريج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده ، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي لإخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالما مطالباً به ، إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحيات والدوافق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه ، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستأجرهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدررون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره . فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف ؟ وربما يكون الأجل قريباً ؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الاوقات . هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المسالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام .

وأما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يعيهم في الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة ، وأما من وجد وأحله بطيب قلب منه فذلك كفرته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

(١) حديث : اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعاً وقوله « لقد تاب توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجعها وقوله صلى الله عليه وسلم « لقد تابت توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض القدي قبله .

وتعرضه له فلاستحلال المبهم لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعذبه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته ، فإن كان في جملة جنايته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شؤفه به فقد انسدت عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الميت والغائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلة عليه فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال ، فإن أبي إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته ، وإيكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه ، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه ، كن أتلّف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين . وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله فكل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيتها كان أدنى فهو له ففاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة (١) ، وفي رواية « فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها ، وفي رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تساعدى وإلى هذه أن تقتربنى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمشغال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالمساضى .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بم عهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلب الشهوة في ثانی الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض .. الحديث » هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تاباً مع الإصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات ؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع سنين لم يبتل بها . وقال آخر . من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً ، وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح ، وقال قائلون تصح ، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل ، بل نقول لمن قال لاتصح : إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بلا وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ! فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع . هذا حكم الظاهر ولسناتكم في خفايا أسرار غفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لاتصح لى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم . وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لالكونها سرقة ؛ ويستجمل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجه العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض ؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض التائبين ، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أن ثمرة مجزئ الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي ، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فنقول : التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه ، كالذي يحنى على أهل الملك وحرمه ويحنى على دابته فيكون خائفاً من الجنابة على الأهل مستحقراً للجنابة على الدابة ، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى . وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الحالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر .

الثاني : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند

الله ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه ، فهذا أيضاً ممكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر ، لأن الكبائر أيضاً متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرك فبحسب ترجيح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً فى المستقبل وندماً على الماضى .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذى يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وتلب الناس والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ؟ بل يقول هذا الفاسق فى نفسه ؛ إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخص العنان بالسكينة بل أجاهده فى بعض المعاصى ، فعسانى أغلبه فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى . ولولم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقترب بترك الفسق ؛ وهذا محال . بأن يقول الله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان ، وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا ، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم توبة ، ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن كثرة الذنوب تأهيرا فى كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كالمرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلاً ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون مائتاب عنه مخالفاً لما بقى عليه إما فى شدة المعصية وإما فى غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم ، فيتصور اختلاف حاله فى الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاءه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهي .

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم

يبحث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لابتكره إياه ، واسكى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية لسكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً للذنب وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهييج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه ، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه ، بل الظاهر أنه يقبله .

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقة الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك في المستقبل . وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس عملاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يعيش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً .

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقى في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدهما ويمنعها فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني : إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد : وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو في عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة .

والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحدهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبثق بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبثقة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة ، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مئة وإن غلب مئات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الاخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديبها أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهييج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود

الجهاد فإن الجهاد كان مقصوداً لهينه ، بل المقصود قطع ضرارة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر . ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجراح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن رفع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرت بهم أنفسهم فمعجز عنه فقال : هذا محال ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذنبين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت محتلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية ؟

فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدى ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى لإرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك ، فإن ظهر له مبادء الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرق ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولو جلس على شاطئ البحر بعد عبوره يسكن متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليمتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التلبية بما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبهائم عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك — وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع المهلكات — بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في الدعيم في الآخرة لتزيد رغبته ، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخمر والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا .

فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة ، فالمبتدئ أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يصدئك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتقة بأهمهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنفعهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلات للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشعر »^(١) ، وفي لفظه إنما أسهو لأسن . . ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة لطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن : « كخ كخ »^(٢) ، لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه ؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول أرم هذه التمرة فإنها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ترك الفصاحة ونزل إلى لكتته . بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تطفئا في تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها منزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين . نسأل الله حسن الترفيق بلطفه وكرمه .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يتحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا »^(٣) ، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فمتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملئ بمجاهدتها وردا . ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر : فمن محتطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن يمهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء : إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتبيح الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطعم في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

(١) حديث « أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشعر » ذكره مالك بلا غير إسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مراسلا لإسناد له وكذا قال حمزة السكيتاني لأنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي : وقد طال بحني عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له إسناد

(٢) حديث أنه قال للحسن « كخ كخ » لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « سبق المفردون المستهترون بذكر الله » . الحديث أخرجه الترمذي .

حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء .

(الطبقة الثانية) تأب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعترية لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال النائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالسكينة كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغز إن ربك واسع المغفرة ﴾ فكل المسامحة بضعف لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللغز المعفو عنه . قال تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فأنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب »^(١) ، وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا ويميل أحيانا »^(٢) ، وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »^(٣) ، أى الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة النائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه في الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختططات قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون »^(٤) ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قهرها وكفها شرها ، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ بتقديم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي

(١) حديث على « خياركم كل مفتن تواب » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف - (٢) حديث « المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا ويميل أحيانا » أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وكلها ضعيفة وقالوا « تقوم » بدل « تفيء » وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس .

(٣) حديث « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة - (٤) حديث « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين المستغفرون » أخرجه الترمذي واسناده صحيح وإسناده من حديث أنس وقال « التوابون » بدل « المستغفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري - (٥) حديث « المؤمن واه رافع غيرهم من مات على رقبته » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا « فسيديهم » بدل « غيرهم »

في قهرها ، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى : النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيريه ، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله به ضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس ، فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح للملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التوكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب . ولذلك قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد غاب من دساها ﴾ فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شهر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ^(١) » ، فإذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا يتفجع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصيرين ، وهذه النفس هي : النفس الامارة بالسوء ، الفرارة من الخير ؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه ، كما لا يستحل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجمده ، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له ، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا الخالصون والمخلصون على خطر عظيم . وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يحده تحت الأرض في بيته الحرب يمد عنه ذوى البصائر من الحق والمغرورين - وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله - - فكذلك من ينتظر

(١) حديث « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله « سبعين سنة » ولسلم من حديث أبي هريرة « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ... الحديث » ولاحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة » وشهر بخلاف فيه .

المغفرة من فضل الى تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أبواب القلوب من المعتوهين . والعجب من عقل هذا المعتوه وترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك ففساه يرزقك من حيث لا تحسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول : ما هذا الهوس ! السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً ، وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا ؟ ويفسى قوله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحة ﴾ أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المقلب والمآب .

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوما فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لأسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد ، وكذلك يضر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي ، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار - كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار .

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً ؛ أربعة من أعمال القلوب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي : أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تسنفر الله تعالى بعد سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده ، مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم

يوماً ، وفي بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين ^(١) وفي بعض الأخبار : تصلّي أربع ركعات ^(٢) وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية » ^(٣) ، ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم « أو ما صليت معنا صلاة الغداة » قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات » ^(٤) ، وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويحتمد في دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمتهم بآيات الله » ^(٥) ، وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قول أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر - ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات - حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ^(٦) فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عا . في اليوم سبعين مرة » ^(٧) .

(١) أثر « إن من مكبرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه « ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا عفر الله له » ، اعطى أي داود وهو في الكبرى للنسائي صرفوا وموقوفاً لعلم المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطاً ولما لا آثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث : التكبير بصلاة أربع ركعات : أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهودى امرأة ... الحديث وفيه : فلما رآها جالس منها بجاس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدية فقام نادماً فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « صل أربع ركعات » فأنزل الله عز وجل ﴿ وأنتم الصلاة تطرون النهار ﴾ الآية وإسناده جيد .

(٣) حديث « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم وزواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه باللفظ « وما عمات من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ... الحديث » (٤) حديث : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أصبت منها كل شيء إلا المسيس ... الحديث في نزول ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ما صليت معنا صلاة الغداة » ورواه مسلم من حديث أسد وفيه « هل حضرت معنا الصلاة » قال : نعم ، ومن حديث أبي أمامة وفيه « ثم شهدت الصلاة معنا » قال : نعم ... الحديث (٥) حديث « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمتهم بآيات الله » أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس باللفظ « كالمتهم بآيات الله » وسنده ضعيف .

(٦) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية « كان لنا أمانان ذهب أحدهما » أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه « أنزل الله على أمانين ... الحديث » وضعفه وابن مردويه في تهذيبه من قول ابن عباس (٧) حديث « ما أصر من استغفر ... الحديث » تقدم في الدعوات .

وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تدمت إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لابد للعبد في كل حال من مولاة ، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصي قال يارب استر علي ، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي ، فإذا تاب قال يارب ارزقني النصمة ، وإذا عمل قال يارب تقبل مني . وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال : أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلعة ، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حلة العرش . وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم : التائب حبيب الله ، فقال : إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية . وقال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه .

والمقصود أن للتوبة ثمرتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له (والثانية) نيل الدرجات حتى يصير حبيبا . وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات . وإن خلا عن حل عقدة الإصرار . من أوائل الدرجات . فليس يخلو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كالأحجار التي تلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكن لا يرجع الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات ، فأياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيتها وذرات المعاصي فلا تنفيتها كالمراة الحرقاء تكسل عن الغزل تعمل بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطارها اجتمعت ذرة ذرة . فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل . فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر . لم يعود الفضول . وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي . فن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا ؛ سبق لسانه إلى ما تعود فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ومعاني قوله تعالى ﴿ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه

أجراً عظيماً) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة (أكبر لو كانوا يعلمون) فأياك وأن تلبح في الطاعات مجرد الآفات فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلغته على المخرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للحقايا والسرائر ، فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب ؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب ، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم المغرور : فاستشمر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأضعف الشيطان وتبدل بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شئ طبقه وافقه فاعتقه . وأما المقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفتن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ، ولكن امتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير . فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً ، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً ، والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهو كذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضا في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فاعل رضاه فيه ، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فاعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقروا منهم أحداً فاعله ولى الله تعالى . وزاد : وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فر بما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدعج ربك من شاب ليست له صبوة »^(١) ، وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ونذكر الدراء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفع وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

(١) حديث « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقب بن عامر وفيه ابن لهيعة .

الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى ﴿ وأولئك هم الغافلون لا جرم أهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ فلا دواء لإذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكنجين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيجمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلاً : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانها .

فإن قلت : أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم بمجملاتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون أقرب إلى الفهم فقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الاول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك . وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببها هو الطاعة وللشقاوة سببها هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع ، وهذا لابد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

(الثاني) أنه لابد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب ، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه : العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلاف .

(الثالث) أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثه له على الاحتماء . ووزانه من الدين : الإصغاء إلى الآيات والاختبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج

(الرابع) أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . ووزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ؟ وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بأفاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تسكير ماسبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسئل عنه ، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أن الذي ظهر على وجهه برص

ولا مرآة معه لا يعرف برصه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ، والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتذى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقمده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل ؛ إحداها : أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتشكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال ؛ فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ! وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواظبتهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع وأخف على الطباع ، فتتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله :

ومهما كان الطبيب جاهلا أو غائبا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه . فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى العلة . أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكافة وكاف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكيفية : فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال . وكذلك المعصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت : يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب . فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذا فسدت الأطباء هي المعضلة الزبالة التي لا تقبل الدواء أصلا .

فإن قلت : فاذا ذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع .

(الأول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للذنوب والمعاصي ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ! فيقول الآخر : يا ليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا بما عملوا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف : مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتاه لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحللت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها ^(٢) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع ^(٣) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير .

والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه ^(٤) .

(النوع الثاني) حكايات الانبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصائي . قال : فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شئ المعصية أخرجنا من جوار الحبيب . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل : لأن المرأة سألته أن يحكم لآبيها فقال نعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقلبه أن

(١) حديث « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ... الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « لأن الله ملكا ينادي في كل ليلة أبناء الأربعم زرع قد دنا حصاده .. الحديث » وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذكروا ما علموا ... الحديث » .

(٢) حديث عمر « الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ... الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة » قلت هكذا قال المصنف : وفي حديث مجاهد ، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وايس بمرفوع وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٤) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لما خلف دينارا ولا درهما لئلا يخاف العلم والحكمة أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بهيرا . وفي حديث أبي هريرة : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم .. الحديث وقد تقدم في العلم .

يسكون الحكم لآبيها على خصمه لمساكها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فأبى سليمان بن داود شج وطرده وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطرده وبصقت في وجهه . وفي رواية : أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين - أيام العقوبة - قال : فجاءت الطيور فمكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذروا إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى في الإسرائيليات : أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبت بها ، فجاهدها واستعصم ، قال : فنبأ الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام : بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال : بترك المعاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قيصره نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه ! قال : فوضعت الريح ، فقال لم فعلت هذا ولم أمرك ؟ قالت : إنما نطيعك إذا أطعت الله . وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لتو لك لإخوته (أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) لم خفت عليه الذئب ولم ترجى ، ولم نظرت إلى غفلة لإخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال : لا ، قال : لأنك رجوتني وقلت (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) وبما قلت (اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذكرني عند ربك) قال الله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الاسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ؟ نعم كانت معادتهما في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا إنما ولان عذاب الآخرة أشد وأكبر . فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

(النوع الثالث) أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله ، فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »^(١) ، وقال ابن مسعود : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ؛ وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا »^(٢) ، وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة

(١) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه اسناده واقتضاه لا أنه قال « الرجل » بدل « العبد » من حديث ثوبان (٢) حديث « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا » تقدم ،

العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يميته الله تعالى ليقتله الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يمشى في وسط الوحل ويبكى ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاذرها حتى يقع في ذنب وذنوب فعندها يخوض في الذنوب خوفاً . وهو إشارة إلى أن الذنب تتمتع عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفصيح : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك وزنتك ذلك . وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوفقت أنظر إليه فترى ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت : يا أبا عبدالله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار ! فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر : ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم ^(١) ، وفي الخبر : يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذية مناجاتي ^(٢) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان - في قصة يطول ذكرها - قال فيها : كنت قائماً ذات يوم أصلى نخاسر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعالج بغسله في الحمام بالصابون فلا يرد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة ، فلما أتيت قال لي : أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فسارت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ؟ .

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيماً أخفى عنه حتى ينهلك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من السقر والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته ، فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفى لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقه والقتل والغيبة والكبر والحسد ، وكل ذلك مما لا يمكن حصره ، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشغل بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي قال : لا تغضب ^(٣) ، وقال له آخر أوصني يا رسول الله فقال :

- (١) حديث « ما أنكرتم من زمانكم فيما أنكرتم من أعمالكم » أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هاشم . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .
(٢) حديث « يقول الله لاني أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي » غريب لم أجده .
(٣) حديث : قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال « لا تغضب » تقدم .

عليك السلام « عليك بالياس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه ^(١) » ، وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : وكيف لي بذلك ؟ قال : الزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاء عنه ، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ : أوصني ، فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الغضاظة والغلظة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم ، أوصني فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أراهم بالناس بل غسوا في ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها : أن اكتب لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاء الله مؤنة الناس ، ومن التمس بسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس ^(٢) » ، والسلام عليك . فانظر إلى فقهما كيف تعرضت للكمة التي تكون الولاة بصدددها ؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى . أما بعد ، فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس . وإذا اتقيت الناس لم يغتروا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضيق زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأل من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر ، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل .

ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري : أوصني ، قال : عليك بتقوى الله عز وجل فإنه رأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذو كرك في أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فإنه بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن : أوصني ، فقال : أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتك ولا تجادلهم فيهم فتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضولك بسبك لا خرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفه ولا تخاطب ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه : يا بني لا تصحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيق مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت ، يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغتم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل مالو جاءك الموت عليه فرأيت غنيمة

(١) حديث قال له آخر : أوصني قال « عليك بالياس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه . والحاكم وقد تقدم .

(٢) حديث عائشة « من التمس رضا الله بسخط الناس وكله الله إلى الناس ... الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

فالزمه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيتته مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصني ، فقال : كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضاررا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام : أوصني ، فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف : أوصني فقال : اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات ، قال . وما غلاف الدين ؟ قال . ترك طلب الدنيا إلا مالا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أما بعد ، نخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ؛ فإن الهول الأعظم والأمر المفزع أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسروا من نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ، فإذا زلت فارجع وإذا ندمت فاقبل وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكُن فيها يا أمير المؤمنين كالمدأوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أرطاة . أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أوليائه فغفرتهم وأما أعداؤه فغفرتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله . أما بعد ؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل آخذ للظالمين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب ، بل القائل متصاف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . (الأصل الثاني) الصبر : ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يتناول ذلك : إما لغفلة عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته ؛ فله سبيلان فما ذكرناه هو علاج الغفلة . فيبقى علاج الشهوة - وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس - وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كحل مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه ، فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي ، كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخلوقات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج . هو

حضور المشتى والنظر إليه ، وعلاجه الحرب والعزلة . ومن داخل : تناول لذائذ الاطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتقام الفهم ، وينبعث من تمامه لاحتالة خوفه . وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعث الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فائق وانتظر الثواب وصدق بالحسن فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسن فسييسره الله للعرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإتمامه الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب ، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن ؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان ، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور .

(أحدها) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

(الثاني) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف - والعادة طبيعة خامسة - والنزوع عن العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل تؤثرن الحياة الدنيا ﴾ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها » فخفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبق أحد إلا دخلها . وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فخفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد »^(٢) ، فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً إلى المال سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهن عليه الألم المنتظر .

(الثالث) أنه مامن مذهب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات ، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يستوفى التوبة والتكفير ، فمن حيث رجاءه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان .

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها ،

(١) حديث « حفت الجنة بالمكاره » . الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها » . الحديث « أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة لجبريل اذهب فانظر إليها » (٨) — إحياء علوم الدين — (٤)

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذي يحذر الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر من لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر .

فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدر به لعل الساعة قريب ، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً . ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في المستقبل ، إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألم لحظة إذا لم يخف ما بعده ، ومفارقة الدنيا لا بد منها ، فكيف نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ؟ فلينظر كيف يسادر إلى ترك ملاذه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول : كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنفضها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟ وأما تسويق التوبة فيعالجها بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويق ، لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبق . وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتیاد ! فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكد لها . وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين המתأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق . وما مثال المسوف إلا مثاله من احتاج إلى قلع شجرة فأمرها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف .

وأما المعنى الرابع : وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كثر في أرض خربة ، فإن لمكان العفو عن الذنب مثل هذا المكان ، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار ! فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة ! وقد حكى في الاسمار أن مثل ذلك وقع فأننا أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون .

وأما الخامس وهو شك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحالة ذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال : أنا شاك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد بجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه خية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطمعة ؟ فيقول : أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصفاء العقلاء . ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الآلباب -- عن صدق رجل واحد بجهول لعل له غرضا فيما يقول ؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبق أبدا الآباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المسكرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبدا الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا بمائة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبدا الآباد شيئا ، فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبق أبدا الآباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعزى :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما

لذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلفنا جميعا وإلا فقد تخلفنا هلك ! أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت : هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تال إلا بالفكر فإبال القلوب هجرت الفكر فيها واستنقلته ؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران (أحدهما) أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأموالها وشهواتها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة . (والثاني) أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقتة فصار عقله مسخرا للشهوة فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك .

أما علاج هذين المانعين : فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقاق ألم مواعته ، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا سريعة الدور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية هن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الأناش به ؟ ولو لم يكن للطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأناش بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا ، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قابلة - ما عودتها تتعود - والخير عادة والشر لاجابة .

فإذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن الذات ، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روى في حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ؟ فقال على رضى الله عنه : بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسي الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشدا ، ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من الله ما لم يكن يحسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانعضاء .
أما بعد : فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ^(١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان ؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان ، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . (الشطر الأول) في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ،

أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل ﴿ وجعلنا منكم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى : الصوم لي وأنا أجزى به ، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى ﴿ بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوقين ﴾ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم : الصبر نصف الإيمان ^(١) ، على ما سيأتى وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عنده الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم ﴾ ^(٢) ، الآية وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة ^(٣) ، وقال أيضاً : الصبر كنز من كنوز الجنة ^(٤) ، وسئل مرة : ما الإيمان ؟ فقال : الصبر ^(٥) ، وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم : الحج عرفة ^(٦) ، معناه معظم الحج عرفة وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ^(٧) ، وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وأن من أخلاقى أنى أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عباس : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال : « مؤمنون أنتم ، فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله قال : وما علامة إيمانكم ؟ ، قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو ليم والحطيب . بن حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم

(٢) حديث « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث » بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله

(٣) حديث جابر : سئل عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة » أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه

يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده

(٤) حديث « الصبر كنز من كنوز الجنة » غريب لم أجده . (٥) حديث : مثل مرة عن الإيمان فقال « الصبر »

أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرثوعاً « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد »

وزيد ضعيف (٦) حديث « الحج عرفة » تقدم في الحج .

(٧) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » لأصل له مرثوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا

رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس .

« مؤمنون ورب الكعبة ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير كثير ^(٢) » ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين ^(٣) » ، والأخبار في هذا لا تحصى .

وأما الآثار . فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا . الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسده لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول . نعم العبدان ونعمت العلاوة للصابرين ؛ بنى بالمعدين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فوق العبد على البعير وأشار به إلى قوله تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ بكى وقال . وأعجابه أعطى واثى أى هو المعطى للصبر وهو المثى . وقال أبو الدرداء . ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقة ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنظم من ثلاثة أمور . معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال والأحوال تشعرا لأعمال فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل - كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد العقائد - وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبجالة قائمة . فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم . فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة . أما فى البهائم فننقصانها . وأما فى الملائكة فلنكاملها .

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارقة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق فى ابتداء العبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبر عبارة عن

(١) حديث عطاء عن ابن عباس : دخل على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . الحديث « أخرجه الطبراني فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء .

(٢) حديث « فى الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث « لو كان الصبر رجلا » لكان كريما أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صريح بن دينار ضفه الضعيف

ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم . ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقويه ، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم . واختص بصفتين : إحداها معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالمواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فلذلك لا تطالب إلا اللذيق . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر .

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها : باعثا دينيا ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما بحال ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين .

فإن ترك الأفعال المشتبهة عمل يشعره حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه - أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى - قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنقاض الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين يأذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبى الدست ، الذى ينبغي أن يكون مسلسا له . فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال .

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب لإقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسمى إليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمته من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين .

أما الكرام فلا تتفاجع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلا يثبتانها الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملئكت لا من عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملئكت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى ، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته »^(١) ، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وفيها يقال ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهلول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره ، فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهولاء أبدا متزلزل وأنت لا تتخشاها إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها بدنك فقط ، فهي أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سماءك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحم فقد حملت الأرض والجبال فدكتها دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا ، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقا ، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد لجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالآخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلًا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، واست أطول بجميع موازنة الأحوال والآهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يموتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك . فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتشرت حواسك التي بها تفتتح بالنظر إلى الكواكب ، والأعشى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها فلا ينجلاء بعد ذلك حصه غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فن لا رأس له لا سماء له فن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟ فهذه هي القيامة الصغرى . والخوف بعد أسفل والهلول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الآهوال .

(١) حديث « من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بن مالك ضعيف .

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فإننا لم نذكر عشرين أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى السكال منازل وأطوار من نقطة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فبنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا يثبكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ فالمقتر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت . والمقتر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور الدجال .

فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأحوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء ؑ كفى بالموت واعظا (١) ، أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم ؑ اللهم هون على محمد سكرات الموت (٢) ، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ؟ فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ ﴿ أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم لم يعلموا ﴾ أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ولما كان ﴿ ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وذلك لأننا ﴿ جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

ونرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا عن الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادئ لإشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق

(١) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الرهد . (٢) حديث « اللهم هون على محمد سكرات الموت » أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم واليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ « اللهم أعني على سكرات الموت . »

- إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام السكاتبين البررة الأخيار - أن يكتب على الصبر سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم يشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولى هذا سمته في حق الصبر فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبر . فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ^(١) ، وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ، ولاشتال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ريع العبادات . ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا . فيكون الإيمان ركنان : (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر . والمراد باليقين . المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمراعاة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار . ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث ، إلى آخره .

الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المشمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ؛ فالشهوة اطلب اللذيق والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار : الصوم نصف الصبر ، لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان : والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان ؛ أحدهما : ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كتعاطي

(١) حديث : أنا وكافل اليتيم كهاتين ، أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم .

الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرضى العظيم والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلقت أساميها عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . وإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتصاده حالة تسمى الجزع والهلوع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الحدود وثق الجيوب وغيرها . وإن كان فى احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتصاده حالة تسمى البطر . وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويصاده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والعصب سمي حلما ويصاده التذمر . وإن كان فى فائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويصاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ويصاده الحرص . وإن كان صبرا على فدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويصاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال : هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال : الحج عرفة ^(١) ، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى السكل صبرا فقال تعالى ﴿ والصابرين فى البأساء ﴾ أى المصيبة ﴿ والضراء ﴾ أى الفقر ﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسماء يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذاتها وحقائقها من حيث رأى الأسماء مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسماء فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطالب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ فإن الكفار لم يزلوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بسكرمه ولطفه .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها : أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأفلون فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستوتوا على الصراط القويم واطمأننت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . ولما هم ينادى المنادى ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرققتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم لحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله . ولهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ففسدت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم ﴿ فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا

(١) حديث « الحج عرفة » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن بمر وتقدم فى الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴿ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالآمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١) ، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله في يد شهواته كسليم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمر وحملها ، وعمله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سحر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سحر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر ، بل هو كمن فسد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبغض أعدائه ، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيغابه لنقمته ! لأن الهوى أبغض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى . والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذان المجاهدين يعد مثله لآمن الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ هذا باعتبار القوة والضعف . ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى . والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا ، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ، ولذلك قيل :

ولم أوفى عيوب الناس عيبا كتنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ﴿ فأما من أعطى واتق وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حيلة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا يفهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا - كما سيأتى في كتاب الرضا - فالرضا

(١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » تقدم في ذم الغرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ^(١) » .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين . وسببين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا ، كأن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

راعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور كن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكنا . وكن يقصد حربه بشهوة محظورة فتتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بمحنة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحك الصبر . فكأن الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذي يوافق هواه . (والآخر) هو الذي لا يوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والآنصار وجميع ملاذ الدنيا . وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إل البطر والطنيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوائى لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال . والزوج والولد فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبنة مجنة مخنة ^(٢) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته ^(٣) » ، ففي ذلك عبرة لأولى الأبصار .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإففاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه

(١) حديث « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٢) حديث « الولد مبنة مجنة مخنة » أخرجه أبو بلى الموصلى من حديث أبي سعيد وتقدم . (٣) حديث « لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر — كما سيأتى — وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاّه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامة نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(النوع الثانى) ما لا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب . أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشنى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان : (الضرب الأول) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان متمتعا من إظهاره فإن استشاطته وغيطه عند تقصيرهم فى خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء . فإذا ن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ^(١) ، وقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يفغل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا ﴾ أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

(الضرب الثانى) المعاصى : فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه ^(٢) ،

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمرو وقد تقدم (٢) حديث « المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه » أخرجه ابن ماجه بالسطر الأول والنسائى فى الكبرى بالسطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدم

والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإضرار والاستحقار وذكر الموتي والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . والاجتماع للشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتمادا في المحاورات بعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستتباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الانس بها ، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا (١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينحيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوسواس ، فلا حرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلظ على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ، كمن أصبح وهوومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثاني) مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كالأذى بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى ﴿ وانصبرن على ما آذيتنونا وعلى الله فليتكول المتوكلون ﴾ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحزنت وجنتاه ثم قال « يرحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر (٢) » ، وقال تعالى ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عن ظلمك (٣) » ، ورأت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام ، لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن لحول إليه

(١) حديث « إن الغيبة أشد من الزنا » تهدم في آفات اللسان (٢) حديث : قسمة مالا وقول بعض الأعراب : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث « متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٣) حديث « صل من قطعك ... الحديث » تقدم

الحخذ الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سحرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والغضب جميعا .

(القسم الثالث) ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره : كالمصائب : مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : « الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ماثنون على به مصائب الدنيا ^(١) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « انتظر الفرج بالصبر عبادة ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهم ازرني بمصيتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك ^(٤) » ، وقال أنس : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى جزاؤه الخلود في دارى والنظر إلى وجهي ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبيدى ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي ^(٦) » ، وقال داود عليه السلام : يا رب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

(١) حديث « أسألك من اليقين ماثنون به على مصائب الدنيا » أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم في الدعوات (٢) حديث « قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل ... الحديث » أخرجه ابن هدى من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث « انتظر الفرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا في الفرج بعد القعدة من حديث على دون قوله « بالصبر » وكذلك رواه أبو سعيد المسالبى في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة ولترمذى من حديث ابن مسعود « أفضل العبادة انتظار الفرج » وتقدم في الدعوات (٤) حديث « مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

(٥) حديث أنس « إن الله قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه ... الحديث » أخرجه الطبرانى في الأوسط من رواية أبى ظلال القسلى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ « إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبيدى بمصيبة فصبر هوشته منها الجنة » رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ « إذا أخذت كريمتى عبيدى لم أرض له ثوابا دون الجنة » قالت يارسل الله وإن كانت واحدة قال « وإن كانت واحدة » وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٦) حديث « يقول الله إذا ابتليت عبيدى ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ... الحديث » أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موثوقا على أبى هريرة .

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلى رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ويقال إن امرأة فتش الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجددين الوجد ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه . وقال داود لسليان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : من أجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ^(١) ، ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني . وروى عن بعضهم أنه قال : مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جزئ قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فأني صائم فإن عشت إلى الليل شربته . فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطّر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في اللبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يحتجب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن الرميمصاء أم سليم رحمها الله ، أنها قالت : توفي ابن لي وزوجى أبو طلحة غائب ففقت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة ففقت ففقت ففقت له إفطاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبي ؟ قلت : بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أنصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : ما لهم ؟ قلت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، الحمد لله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : اللهم بارك لها في ليلاتها ^(٢) ، قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال : رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالريمصاء امرأة أبي طلحة ، وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له : أمانيتنا عن هذا ؟ فقال : إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحما ، بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجامه والنصد راض به وهو متألم بسببه لا بحالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه - وسيأتى

(١) حديث « من أجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكدمات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال « من العبد أن لا يتحدث بمصيبته ولا بوجعك ولا بتركي نفسك »
 (٢) حديث الرميمصاء أم سليم : توفي ابن لي وزوجى أبو طلحة غائب ففقت فسجيت في ناحية البيت . الحديث « أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أسى مع اختلاف .

ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى - وكتب ابن أبي نجيب يعزى بعض الخافاء : إن أحن من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له : واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكير في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة . فقد ظهر لك بهذه التقسيات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال ، فإن الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر ، فهو كيفما كان تضييع زمان . وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحجة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ، ولا يكون ذلك غالبا ، بل يتفكر في وحوه الخيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته ، ولا يزال في شغل دائم ، فللشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خاق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه . وانقياده بالإذعان بسجود منه - فهو روح السجود - وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدي الملعون المحترم يرى استخفافا بالعادة ، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب ! فتكون من قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهموك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فن غفل عن الله تعالى ولوفى لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى

﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ ^(١) » ، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً ، بل يعيش فيه الشيطان ويبغض ويفرخ ، ثم تزدوج أفراده أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار ، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع أبته بل تسرى شيئاً فشيئاً على الاتصال . فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تبق النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة ، فإذا ن تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة . نفسك ، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج - حين كان يصاب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال : هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

فإذن حقيقة الصبر وكأله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء و وعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تتركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة .

فنقول : إذا اقتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول ، قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يظلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلزنا هنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسيبل تضعيفه ثلاثة أمور .

(أحدها) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة - من حيث نوعها ومن حيث كثرتها - فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه ، فيحتز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

(الثاني) قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتتة والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النظرة سهم من سهام إبليس ^(٢) » ، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تضييع الأجفان أو الهرب من صوب رميه . فإنه إنما يرى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه .

(الثالث) : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتبه بذلك بالنكاح ، فإن كل ما يشتبهه الطبع في المباحات

(١) حديث « إن الله يبغض الشاب الفارغ » لم أجده . (٢) حديث النظرة سهم مسوم من سهام إبليس ، تقدم في مصرية

من جنسه ما ينجى عن المحظورات منه : وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقيم الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالبائة فن لم يستطع فعله بالصوم فإن الصوم له وجاء » .^(١)

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثاني : يضاهى تغيب اللحم عن الكلب وتغيبب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب .

وأما تهوية باعث الدين فإنما تكون بطريقتين ، أحدهما : إطاعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثّر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة (وفي الآخر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإلته بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيججا شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوقى الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثاني : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجيا قليلا قليلا حتى يدرك لذّة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الحالمين والفلاحين والمقاتلين . وبالجملّة فتقوى الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الحياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهى إطاع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعد الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه لإبام بموسى حيث قال ﴿ وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ .

والثاني : يضاهى تعويد العبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته . فن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أريد .

فهذا مناج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفائه ، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس المراقبة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لا علاج له ألّبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاء والرفقاء والأصدقاء ، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهوم هما واحدا وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن

(١) حديث « عليكم بالبائة فن لم يستطع فعله بالصوم ... الحديث » تدم في النكاح .

لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة : من القراءة والأذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب المحنور فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملة أو واقعة ، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتباه إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف مبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فمعرضوا لها ، وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السبائية غائبة عنا فلا ندري متى يبسر الله تعالى أسباب الرزق . فسا علينا إلا تفرغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلئ سنة عن مطر ، فكذلك فلما تجلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات : فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لمهب رياح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فإن الهمم والنفاس أسباب . بحكم تقدير الله تعالى لاستدرا رحمة حتى تستدّر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء ، وهى لاستدرا أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرا قطرات الماء واستجرا الغيوم من أقطار الجبال والبحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بملائك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا ، فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر .

قال الجنب رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق .

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر . فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه . وعرا لاذل فيه وأما لاخوف فيه وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه ؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية . وليس مذموماً على طلب ذلك ، بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له . وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل ... وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة لجام الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة - التي في طبعه - فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم : واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، فاختدع المخدول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه . ولم يتدل الموفق بجبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة . فمبصر عن المخدولين بقوله تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازى الذى لا أصل له إن سلم ولادوام له أصلاً فنادوا فيهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله انما أقام إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ .

فالتوراة والإنجيل والزهور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم الخلد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة . أما ملك الدنيا : فالزهد فيها والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعرا لاذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لاتعلمها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ، ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول

المعوم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتمت الأسباب ينقضى العمر ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ فطرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصدته عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة يملوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخنتقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة ومملكتي أعظم من ملكك ؟ فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لي ! فقال كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي . فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة . فالخدوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل العلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فوائته ؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجوه ملكاً في الآخرة .

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ؛ بل لا بد وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (الثاني) أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ، فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزي التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل : في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد مارسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعى في ذلك التلطيف والتدريج فلا يثقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج ، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن يقنع بالبقية . وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنهت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى ^(١) » . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه ^(٢) » .

(١) حديث « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه » تقدم فيه .

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات ، فاتخذة دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل ، فإن تفصيل الأحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات ، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً . فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : الصبر في الله تعالى ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا ، فقال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتألف . وقد قيل في معنى قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه :

والصبر عنك فذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضاً : الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين ﴿ لا تعبدن لهم صراطك المستقيم ﴾ قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ولا تجد أكثرهم شاكرين . وقال تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ﴾ واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ وقال ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ وقال ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وقال ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى ﴿ والله شكور حلیم ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ وقال ﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(١) ، وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبا ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في لحافي - حتى مس جلدي جلده ثم قال « يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي » فقالت : قلت إني أحب قربك لكنني أوشر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبدا شكورا ولم لأفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ الآية^(٢) » ، وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ فأنا أبكي من خوفه ، فسأله أن يحبره من النار فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال : لم تبكي الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور ، وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادي يوم القيامة ليقيم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » قيل : ومن الحمادون ؟ قال « الذين يشكرون الله تعالى على كل حال »^(٣) وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن »^(٤) ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، وبالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز ما نزل ؛ قال عمر رضي الله عنه : أى المال تتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا »^(٥) ، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بالنعامة ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبو به . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكال معانيه .

(١) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » علقه البخارى وأسنده الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف .

(٢) حديث عطاء : دخلت على عائشة فقلت لها : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : وأى أمره لم يكن عجبا ... الحديث في مكانه في صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزى في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٣) حديث . ينادي يوم القيامة « ليقيم الحمادون ... الحديث » أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون ... الحديث » وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور .

(٤) حديث « الحمد رداء الرحمن » لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة « السكبر رداؤه .. الحديث » وهمد

في العلم (٥) حديث عمر : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا .. الحديث « تقدم في التسكاح .

(فالاصل الاول) العلم : وهو علم بثلاثة أمور : بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه ، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان : التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس : وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه ، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد : كمال القدرة والافتراق بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله »^(٢) ، وقال ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله^(٣) ، ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب ، فسبحان الله ، كلمة تدل على التقديس و « لا إله إلا الله » كلمة تدل على التوحيد و « الحمد لله » كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين .

وأعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك . نعم لا يفيض من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلبه وبالكاغد الذي كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك . وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطوران من جهة الملك في الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك لإرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا ، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها ، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل - شاءت أم أبى - كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده . فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك ، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه ، فهو إذن إنما يعطيك

(١) حديث « من قال سبحان الله فله عشر حسنات . . الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفكر عن إبراهيم النخعي . يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة جودها شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن عالجك ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك : فهذا بيان هذا الأصل .

(الأصل الثاني) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاريا شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإناعام ، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول : الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثاني) أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجنابه ، لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه ، وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتني به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خیر بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب ، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذينة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلية في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإناعام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأما رتبة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذينة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية المنعم

لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرَب . وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده المذات في البطن والفرج ومدركات الخواص من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفة ولقائه ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة ، كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلّالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى فخارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصده الخير وإخماره لكافة الخلق . وأما باللسان فأظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العينين : أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل : كيف أصبحت ؟ قال بخير ، فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا الذي أردت منك ^(١) ، وكان السلف يتساءلون وينتبهون واستخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المجلي والقادر على إزالة البلاء . وذلل العبد لمولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح . قال الله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبير ! فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالنسك لكان في المسلمين من هو أسن منك ! فقال : تكلم ، فقال : لسنا وفداً نرغب ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك ، وإنما نحن وقد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال : هذا الذي أردت منك ، أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه ، قال في الثالثة : أحمد الله . وهذا مفضل ، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر بإسناد صحيح

إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة : جامع لاكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك في الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر : أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة : إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لا ثقا بحالة السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه ؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه ؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلمهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمشول بين أيديهم في صورة الخدم ، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك ، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين : (أحدهما) أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمشول بين يديه ركما سجدا ؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن تنام في بيوتنا أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها (الوجه الثاني) أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك في الأمرين جميعا ، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة منى رضى منك بذلك شكرا .

فإن قلت : فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أرحى إليهم ؛ فإن أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فإن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر ، وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه * فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى

من علوم المعاملة ، ولكننا نشير منها إلى ملاح ونقول : ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعترفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً ، لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد ، إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه ، وما ليس له بنفسه قوام وليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود ألبتة ، وإنما الوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك ؛ فإذا لم يكن في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد ؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب وهو المحبوب ، ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ فقال واجباً أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه ، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميمنى حيث قرئ بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك ، فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه لقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل مافي الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنيعه ؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز ، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * ثم بين أن ضحكة العارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ﴿ فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ على الأرائك ينظرون * وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فهذا أحد النظرين . النظر الثاني : نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسماً : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمام وكتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلوم أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم ، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا ، وفرق بين الوجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد ، فالوجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان ، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني : ليس بهم عمى ولكن بهم عور ، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه ، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق ؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقياً كما

أن الذي قبله جاحد تحقيقاً : فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً ورباً ، فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ، ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه ويقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى ؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو ، فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله ، ليكون قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصاً في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لا تحصى ، فهذا تتفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله المنزلة على السنة رساله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار ، والانبياهم الكحالون ، وقد جاءوا داعين الى التوحيد المحض ، وترجمته قول « لا إله إلا الله » ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد ، إذ عبدة الأوثان قالوا « مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفاً ، والمتوسطون هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيزي الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطالب القرب فقيل له « واسجد واقترب » قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) » فقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بعفوك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله « ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال « أعوذ برضاك من سخطك ، وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقتراب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذ بك منك ، وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فازا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال « لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقوله صلى الله عليه وسلم « لأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعبد بفعل من فعل : فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيرا في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ^(٢) » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض : أولها وان كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فإ هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد ؟

(١) حديث قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضاك من سخطك وبمافاتك من عقوبتك ... الحديث (٢) حديث « انه ليغان على قلبي ... الحديث » تقدم في التوبة ، وقوله في الدعوات .

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً^(١) ، معناه . أفلا أكون طالباً المزيد في المقامات . فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾

وإذا تغلفنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، وارجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة : فنقول الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الحق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً وقد أجال زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، ثم يكون له حالتان : (إحداهما) أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته (والثانية) أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغنى فيه غناه ، وغيبته لا تنقص من ماله ؛ فيكون قصد من الإلزام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته ليستمتع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه ، فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ، ومع ذلك يتصور أن يكون شاكراً وكافراً ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ؛ فهما لبس العبد الثوب وركب العرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته : أى فيما أحبه لعبده لالنفسه ، وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لالنفسه ، وإن جلس ولم يركب لافى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم فى القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقرهم عبر الله تعالى إذ قال ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ ثم رددناه أسفل سافلين ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ الآية ، فإذا نعم الله تعالى آيات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها فى معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر لنعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى ؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملها المحبة والكراهة ، بل رب مراد

(١) حديث طائفة لما قالت له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء .. الحديث . رواه أبو الشيخ وهو بنية حديث عطاء منها التقدم قبل هذا بتسعة أحاديث ، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك هو فى الصحيحين مختصراً من حديث المنيرة بن شعبة .

محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الأول : وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ؛ وبهذا أيضا ينحل الثاني ؛ فلما لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أتى عليك ، وثنائزه نعمة أخرى منه إليك ؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أتى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ، ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك ؛ فوصفك بأنك شاكر لإثبات شيئية لك وأنت شيء ، إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك ؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شيء إذ جعلك شيئا ؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقيا ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(١) ، لما قيل له : يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعملوا » ، وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو فعل من أفعاله ، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعليهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى ، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ، ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل يمهّد شرط الحصول لغيره ، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى ؟ فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا ، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف ، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها ، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم ، وإذا لم يعلم لم يخف ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى في حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وما من مخدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة واللام والغرور عليه ، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ،

(١) حديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » من حديث على وعمران بن حصين .

ولا فادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف ؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه . ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع ، ومستنده الآيات والأخبار (والثاني) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز ، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبئ على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيسكون النهار معاشاً والليل لباساً فتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لأكل المحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتلها أوهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً ﴾ الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت خفية لا يطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لانهل ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف ، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يعرف حكتتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للشي ، والرجل للمشي لا للشم ، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغاظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿ وما أوتينم من العلم إلا قليلاً ﴾ فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى ، فن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجهه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتق بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملهما في غير ما أريدتا به ، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجاني عن غرور الدنيا ، ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً ، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق ﴿ الآية ﴾ ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولذا ذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه . كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري دابة أو ثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جداً . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينهما يحكم بينهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزله حتى إذا تفرقت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدرهم حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان ، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر ، فإذا خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشئ إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لا لون لها ، وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعاني في غيره ، فهذه هي الحكمة الثانية ، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرهما فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذا كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدرهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمره خاصة إذ لا غرض للأحاد في أعيانها فإتباعاً حجران ، وإنما خلقا لتداولهما الأيدي فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للراتب ، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة . أخبر هؤلاء العاجزين

بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه ، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تبدد ، وإنما الأواني لحفظ المائعات ، ولا يكتفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فساكنما يجر جر فى بطنه نار جهنم ^(١) ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كوقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره ، وكوقع المرأة من الألوان ؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكسوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للدخار وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقيدين بالآخر ؛ ولما جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد النقيدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ، ففى المنع منه ما يشوق المقصود الخاص به ؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره : وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجاز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجرى بجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا يمنع مما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لا يتصور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردى فلا ينتظم العقد ؛ وإن طلب زيادة فى الردى فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديتها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد فى عينه ، وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلا مضافات دقيقة فى صفاته ، وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحققا أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيته فإنما لم يجوز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مساح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المساحة فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لأحد فيها ولا أجر ، فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص المساحة وإخراجها فى معرض المعارضة ، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له ، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها ؛ إذ من معه طعام فلم

(١) حديث « من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فساكنما يجر جر فى بطنه نار جهنم » متفق عليه من حديث أم سلمة ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

لا يأكله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه من يطلبه بعموض غير الطعام يكون محتاجاً إليه ، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه ، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر ، وورده من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ؛ نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يستد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ؛ ومقابلة الجيد بمثله من الردى لا يرضى بها صاحب الجيد ، وأما جيد برديتين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردى في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التمتع أسقط الشرع غرض التمتع فيما هو القوام ، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أوى من جميع ما أوردناه في الخلافات ، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله في التخصص بالأطعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ؛ ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالآوقات ، ولكن كل معنى يراه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكناً بالقوت وكان ممكناً بالمطعم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء ؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في أتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص . فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضرورياً ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ ومن يمتد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حذره شرعنا بكونه من جنس المسكر ؛ لأن قليله يدعوه إلى كثير ، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية ، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين ، فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغى أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » (١) ، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك ، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر ، فأقول مثلاً : لو أستنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداها أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل ، وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر بالعدل ، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال : بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمن فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ففضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعة في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم في العزم .

لقبلك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق ، فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كالعبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ؛ لأن الخف وقاية الرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل ، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع لإكرارها من الخنطة وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الإنعام وهم مغفوسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ؛ فقبيح أن يقال : الذي شرب الخمر وأخذ القدر يساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ، ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة فقيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الخمر ، والآخر البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فيمنحوق بعضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه ، فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغ للعبد إلى درجات القرب ، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوة لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان ، فإنهما جميعا فانيان هالكان ، فإنهاء الأخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا ، لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما ، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا يسمى آدمى اختص بمفرسه أو بغرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه ، فللسابق خاصية السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ، كالملك ينصب مائدة لعميده ، فن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها برأجه لجاء عيد آخر وأراد انتزاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد — فإن اليد وصاحب اليد أيضاً ملك — ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص ، والأخذ اختصاصاً ينفرد به العبد فنع من لا يدل بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عبادته ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تسليف الصبيان الوقار والثؤدة والسكوت عن كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك لإياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق ، فكذلك لإباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه ، إذ قال تعالى ﴿ إن يسألوكوها فيحلفكم بخلوا ﴾ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل ، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى ﴿ وفليل من عبادى الشكور ﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وراء ذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مبادئها ؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير .

* فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتسام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة ، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انسافت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران ، وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باق : وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى ، فأين العبد في البين حتى يكون شاكر مرة وكاهراً أخرى ؟ فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات ، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغازيتها بفهمها من عرف منطق الطير ويحجدها من يحجر عن الإيضاح في السير فضلاً عن أن يحول في جو الملوك جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلحقها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لالغموض

في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدًا ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة ، فهي توهم منها أمرا محملا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كفصور لفظ القدر ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية ، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات ، فاستعير للنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير للنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، وقيل : إنها جميعاً داخلان في وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يورم لفظ المحبة والكراهة ، منهما أمرا محملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكته إلى غايتها في بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير للنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال ، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل النساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم فبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجلك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثنى من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة ، فهكذا كانت الأمور في الأزال ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحيث يل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلبح بالبصر أو هو أقرب ، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بمسابق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء يلزاه الأمر الواحد الكلي ، ولفظ القدر يلزاه التفصيل المتبادي إلى غير نهاية . وقيل : إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل ، وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه ، فألجوا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فلهذا خلقتم ﴿ لا يستل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض ، وكان زينهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولولم تمسسه نار ، فسته نار فاشتعل نورا على نور ، فأشرقت أقطار الملوك بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم : تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا ، وإذا

ذكر القدر فأمسكوا ^(١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله والأرض من كاس السكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له ، وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقرئك ، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجيز وراءه أعمى ، وإذا دق الجبال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصناعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجيز وراءه آخر ؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جماهير الخلق كنسبة المنى على الماء إلى المشي على الأرض ، والسباحة يمكن أن تتعلم ؛ فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ؛ ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : لو ازداد يقينا لمشي على الهواء ^(٢) ، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران ، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها ، وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ، ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين : ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فالنظر كيف نسب إلى العبد الذي غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فالنظر كيف نسب إلى العبد الذي أحبه ، وعندك في العادة له مثال ، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه رينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول « هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ؟ ، فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك ، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل ، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فإنك أيضا من أفعاله ، فداعيتك وقدرتك وعملك وسائر أسباب

(١) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم في العلم ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا . (٢) حديث قيل له : يقال إن عيسى مضى على الماء قال « لو ازداد يقينا لمشي على الهواء » هذا حديث منكر لا يعرف هكذا ، والمعروف . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبيهم فقبل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يسعى على الماء ، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شجرة مضى على الماء . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل « لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال » .

حركتك في التعبير هو فعله الذي رتبته بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والممكنات ، فذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل العبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده . وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كالمشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدّة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبّهة بالأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطق لها هي معلقة بها ، وشاهدوا تلك المناطق مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات ، وشاهدوا أيضاً ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر ف قيل ﴿ خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلم لا تختملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجتموني ، وفي لفظ آخر : لقلتم إنه كافر .

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فانرجع إلى مقاصد الشكر فنقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه لإسرافيل عليه السلام ، وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، وبلى درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتم بهم حكمته ، وأعلام رتبة نبينا، صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهم رعا .

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقّر وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله :
 إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ،
 ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليه الوزر وعليكم
 الصبر » (١) . وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ، ومن أتاه
 من غير دعوة فهو جاهل . وسئل : أي الناس خير ؟ فقال : السلطان ، فقيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال
 مهلاً ، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ، ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صحيفته
 فيغفر له جميع ذنبه ، وكان يقول : الخشب السود المعلقة على أبرايم خير من سبعين قاصاً يقصون .

الركن الثاني من أركان الشكر : ما عليه الشكر

وهو النعمة ، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وبما فيها يخص ويعم فإن إحصاء نعم
 الله على عباده خارج عن مقدور البشر ، كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فنتقدم أمورا كلية تجرى
 مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة
 الآخروية ، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة
 نعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الآخروية أصدق
 فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائل فإن تسميته نعمة صحيحة ومرتبة
 لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة والذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

(القسم الأول) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً : كالعلم وحسن الخلق
 وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل : كالتلذذ باتباع الشهوة ، وإلى
 ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل : كقمع الشهوات ومخالفة النفس ، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً
 كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضد النافع في الحال والمآل بلاء محض عند ذوى البصائر
 وتظنه الجاهل نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعتد نعمة إن كان جاهلاً ، وإذا علم أنه ذلك بلاء سيق
 إليه . والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجاهل : ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه
 شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعتد نعمة
 ويتقلد المنة بمن يهديه إليه ويقربه منه ويبي له أسبابه ، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والاب يدعوه إليها ، فإن
 الأب لكال عقله يلح العاقبة ، والأم لفرط حبا وقصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه

(١) حديث « سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة « يستعمل
 عليكم أمراء تعرفون وتنكرون » ورواه الترمذي باللفظ « سيكون عليكم أمّة » وقال حسن صحيح ، ولأزار إسند ضعيف من
 حديث ابن عمر « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ،
 وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » وأما قوله « وما يصلح الله بهم أكثر » فلم أجده بهذا اللفظ ،
 إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله : أصبروا فإن جوراً مأمك
 نحسين سنة خير من هرج شهر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكر حديثاً فيه « والإمرة الفاجرة خير من
 المهرج » رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

ويأنس إليها وإلى شفتها ويقدر الأب عدوا له ؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدوا باطنا في سورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو .

(قصة ثانية) اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى مضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكفي ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص ؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذه التوفيق لنعمة في حقه ، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه .

(قصة ثالثة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره ، فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره : ككثرة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الآخرة التي لا انتقضاء لها فإنها لا تطاب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراها ، بل تطلب لذاتها . الثاني : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته : كالدرهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لسكانت هي والحصاء بمثابة واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعونها ويكثرها ويتصارفوا عليها بالرأى ويطنون أنها مقصودة ؛ ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم يفسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقد ، وهو غاية الجهل والضلال الثالث : ما يتصل لذاته ولغيره : كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليتقدر بسببها على الذكر والفكر الموصولين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فإذا كان المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عند الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة .

(قصة رابعة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المسأل ، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال : والشروع أيضا تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ، فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بالجهل إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيمتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات وأبترك

الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . الضرب الثاني : المقيد ، وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالحق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له فإنه لا ينهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها . والذافع قسبان : ضرورى كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأغنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما ألبته غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجيين مثلا في تسكين الصغراء ؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قصة خامسة) اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذية ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لا اختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل ، وهذه أقل اللذات وجودا وهي أشرفها ، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسعين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لاتزول أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فاطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الواقع يفرغ منها فتستقل ، والعلم والحكمة قط لا يتسور أن تمل وتستقل ، ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد إذا رضى بالحسب الفانى في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالإففاق والمال ينقص بالإففاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ؛ وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا ، ثم العلم نافع ولذية وجيل في كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم . فلما لعدم الذوق فن لم يذق لم يعرف ولم يشق ، إذ الشوق تبع الذوق ، ولما فساد أمر جهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرآ ، ولما لقصور فطنهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذية ، ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء ، فالقاصرون عزدرك لذة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يحى باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالابدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجود فى الأسد والنمر وبعض الحيرانات . الثالثة . ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل سامت ودرج حتى الديدان والحشرات ، ومن جاوز هذه الرتبة تشبث به لذة الغلبة ، وهو

أشدّها التصاقاً بالمتغافلين ، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رموس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون : فأما قمعها بالسكينة - حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبهه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر . نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعثره الفترات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الانس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعثره في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية . وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفاب البشرية ويعثره في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد . وأما الثاني فالدنيا طالحة به . وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً ، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة ، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرلون ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم ، فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ؛ فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدماً ؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملوكوت ، فن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملوكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الافتدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي في الآخرة ، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا .

(قصة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لاجل

الغاية : أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ^(١) ، وقال ذلك مرة فى الشدة تسليية للنفس ، وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدة الضر ؛ وقال ذلك مرة فى السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ؛ وذلك عند إحدائق الناس به فى حجة الوداع ^(٢) . وقال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا . قال : تمام النعمة دخول الجنة ^(٣) .

وأما الوسائل فتتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس ؛ وإلى ما يليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى ، وإلى ما يليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيعة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهى إذن أربعة أنواع : (النوع الأول) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع الشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق ، وينقسم الإيمان إلى علم المكشوفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى ﴿ أن لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان ، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان ، فإذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة : علم مكشوفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ولا تنهياً هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيعة بالبدن وهى أربعة : المال والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة ، ولا يمتنع بشئ من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأنيده . فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة أبته إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تركه من الدنيا ، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التى تكسب هذه العلوم وتهذب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى : وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل ، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

هـ فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة ؟ فأعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس

(١) حديث قوله عند حفر الخندق « لا عيش إلا عيش الآخرة » متفق عليه من حديث أس .

(٢) حديث قوله فى حجة الوداع « لا عيش إلا عيش الآخرة » رواه المافى مرسل ، والمالك متصلًا وصححه ، وتقدم فى الحج

(٣) حديث قال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ... الحديث ، أخرجه الترمذى من حديث معاذ بسند حسن .

له كفاية : كساع إلى الهيжа بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نعم العون على تقوى الله المال ^(٢) ، وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهية اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات .

وقال بعض الحكماء - وقد قبل له ما النعم ؟ فقال : الغنى فإنى رأيت الفقير لا يعيش له . قيل : زدنا ! قال : الامن ، فإنى رأيت الخائف لا يعيش له . قيل : زدنا ! قال : العافية ، فإنى رأيت المريض لا يعيش له . قيل : زدنا ! قال : الشباب ، فإنى رأيت الهرم لا يعيش له . وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(٣) ، وأما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : نعم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ... الحديث ، ^(٥) وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد فى كتاب النكاح . وأما الأما رب فهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الآعين والآيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه مالى انفراد به لطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضميم ، ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعر والجاه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكما يحتاج إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لاعلى قصد التناول من خزائهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة ^(٦)

- (١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد .
 (٢) حديث « نعم العون على تقوى الله المسالة » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر . ورواه أبو القاسم البنى من رواية ابن المنكدر مرسلاً : ومن طريقه رواه القضاى فى مسند المهلب هكذا مرسلاً
 (٣) حديث « من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن الأنصارى ، وقد تقدم ، (٤) حديث « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » لم أجده له إسناداً ، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . (٥) حديث « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وتقدم فى النكاح .
 (٦) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة . رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت لئن صلى الله عليه وسلم : هل آتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد أقيمت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم القبا » لاذ مرضت نفسى على ابن هبائل ... الحديث » ولترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد »

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش »^(١) ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء »^(٤) ، فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاختفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى »^(٥) ، وإنما يستحق من جلته أمرا لجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحزى الخيرات ، ولعمري لجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا : أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما في الآخرة فن وجهين (أحدهما) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني : أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والخبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيات البدن فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ، ولذلك قيل : لئلاقة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل : مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو السكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال : الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه »^(٦) ، وقال عمر

= ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذوكبد لا شيء يوراه لبلال » قال الترمذي : معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال . وللبخاري عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عتبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه نطقه خذنا شديدا ، لجاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث . وللبزار وأبي هاشم من حديث أنس قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه ، فقام أبو بكر ليجعل يداي : ويدكم أنتقلون رجلا أن يقول ربنا الله . وإسناده صحيح على شرط مسلم : (١) حديث « الأئمة من قريش » رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم . الأرومة الأصل ، هذا معلوم ، فروى مسلم من حديث وائلة بن الأسقع مرفوها « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي رواية الترمذي « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه « إن الله خلق الخلق للعلمي من خيرهم » وفي حديث ابن عباس « ما بال أقوام يتنزلون أصلي ، فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا » (٣) حديث « تخيروا لنطفكم » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة ، وتقدم في التسكاج . (٤) حديث « إياكم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضا .

(٥) حديث « أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله » قريب بهذا اللفظ ، وللترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح .

(٦) حديث « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » أخرجه أبو هاشم من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة ، وخيرة وأمها لأعرف حالهما . ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وله طرق كلها ضعيفة .

رضي الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أو لامهم بالإمامة ، وقال تعالى ممتنا بذلك ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ولنا نغني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة ، وإنما نغني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتماصف خلقة الوجه بحيث لا تنبؤ الطباع عن النظر إليه .

• فإن قلت . فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وكذا العلماء . قال تعالى ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقيل : المرء بنفسه لأبائه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعصومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسيلا إلى جحدها ، إلا أن فيها فتنا وتخاوف ؛ فثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع ، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها السوادى الغر فبهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والأكلى ، فن ظفر بالبحر فإن كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ، ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال ، وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحبيه في قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولكن المنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب ، وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا في أعيانهم مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام ؛ فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون ، فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستعثر به صررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعترفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغتره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر يمرأى من ولده لاتبعه وهلك .

(١) حديث ذم المال والجاه . أخرجه الترمذى من حديث كعب بن مالك « ما ذنبان جائعان أرسلنا في غنم بأفئدتها من حب المال والعرف لدينه » وقد تقدم في ذم المال والبخل .

فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل . فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغنياء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بمحجزكم »^(٢) ، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك ، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أنفقوه ، فإن الإنفاق فيه الترياق ، وفي الإمساك السم ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق ، فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقييد إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها ؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »^(٣) ، معناه لأنفسكم خاصة ولا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه وإلا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقرى الضيف^(٤) ... الحديث فإذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها ؛ فن وثق ببصيرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا دامها ومستخرجا دواها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهدهد لطريقه .

هـ فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد ؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد ؛ وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل لمقصص بمن مال إلى الباطل عن الحق ، وكذا الارتداد ، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأكثر ما ينجي عليه اجتتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ، لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « لولده » وقد تقدم .
(٢) حديث « انكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائش وأنا آخذ بمحجزكم » متفق عليه من حديث أبي هريرة يلفظ « مثل ومثل الناس » وقال مسلم « ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفرائش يقعن فيه فأنا آخذ بمحجزكم وأنتم تقتجدون فيه » ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بمحجزكم عن النار وأنتم تفتنون من يدى » (٣) حديث « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال « بلغة » وقال « مثل زاد الراكب » وقال صحيح الإسناد قلت : هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه « عهد الى أن يسكني أحدكم مثل زاد الراكب » .
(٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال : مره أن يطعم المسكين ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد ، قلت : كلا ، فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جدا .

ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى ﴿ ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أى بهدأيته ، فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا »^(١) ، والهداية ثلاث منازل (الاولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهديناك النجدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هى الكتاب والرسل وبصائر العقول ، وهى مبدولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ومن جملة المعميات : الإلف والعادة وحب استصحابهما ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال ، وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية : وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فهتدى بها إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات ؛ وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان السكل من جهته تعالى ، فقال تعالى ﴿ قل إن الله هدى الله هو الهدى ﴾ وهو المسمى حياة فى قوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنعنى به العناية الإلهية التى تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقوبه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساد ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصبي إذا بلغ خيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستثناء لا يسمى رشيداً لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذى لا يدرك أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد فى صوب الصواب فى أسرع وقت ، فإن الهداية بمجرد ما لا تكفى ، بل لابد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشد لا يكفى ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما نبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستقيظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء فى صوب السداد ، وأما التأييد فكأنه جامع للسكل ، وهو عبارة عن تقوية أسره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهى

(١) حديث « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبى هريرة « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا ولأنت يا رسول الله ؟ قال « ولأنا إلا أن يتفدى الله بفضل منه ورحمة » وفى رواية لمسلم « ما من أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » وافقاً عليه من حديث عائشة ، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر يصير كانع من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهذه هي مجامع النعم ، وإن ثبت إلا بما يحثه الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المراعى المتواضع والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرتة والعزالذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وبالله التوفيق .

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة ، ولا بد من إرادة للحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه ؛ فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

الطرف الأول : في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكل وجوذا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى ؛ فإن النبات خلق فيه قوة يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعريته التي في الأرض ، وهي له آلات ، فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تشعب ، ولا تزال تستدق وتشعب إلى عروق شعيرة تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا السكال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويمسأ أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك ، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويمسأه ، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب ، لا كالنبات فإن النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع ، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

نافصاً كاللدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، تخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أى ناحية ، فتنحصر إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعرف فتكون فى غاية النقصان ولم يخاق لك إلا هذا ، تخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب ، تخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً ، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدت إليه حاجتك تخلق لك ذلك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذب ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأدى إليه هذه الحسوسات الخمس وتجتمع فيه ، ولولاه ل طال الأمر عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته متراً مخالفاً لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر ما لم تذوقه ثانياً لولا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكمتهم عند الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أردت الصفرة حكم أنه مرفيع تمتنع عن تناوله ثانياً ، وهذا كله تشارك فيه الحيوانات ، إذ لشاة هذه الحواس كلها ؛ فالو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً ؛ فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت ، وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فيزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهى أشرف من الكل وهو العقل ، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه ، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقلك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمور تختص به ، فواحدة منها بأخبار الألوان ، والآخرى بأخبار الأصوات ، والآخرى بأخبار الروائح ، والآخرى بأخبار الطعوم ، والآخرى بأخبار الحز والبرد والخشونة والملاسه واللين والصلابة وغيرها ، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك ، والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصاص والكتب على باب الملك يجمع القصاص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهى محتومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها ؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه محتومة ، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء : مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعنى له ،

فهذه سبابة نعمة الله عليك في الإدراكات ، ولا تظن أنا استوفيناها ؛ فإنّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة ، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب ، ولو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم ، فهذا في حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس ؛ بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة ، مع أن جملة لا تزيد على جوزة صغيرة ؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني : في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البشر معطلا ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهرته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه ، فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتصل بالشهوة وتهرب بالكراهة ؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكّلها بك كالمقتاضي الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء ، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات . ثم هذه الشهوة لم تكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك ، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزعر فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تتجمع فيبقى به نسلك ، ولو قصصنا عليك عذاب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظاماً ولحماً ودماً ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس وبدن ورجل وبطن وظهور وسائر الأعضاء : لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب ، فضلاً عما تراه الآن ، ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام ؛ فإذا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فإنه تأتيتك المهلكات من الجوانب ؛ فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للكافات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلا ما يضر وينفع في الحال ، وأما في المآل فلا تكن في هذه الإرادة ، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المحترف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فقم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرك لا ينفيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينياً ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والحرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والحرب ، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجليه ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج وخدر فيهما ، فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهية هرباً ، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها ؛ ففها ماهو للطلب والحرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للدواب ، ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان ، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً ؛ ففها مايكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ، ومنها ما خلق له أربع قوائم ؛ ومنها ماله رجلان ، ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غير ما نقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي مالم تتمكن من أن تأخذه ؛ فافتقرت إلى آلة باطشة ؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان تمتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك فلا تكون كشبهة منصوبة : ثم جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكف ؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن أشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رموس الأصابع حتى لا تنفتحت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برموس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فن أين يكفيك هذا مالم يصل إلى المعدة وهي في الباطن ، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحين من عظمتين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك ، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالآنياب ، ثم جعل مفصل اللحين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح ، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك فالنظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى ، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ، أو كيف تستجزئه الأسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرف باليد في داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي ،

هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنه وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزل في الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنك للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ، ثم هذا الطعام المطحون المتمجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيا الله تعالى المريء والخنجر وجعل على رأسها طبقات تفتح لآخذ الطعام ثم تنطبق وتنضبط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهبى إلى المعدة فيدهلج المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزأؤه ، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتلق عليه الأبواب ، فلا يزال لا يشأ فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ، ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزأؤه ووقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية ؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينسب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزأء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزأؤها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم ، فيستمر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ : إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوى ، والآخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ، ولولم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا معدودا إلى الكبد داخل في تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى ، فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء ، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخل في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنتظمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة ، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالهبق والجذام والماليخوليا وغيرها ، وإن لم تندفع المائية نحو الكلئ حدثت منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة : أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها وتقذف

بالعنى الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزاجية ويحدث في الأمعاء لدفع يحركها للدفع، فتتضغظ حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك . وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة لإحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فبحرك الشهوة بحموضته ويذهبها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل ، وأما الكلية فإنها تتنقى بما في تلك المائية من دم وتوصل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواري من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها - لطال الكلام ، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواء ، بل في الآدى آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشرو زيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جلته عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولاً لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والجمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجتمع ويستنهض فينهض ويربح ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الجمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك ؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط ، فقس على الإجمال ما أمهلهنا من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل ، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الخلط الأربعة ومستقره القلب ، ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواري فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح ؛ وعمله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكأن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتتصير ماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء ؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت . ولا تشبث النار به ؛ وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كذا ذكرناه وتارة بسبب من خارج كبريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل ، وكما أن انطفاء السراج بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدره ؛ فكذلك انطفاء الروح ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح ؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم

البدن كله وفارقتة أنواره التي كان يستفيد منها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لسكبات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي عز وجل : فتعسا لمن كفر بالله تعسا ؛ وسحقا لمن كفر نعمته سبحانه .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال « قل الروح من أمر ربي »^(١) ، فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح ، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطوّل بذكرها نحن إنما وصفنا من جملة جسمنا لطيفا تسميه الأطباء روحا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به . حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب ويرأسه يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسدت لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال : هو أمر رباني كما قال تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ والامور الربانية لا تحتل العقول وصفها بل تتحرر فيها عقول أكثر الخلق ، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاهد العقول المتقيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال ، وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا ، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها ؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شربة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، وجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني ؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان ، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ، ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء ؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك في أن خطاه فاحش ، وهذا الخطأ أخش منه جدًا ، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته ففي قوله تعالى ﴿ من أمر ربي ﴾ وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى ﴿ يا أيها النفس

(١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال « الروح من أمر ربي » متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وهذا يعمد في شرح عجائب القلب .

المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادي وادخلني جنتي ﴿ ولنرجع الآن الى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الاكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الاكل .

الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الاطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها آدمي بعد ذلك بصنعتة

اعلم أن الاطعمة كثيرة ، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تنتهي ، وذكر ذلك في كل طعام بما يطول ، فإن الاطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية ، فأنأخذ الاغذية فإنها الاصل ، ولناخذ من جبلتها حبة من البر ولنندع سائر الاغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيبت وبقيت جائعا ، فأحوجك الى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتنضج حتى تنى بتمام حاجتك ! فخلق الله تعالى في حبة الخنطة من القوي ما يغتذى به كما خلق فيك ، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يغتذى بالماء ويجتذب الى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ، ولسنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ، ولكن نشير الى غذائه فنقول : كما أن الحشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شيء بل تحتاج الى شيء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، وبجرد الهواء لا يصلح لغذائها ، ولو تركتها في الماء لم تزد ، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد ، بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان الى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ... ﴾ الآية ؛ ثم لا يكتفى الماء والتراب ، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متركة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج الى تركها في أرض رجوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج الى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لوائح ﴾ وإنما لقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات ، فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف ، فقد بان احتياج غذائه الى هذه الأربعة ، فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج الماء لينساق الى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي ، فانظر كيف خلق الله البحار ولجج العيون وأجرى منها الأنهار ، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها ، إذ أنه الى أقطار الأرض وهي سحب ثقيل حوامل بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مدارا على الأرض في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للبياء تتفجر منها العيون تدريجا ، فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها ، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان ، فانظر كيف سحر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد ، والحر عند الحاجة الى الحر ! فهذه إحدى حكم الشمس - والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصنعها بتقدير الفاطر الحكيم ! ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها كانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولا تطول فيها لا مطمع في استقصائه ، بل نقول : كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها ، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة - مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم ^(١) ، بل المنهى عنه في النجوم أمران (أحدهما) أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهذا كفر (والثاني) تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بذلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فأسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار ، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول . فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر ؛ فإذا الكواكب ما خلقت عبثا ، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ، ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ فقنا عذاب النار ﴿ ثم قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ^(٢) ، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا ، فن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته ، فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى ؛ فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا يطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له ، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم . أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » واطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » وإسنادهما ضعيف ، وقد تقدم في العلم . ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت يا رسول الله ، أمور كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان ! قال « فلا تأتوا الكهان ... الحديث » .

(٢) حديث قرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ فقنا عذاب النار ﴿ ثم قال « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أي ترك تأملها . أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يتفكر فيها » وفيه أبو جناب يحيى بن أبي جبة ضعيف .

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده ، فإن تعجبت من تصنيف فلا تعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتمريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق عزيمة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار ، فإذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التى هى مركودة فيها ، ولا تتم الافلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركوها ، وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أمهناه ، ولنتقصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يفنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون فلما أن تفرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتون فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لوعرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار ويفتروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى ، وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الخمار كيف جعل صبوراً على التعب ، وإلى الجمل كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج ! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتبادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل ، وهو كذلك ، بل لا بد فى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول ، فلنعين رغيفاً واحداً ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيص الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض ، فأول ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذى يشير الأرض والغدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرغ والتنقية ، ثم الطحن ، ثم العجين ثم الخبز ؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره ! وانظر إلى أعمال الصانع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار ، وحداد وغيرهما ! وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ! وانظر كيف خلق الله تعالى

الجبال والاحجار والمعادن ١ وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ١ فإن فقتشت علمت أن رقيقاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فابتدئ من الملك الذي يزعج السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً ، فلولم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافقتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لفنذ عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ١ فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذهم بفضلهم وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوقى أكل العقول انقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها ؛ فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبين مع هذا البيان ، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً ، أو عن الحداد ، أو عن الحجام الذي هو أخس العمال ، أو عن الحائك ، أو عن واحد من جملة الصنائع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ١ فسبحان من يسخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنو جز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع : في إصلاح المصلحين

لأعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين الأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبتدوا ويتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألّف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم ﴾ فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واثقفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع بما يطول إحصاؤه ، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففي جملة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى النقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدّهم بالقوة والعدة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل والزموم المساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد ، وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض . وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعزفهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه

ما اعتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أُرشدوهم إليه من إصلاح الدين ، وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد ، والحذاد يصلح آلات الحراثة والتجار يصلح آلات الحثاد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأاطعمة ، والسلطان يصلح الصناعات ، والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الانبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التوهمى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وأليف ، وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ لما اعتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فإن تكلمنا فيآذنه انبسطنا ، وإن سكنا فبقهره انقبضنا ؛ إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار وأسعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار .

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : عليهم السلام

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ، ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية والسموية وحلة العرش ، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها . واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتدى إلا بأن يוכל به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الامر ، ثم يصير لحماً وعظماً ، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاؤك ، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهى لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ، وبجرد الطبع لا يمكن في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينة ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروفاً وعصباً إلا بصناع والصناع فى الباطن هم الملائكة كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد ، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة ، فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظام ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم ، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً ، ولا بد من سابع يرفع المقادير فى الإلهاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالجوف ما لا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على نخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدة مع صفاتها وإلى الانخاذ مع غلاظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة

وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلاً لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن ، فسكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فإعانة هذه الهندسة في هذه القسمة مفقودة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن يحمل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول ؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للايجاز ، والملائكة الأرضية مدد لهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جعلتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب ^(١) أكثر من أن تحصي فلذلك تركنا الاستشهاد به .

هـ فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك ، والخطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً ، ثم إلى من يعجن رابعاً ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادساً ، ثم إلى من يلقها بالتور سابغاً ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تتخالف خلقة الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما منا إلا وله مقام معلوم ﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالمهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس ، فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمهما ولا هما يتنازعا في الشم ؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز ، فإن هذا نوع من الأعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ، ولذلك نرى الإنسان يطعم الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجز من جانب إلى جانب ... ؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا : اقبض ، وفيه : أتى السماء الثانية فقال لحازنها : افتح ... الحديث ، ولها من حديث أبي هريرة « إن لله ملائكة سياحين يلغون في أعين السلام » وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرسه نفسه على عبد البليل « فنادى ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .. الحديث » ولها من حديث أنس « إن الله وكل بالرحم ملكاً .. الحديث » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي « ما من نبت ينبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يمحص .. الحديث » وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أروى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاماً ضعيف . ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف « إن لله ملائكة يزولون في كل ليلة يحسون السكالك عن دواب النزاة الأذابة في صفتها جرس » ولمسلم من حديث أبي هريرة : « بينا رجل بفلاة من الأرض يأبأ القاسم أخيراً عن الرهد قال « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ولمسلم من حديث أبي هريرة : « بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتاً من سحابة : اسق حديقته فلان ، فتتبع ذلك السحاب فأفرغ ما فيه حرة .. الحديث » .

(١٦ - أحياء علوم الدين - ٤)

لأجل المعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والراكع منهم راکع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه ، وطاعتهم لله تعالى من حيث لأجل المخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفث وينطبق متصلا بإشارتك ، فهذا يشبهه من وجهه ولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون ؛ فإذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ؛ فإننا لم نطول بذكرها ؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم وبجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فإذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة الله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما ، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن الله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحداً أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبيها للأفداء التي تنثر في الهواء ، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصيبها ، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل : وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعا من وصول الغذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان بخادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للبراة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انفصلت الحدقة من الغبار وخرجت الأفداء إلى زوايا العين والأجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين ، فتراه على الدوام يسمح بهما حدقته ليصقلها من الغبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فإن رجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان ، ولا تقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس : ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيث والشمس والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الأثر إلى منتهى الأثر فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه ، ولذا ورد في الأخبار أن البقرة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر

(١) حديث « ان البقرة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم » لم أجده أصلا .

له كل شيء حتى الحوت في البحر^(١) وأن الملائكة يلغنون المصاة^(٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع مافي الملك والمملوك ، وقد أهلك نفسه إلا أن يتقبح السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه . وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبدى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان : اللهم زده نعماً على نعم ، فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريباً فكنى بالشاكرين علو رتبة ، وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تعجبهم والآثار تبكى عليهم .

وكما عرفت أن في كل طريقة عين نعم كثيرة ، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج هلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك ، بل في كل جزء من أجزاء العالم ، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ قال : إلهى كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدى نعمتان : أن ألفت أصلها ، وأن طمست رأسها ؟ وكذا ورد في الآثار : أن من لم يعرف نعم الله في مطعمه ومشربه فقد قل عليه وحضر عذابه .

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه ، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس يجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبدولة لهم في جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختصهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً ؛ فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها ؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره

(١) حديث « إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر » هدم في العلم (٢) حديث « إن الملائكة يلغنون المصاة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلحن أحكم إذا أشار إلى أخيه بمحبة وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

أحسن به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكوا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا : فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أنك مجنون ولك عشر آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً !

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له : تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدد عليه سوراً ثم قال : فعليك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظمي ! فقال : لولم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : لولم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم . قال : فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء .

فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذا كانت الطبايع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة — وقد ذكرنا النعم العامة — فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول : مامن عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل . فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل ، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه ، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحاً بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقى .

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها ، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء .

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ! فإذا نكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله ، فلم لا يشكر ستر الله الجليل الذي أرسله على وجهه مساوياً فظهر الجليل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد ؛ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إماماً مطلقاً . وأما في بعض الأمور فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً ، فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً

لوسلب ذلك منه وأعطى ماخصص به غيره لكان لايرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكر لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليبا لا معيبا ؛ فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها ، بل له أمور لا يتبناها بأحوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر ؛ فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذا من حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص ؛ فإذا الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء ، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير عما هو فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه ، وما باله لا يسوى دنياه بدنيته ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة ؟ فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر وإذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا . ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه رأى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » (١) ، فإذا كل من اعتبر حال نفسه وقتش عما خص به وحده قد آلى على نفسه نهما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ، وانك قيل :

من شاء عيشا رحيه يستطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من استغن بآيات الله فلا أغناه الله » (٢) ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » (٣) ، وقال عليه السلام « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٥) ، وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى » (٦) ، وقال بعض السلف : يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة « إن عبد أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي : عن سلطان ياتيه ، وطبيب يداويه ، وعم في يد أخيه ، وهب الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقت الحزن

(١) حديث « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المتن بن الصباح صيف . (٢) حديث « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « إن القرآن هو الغناء الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يني والطبراني من حديث أسد بن شداد ضعيف باللفظ « إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه » قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعشى عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

(٤) حديث « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء بن حيوة في صحبه . وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة . (٥) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم في آداب التلاوة . (٦) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبراني من حديث عتبة بن عامر ، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١) ، ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث : مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به ووصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وألصار وقيل له خذها عوضاً عن ملكك بل عن عشر عشر عليك : لم يأخذها ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة ، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله ، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به ، لكان لا يأخذها ، لعله بأن لذة العلم دائماً لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تقصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكثرة مشوشة لا يفي مرجوعاً بمخوفها ولا لنتها بالمها ولا فرحها بنعمها ، هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا تكون ما بقي من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجميل ظاهراً تتزين للشباب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة ، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أروباب الدنيا في شباك الدنيا وجبايلها ، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فإن المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها ، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة ، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ فإذا نأنا السد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة .

• فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فحسبها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها ، فسييله أن ينظر أبداً إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية ، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود ، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتي أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ، أما من عصى الله تعالى فليستدارك ، وأما من أطاع فليردف طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فالطبع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فأعظم غنى إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات ، وأما العاصي فحينئذ ظاهر ، فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى

فحسبها تشكر . وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة ، فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحدّه ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلّي أعمل صالحا ﴾ ثم يقوم ويقول: ياربيع قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد .

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال ^(١) » ، وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول : ما ذكرته في النعم إسارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء . وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصور الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يسمى ألما والشكر يستدعي فرحا وهما متضادان ، وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول بأن البلاء لا وجود له لا يثبت البلاء لألما متضادان . فقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه : أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى ، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وأما أبدا . وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تنفضي إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر والمرص والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره . وكذا حق العاصي ، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليها ، والعاصي يعرف أنه عاصي فعليه ترك المعصية ، بل كل بلا ويقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان المساء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وطيفة الصبر والشكر ؛ فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون

(١) حديث « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه . . . الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ « لا عطيت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة . . . الحديث » ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال : انه موضوع على حجاج الأعور .

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضا كذلك ؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة ؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ، ولوصح بدنه وكثر ماله لبطل وبغى ؛ قال الله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وقال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه »^(١) ، وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضرارها إذن نعمة في حقهم ، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدتها نعمة ، مثاله : جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه ربما تنفص عليه العيش وطال بذلك غمه ؛ وكذلك جهله بما يضمه الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطلأ ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاعليه في الدنيا والآخرة ، بل جهله بالصفات المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتة ، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كن آذى وهو لا يعرف . ومنها : إيهام الله تعالى أمر القيامة ، وإيهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإيهامه بعض الكبار ، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم . وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك سطر في حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخافها في بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة في حقه كالآلام الحاصل من المعصية كقطع يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتمتعون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبدولة ، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذا قد صبح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة ، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

* فإن قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد ينتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها . (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله

(١) حديث « إن الله ليحمي عبده من الدنيا ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

تصالي وزادها ماذا كان يردده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . (الثاني) أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه : قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى ! فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فافسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق لحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكره إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكره إليه ، فقال : اشكر الله ، فجئى بمجوسى لحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى ، فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله ، فقال : إلى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ فإذا ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى بحمده الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالأقتصار على الرماد نعمة ، وقيل لبعضهم : لا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ! فقال : أنتم تستبطلون المطر وأنا أستبطلى الحجر .

* فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة من زادت مصيبتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبي له ما هو أكثر ، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ﴿ إنما نلّى لهم ليزدادوا إثما ﴾ وأما المعاصى فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال تعالى ﴿ وتحبسونهم هينا وهو عند الله عظيم ﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك . وهذا هو الوجه الثالث في الشكر : وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب آخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذنين ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فافقه أكرم من أن يعذبه ثانيا » . (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة . (الخامس) أن ثوابها

(١) حديث « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فافقه أكرم من أن يعذبه ثانيا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث علي بن أساب في الدنيا ذنبا عوقب به فافقه أعدل من أن ينال حوته على عبده ... الحديث « لفظ ابن ماجه . وقال الترمذى « من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا » وقال حسن . وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت « ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ... الحديث » .

أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة حق الصبي ، فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التى هى أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان فى بعض الأحوال ، بل العقل الذى هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه ، فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلياء إذا رأوا ثواب الله على البلياء ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من رعاية الآباء بالأولاد ، فقد روى أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى قال : لا تتم الله فى شيء قضاء عليك ^(١) ، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال : عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراء رضى وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيراً له ^(٢) ، الوجه الثانى : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ، وموادة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورت طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجننا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ^(٣) ، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى ، وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى ، بل الموحّد المطلق هو الذى لا يجب إلا الواحد الحق ؛ فإذا فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضرورى ، وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حججاً منك بجنانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعاً بجانا ، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح ، فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل ، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لاحتالة ، فرأى وجهها حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الآس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه ، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد ؛ فكل ما يحقق أنفسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ؛ فن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلياء ، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر ؛ لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ،

(١) حديث : قال له رجل أوصنى قال « لا تتم الله فى شيء قضاء عليك » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى أوله ، وفى إسناده ابن لهيعة . (٢) حديث : نظر إلى السماء فضحك . فسئل فقال « عجبت لقضاء الله للمؤمن ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء ، وضحكه « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » وللنسائى فى اليوم والليلى من حديث سعد بن أبي وقاص « عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر » الحديث . (٣) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما * صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من يرد الله به خيرا يصيب منه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : وإذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا ، وقال عليه السلام : ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى ﴿ إنا لله وإله إليه راجعون ﴾ اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله ذلك به ، وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : من سلبته كريمته فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي ، وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك ^(٣) ، وعن خباب بن الارت قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يا رسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال : إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويحما بالمئضار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ^(٤) ، وعن علي كرم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد ، وإن ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام : من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ، وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : تولدون للبوت وتعمرون للخراب وتحصون على ما ينفى وتذرون ما يبق ، ألا جذا المكروهات . الثالث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يضافيه صب عليه البلاء صبا وثججه عليه ثجا ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبي وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة جىء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل

(١) حديث « من يرد الله به خير يصيب منه » رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال « لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه » ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين . (٣) حديث « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » رواه أبو داود في رواية ابن داسه ، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده ، وليس في رواية الأؤاوي . ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي ، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد ، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده بالعلاج بن سليم ، فأنته أهل . وعلى هذا فإنه خالد بن العلاج الناصري ذلك مشهور روى عنه جماعة . ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي لياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده . ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فأنته أهل .

(٤) حديث خباب بن الارت : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث ... تقدم .

الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب (١) ، فذلك قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : شكنا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويمتثل بمعاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ، ويكون الكافر لا يطيعك ويحتري عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا ؛ فأوحى الله تعالى إليه « إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي ، فيكون المؤمن عاياه من الذنوب ، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه ، حتى يلقياني فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا ، حتى يلقياني فأجزيه بسيئاته .

وروي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ؟ ألسنت يصيبك الأذى ؟ ألسنت تحزن ؟ فهذا مما تجزون به (٢) ، يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتجنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (٣) ، يعني لما تركوا ما أمروا به فتجنا عليهم أبواب الخير ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة .

وعن الحسن البصري رحمه الله : أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يمر بها في الجاهلية ، فكلما هم ثم تركها ، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا أراد الله بعد خيرا بعمل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) ، وقال على كرم الله وجهه : ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن ؟ قالوا : بلى ، فقرأ عليهم ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار ؛ فإذا عاقبه الله في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « ما تجزع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله . وما خطا عبد

(١) حديث أنس « إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصفاه صب عليه البلاء صبا .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخضر منه دون قوله « فإذا كان يوم القيامة ... إلى آخره » وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان . ورواه الأصفهاني في الترهيب والترهيب بتمامه وأدخله بكر بن خنيس والرقاشي ضراب بن عمرو وهو أيضا ضعيف . (٢) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال أبو بكر الصديق : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ؟ ألسنت يصيبك الأذى ؟ ألسنت تحزن ؟ فهذا مما تجزون به » (٣) حديث عقبة بن عامر « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ... الحديث » رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن .

(٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط ... الحديث ، وفيه « إذا أراد الله بعد خيرا بعمل له عقوبة ذنبه في الدنيا » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مقل مرثوما ومتصلا . ورواه الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ، ورواه أيضا من حديث ابن عباس ، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم (١) .

وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن لسليان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زى الخصوم ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأثبتت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه . فقال سليان عليه السلام : ولم بذرت على الطريق ، أما علمت أن لا بد للناس من الطريق ؟ قال : فلم تحزن على ولدك ، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتاب سليان إلى ربه ولم يحزع على ولد بعد ذلك .

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يابني ، لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يابنت ، لأن يكون ماتحب أحب إلى من أن يكون ماأحب .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفها الله وأجر قد ساقه الله تعالى ، ثم نزل فصل ركعتين ثم قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى : قال تعالى (واستمعنوا بالصبر والصلاة) .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسى يعرفه ؛ فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه .

وقال بعض العلماء إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب .

وقال الفضيل إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير .

وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم .

وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك ، لحى بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنه ؛ فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا الآن صدقت منك أنه ثانية لأخونك من ديوان النبوة ، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .

وقال أبو مسعود البليخي : من أصيب بمصيبة فزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ ربحا يريد أن يقاتل به ربه

عز وجل .

وقال لقمان رحمه الله لابنه : يابني إن الذهب يحزب بالنار والعبد الصالح يحزب بالبلاء ، فإذا أحب الله فوما ابتلاهم ،

فن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قاتتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام « إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي وأشك إلى

(١) حديث أنس « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن صدقة وهو الفيلسوف منكر الحديث . وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد : ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظلمها عبد ابتغاء وجه الله . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله من رجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل ... الحديث » وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفيلسوف المتكبر الحديث .

كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك ، نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

بيان فضل النعمة على البلاء

اعلمك تقول : هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول : لا وجه لذلك ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (٢) » وكانوا يستعيزون من شتاة الأعداء وغيرها (٣) .

وقال على كثرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت البلاء فأسأله العافية (٤) » ، وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين (٥) » ، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

• وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شرف فيه : العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر .

وقال مطرف بن عبد الله : لأن أعاني فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلى فأصبر .

وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلى (٦) » .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب ؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار . وقال سمنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث بشر بن أبي أريطه بلفظ « أجزنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » وإسناده جيد . ولأبي داود من حديث عائشة « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة » وفيه بنية وهو مدلس ، ورواه بالنعنة .

(٢) حديث : كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » أخرجه البخاري وسلم من حديث أنس : كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم آتنا في الدنيا ... الحديث » ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنتين « ربنا آتنا ... الحديث » (٣) حديث : كان يستعيز من شتاة الأعداء : تقدم في الدعوات (٤) حديث قال على رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الصبر « فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فسأله العافية » رواه الترمذي من حديث معاذ بن أنس حديث وحسنه ، ولم يسم عليا وإنما قال : سمع رجلا . وله وللنسائي في اليوم واليلة من حديث علي : كنت ساكنا فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ... الحديث . وفيه : فإن كان بلاء فصبرني ، فضره برجلي وقال « اللهم عافه واشفه » وقال حسن صحيح .

(٥) حديث أبي بكر الصديق « سلوا الله العافية ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد جيد ، وقد تقدم . (٦) حديث « وعافيتك أحب إلى » ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ « وعافيتك أوسع لي » وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مستندا وفيه من مجهول .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ١ فاعلم أنه حكى عن سمنون الحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعملة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب ، وأما محبة الإنسان ليعكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن الحب بنفسه جالمثل ذلك ، فن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولو زايه سكره علم أن ماغلب عليه كان حالة لا حقيقة لها ، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط جهيم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه ، كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذى يمنعك عنى - ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلة لا جلك ؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال : يابى الله كلام العشاق لا يحكى ، وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذى لم يرد ، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضا الذى يتوصل به إلى الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال (الثانى) أن يصير رضا عنده مطلوباً من حيث إنه رضا فقط ، ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته ، فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا ، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدروا رضا في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت ، وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يلىق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك ، فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون : الشكر أفضل . وقال آخرون : هما سيات . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول . في بيان ذلك مقامان : (المقام الأول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة ، وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام لإصلاحهم ، والظاهر المشقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلالات ، بل باللبن اللطيف ، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه في بنيته فنقول : هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر ، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ماورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه ألفاظ

صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر »^(١) ، وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : « أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لاضعفن لك الاجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين »^(٢) ، وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(٣) فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل »^(٤) ، وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن »^(٥) ، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر « فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت ، كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه »^(٦) ، وفي خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً »^(٧) ، وفي الخبر « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام »^(٨) .

وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

(المقام الثانى) هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف

(١) حديث « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث : يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض . . الحديث . لم أجده أصلاً . (٣) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

(٤) حديث « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » أخرجه الحارث بن أبي أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، أو الطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت : كتب الله الجهاد على الرجال فما يدل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ قال : طاعة أزواجهن . وفى رواية : ماجزأ غزوة المرأة ؟ قال طاعة الزوج . . الحديث « وفيه القاسم بن قيس ، وثقه أبو داود وضعفه ابن مدين وبقى رجاله ثقات ، (٥) حديث « شارب الخمر كعابد الوثن » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بانفط « مدمن الخمر » ورواه بانفط « شارب » الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر ، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى : إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى .

(٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه ، وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » وقال : لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفى ثقة . وروى البزار من حديث أنس « أول من يدخل الجنة من أهنياء أمى عبد الرحمن ابن عوف » وفيه أغلب بن تميم ضعيف . (٧) حديث « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً » تقدم حديث معاذ قبله . ورواه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من رواية دينار من أنس بن مالك ، ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس . والحديث منكسر : (٨) حديث « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد . . الحديث » لم أجده أصلاً ولا فى الأحاديث الواردة فى مصابيح أبواب الجنة تفرقة ؛ فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بن يونس فى مصابيح من مصابيح الجنة لسكان مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان : ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصابيح الجنة مائة أربعين سنة ؛ ولأربعين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكتشف يشتمل على أقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان . والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم ، وأحوال ، وأعمال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال ، والأعمال هي الأفضل ؛ وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ؛ فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم ؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال ؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه ؛ وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد المعارف ، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد بالمعاملة ؛ ففائدتها لإصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان عليه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ؛ وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ؛ فنقول : فائدة لإصلاح العمل لإصلاح حال القلب ، وفائدة لإصلاح حال القلب أن يتكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته ، وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها ، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة ، فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها . وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها . ولما كانت مرادة لأجلها كان تعاونها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى : فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض إمام بواسطة أو بوسائط كثيرة ، فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا أضح له حقيقة الحق ، فإذا فاضل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداد له علوم المكاشفة ، وكأن أن تصفيل المرأة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرأة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود ، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه . واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة ، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام ، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشغول بنوع فكر يمنعه الشبع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به ، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه ، والشح المطاع من جملة

(١٨ - أحباء علوم الدين - ٤)

المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ؛ فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذه مما ذكرناه في ربح المهلكات فليرجع إليه ؛ فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا فليُنظر إلى الأغلب ؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل : السكنجين أفضل أم شراب الينوفر ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا : السكنجين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء ، لأن السكنجين مراد له ، وما يراد لغيره فذلك أفضل منه لاعماله ، فإذا في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، ويتبها القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه ، فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل .

هـ فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالف في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به . والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحسنه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه .

وانضرب مثلا أقرب من هذا : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعدته على ذلك بالجميل لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقد رغب عليه دون تكليفي به ، وأعلم أن لانقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا ، فأى معنى لقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله اطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا لأبيهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ﴾ فهو لاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا : هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره إلى مافيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق ، فإذا هذا المسكين الآخذ لما لك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخرج الدم العلة المهلكة من باطنك ؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئا بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها ^(١) ، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها ^(٢) ، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول السكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ، ونرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منهما معرفة ومحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال ، أو العمل في الآخر ، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب ، وبعد التناسب يظهر الفضل ، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر : أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى . ومعرفة الصابر : أن يرى العمى من الله ، وهما معرفتان متلازمان متساويتان هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية ، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة : وهو أن يصرخ به باعث الشهوة ، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشيء على نفسه ؛ فإذا جرى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورة كالعينين مثلا ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال ، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي ، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة ، فكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر ؛ فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين ؛ وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ؛ فقد دخل الصبر في شكره ، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ، ولولا هذا لسكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ومضى عليه السلام لم يصبر مثلا ، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلهم على وضم وذلك محال جدا

(١) حديث النهى عن كسب الحجام : تقدم : (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها . أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة « ان هذه الصدقة لا تغل لنا إنما هي أوساخ القوم وإنما لا تحمل للحمد ولآلال محمد » وفي رواية له « أوساخ الناس » .

لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين ، وذلك لا يكون إلا بصبر ، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ، ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية ، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف لإياه إلى المباحات لا من الغنى الصارف ماله إلى الخيرات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعي لاهمالة قوة ؛ والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها ، فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة الإيمان فهو أفضل لاهمالة ، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية ، لا أن يصرفها إلى الطاعة ، فإذا صبر أفضل من الشكر ، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم ، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما ، فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقر يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبحها وترجعها ، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي ألم صفته وأزعجها أتم حالا من متع صفته ونعمها . والامر على ما قاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه ، وهو لم يرد سواء . ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال : الغنى شاكر أفضل من الفقير الصابر ، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة ، فكان يقول : دعوة الجنيد أصابتني ، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر .

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه ، على اعتقاده أنه حازن للحجاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا تقليد منه ، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر .

« فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر ؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر ؛ فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بذاته في القدرة على الإنفاق » فاعلم أن الذي تراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عن نفسه قهراً . وقد ذكرنا تفصيلاً هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فأبلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد ، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإبلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية ، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذاً . وقد كان مؤلماً له أولاً ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام ؛ فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا وهو الرضا وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا ؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به ، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ؛ فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط لشكر ؛ إذ قال عليه السلام : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »^(١) ، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها ؛ وهي درجات مختلفة ؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسأله عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني ؛ فاتفق أنها زوجت مني ، فليلة زفافها قلت : تعالى حتى نحى هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعا ، فصليتنا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه ؛ فبما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصليتنا طول الليل ، ففد سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ، أولو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل ؛ فإذا لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق . والله أعلم .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إلى النزول بفنائيه ، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه . وضرب بسيطا التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته ، وصدهم عن التعرض لأئمتهم والنهذف لخطه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللفظ إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خلقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء مخفوا بمكاره القلوب ومثاق الجوارح والأعضاء - للأزمة الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه مخفوا بطائف الشهوات وعجائب اللذات - لإسباط التخويف وسطوات التعنيف ، فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما . ونحن نجتمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف .

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء ، والطرق الذي يحتل به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال ، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفرة الرجل ، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، والذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يشعر الحال . والحال يقتضي العمل ، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحجوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا ، وإن كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وإدراكا ، وإنما سمي وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا ، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإحاطة وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك

المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لاجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التقي أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبدريه ، والطاعات جارية بحرى تغليب الأرض وتطهيرها ويجرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدينيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقبلنا ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلافه ، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مستوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته : سمي انتظاره رجاء . وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه : سمي انتظاره حقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لاما لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا : سمي انتظاره تمنا لا رجاء ؛ فإذا سمي اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة : وكان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ؛ وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الأحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة »^(١) ، وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خائف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ما أظن أن تبدي هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ فإذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تعالى تمام النعمة ، وماتم النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير لحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشاقق إليها ، لحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى بحرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود

(١) حديث « الأحق من أتبع نفسه هواها .. الحديث » تقدم غير مرة .

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاءه المغفرة محق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعمده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التماذى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بحريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد ، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت : فيترك لاحالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدا ، والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعيم بمناجاته والتلطف فى التعلق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى ؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد علامة فيمن لا يريد ؟ فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بشوابه ، وإذا فاني منه شيء حزنت عليه وحذنت إليه . فقال : هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي فى أى أوديتها هلك ، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير ، فمن ارجمى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور ^(١) .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحيمهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيا فى وقت الموت : قال تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ لحرم أصل اليأس ، وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه . أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يموت

(١) حديث : قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ... الحديث . أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، وفيه أنه قال « أنت زيد الخير » وكذا قال ابن أبي حاتم سمعنا النضر بن عبد الله بن مسعود يروى عن زيد الخير يروى : فقام زيد الخير فقال : يا رسول الله ... الحديث ، سمعت أبى يقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ^(٢) . ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم : ما اجتماعا في قلب عبدي هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه بما يخاف ^(٣) ، وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا بأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله هو جل غير قوما فقال « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم » وقال تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته قال : يارب رجوتك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى . قد غفرت لك ^(٤) ، وفي الخبر الصحيح : أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا ^(٥) ، فمعا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات . وقال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ وما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون إلى ربكم » فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم ^(٦) . وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . أحبني وأحب من يحبني وحبني إلى خلقي . فقال : يارب ، كيف أحبيك إلى خلقك ؟ اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكركم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل ^(٧) ورئى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال : أوقفني الله تعالى بين يديه فقال : ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحبيك إلى خلقك ، فقال : قد غفرت لك . ورئى يحيى بن أكرم بعد موته في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني الله بين يديه وقال . يا شيخ السوء ، فعلت وفعلت ، وقال : فأخذني من الرعب ما يعلم الله ، ثم قلت : يارب ما هكذا حدثت عنك ، فقال : وما حدثت عني ؟ فقلت : حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبنى ، فقال الله عز وجل : صدق جبريل وصدق نبي ، وصدق أنس ، وصدق الزهري ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين

- (١) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله » أخرجه مسلم من حديث جابر .
 (٢) حديث أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء . أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله « فليظن بي ما شاء » . (٣) حديث : دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال : « كيف تجدك ؟ » الحديث « رواء الترمذي وقال غريب ، والسنائي في الكبير ، وابن ماجه من حديث أنس وقال الترمذي : إسناده جيد » (٤) حديث « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناده جيد ، وقد تقدم في الأمر بالمعروف .
 (٥) حديث : إن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر . الحديث « أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد » وحسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غداؤه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك ، نتجاوزوا عنه . واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه .
 (٦) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » الحديث « وفيه » فهبط جبريل ... الحديث « أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ، فأوله متفق عليه من حديث أنس » ورواه زيادة « ولخرجتم إلى الصعدات » أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم . (٧) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني » الحديث « لم أجد له أسلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالتى قبله .

يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت : يا لها من فرحة . وفي الخبر « أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة « اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى : يا حنان يا منان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فأنتني بعبدي . قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول ردوه إلى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عز وجل : إلى أى شئ تلتفت ! فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة »^(٢) ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته ، لسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضرب نفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها ؛ وإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيها لكهم ويردهم بالسكية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيف كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً . قال على كثرتم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء التي تستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الآخرق الذي يظن أن كل شئ من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين ، أحدهما . الاعتبار ، والآخر . استقراء الآيات والأخبار والآثار .

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام

(١) حديث : أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ... الحديث ، رواه البيهقي في المعجب عن زيد بن أسلم ، فذكره مقطوعاً . (٢) حديث أن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان ... الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينظم بفقد غرض مقصود ؛ وإنما كان يفوت به مزية جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً فليست كراهمهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لاحالة ، وإنما الذي يتمنى الموت نادر ، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلاً ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقليل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه ؟

الفن الثاني : استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ وأخبر تعالى أن النار أعداء لأعدائه ، وإنما خوّف بها أوليائه فقال ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأنذرتكم نارا تظلي لا يصلها إلا الأشتى الذي كذب وتولى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ ^(٢) . وفي تفسير قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال د لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار ، وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا : الزلازل والفن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي رجل من أهل الكتاب فقليل : هذا فداؤك من النار » ^(٣) ،

(١) حديث : قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب . (٢) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزل عليك ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ لم أجده بهذا اللفظ . وروى ابن أبي حاتم والعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحدنا العيش ... الحديث » . (٣) حديث أبي موسى « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفن .. الحديث » أخرجه أبو داود دون قوله « فإذا كان يوم القيامة ... الخ » فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف ، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث القدي يليه .

وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم فيقول : هذا فدائى من النار فيلقى فيها ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار ^(٢) » ، وروى في تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام : « إني أجعل حساب أمتك إليك . قال « لا يارب أنت أرحم بهم مني » فقال « إذن لا تخزيك فيهم ^(٣) » . وروى عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال « يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيرى ، فأوحى الله تعالى إليه : هم أمتك وهم عبادى ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك ^(٤) » . وقال صلى الله عليه وسلم « حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فأحسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع . وأما موتى فإن أعمالكم تعرض على فسا رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله تعالى لكم ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم يوماً « يا كريم العفو » فقال جبريل عليه السلام : أتدري ما تفسير : يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه ^(٦) . وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال « هل تدري ما تمام النعمة ؟ » قال لا . قال « دخول الجنة ^(٧) » ، قال العلماء : قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وفي الخبر « إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعلم أين له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له ^(٨) » ، وفي الخبر « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتى ورجانى ^(٩) » ، وفي الخبر « لولقينى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة ^(١٠) » ، وفي الحديث « إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه ولا كتبها سيئة ^(١١) » ، وفي لفظ آخر : « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمن لصاحب الشمال =

(١) حديث « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى موسى « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فدائك من النار » وفي رواية له « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً » . (٢) حديث « الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار » أخرجه أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى عن أبى أمامة ، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه . (٣) حديث « لأن الله أوجر لى نبيه صلى الله عليه وسلم إني أجعل حساب أمتك إليك . فقال « لا يارب أنت خير لهم مني » . الحديث « في تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبي ﴾ أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب حسن الظن بآفته . (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال « يارب اجعل حسابهم إلى ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم . الحديث أخرجه الجزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وابن أخيه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد صفه كثيرون ، ورواه الحارث بن أبى أسامة في مسنده من حديث أنس بحجوه بإسناد ضعيف . (٦) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً « يا كريم العفو » فقال جبريل . أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ الحديث : لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والموجود أن هذا كان ابن إبراهيم الخليل وابن جبريل ، هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد . ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثني بعض الزهاد ... فذكره .

(٧) حديث سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة ... الحديث : تقدم . (٨) حديث « إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنوب » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « إن عبداً أصاب ذنباً فقال : أى رب أذنبت ذنباً فاغفر لى ... الحديث » وفي رواية « أذنب عبد ذنباً فقال ... الحديث » (٩) حديث « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس « يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك » وقال : حسن . (١٠) حديث « لولقينى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر « ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئاً لقيته بمثلها مغفرة » ولا ترمذى من حديث أنس قبله « يا ابن آدم لو لقينى ... الحديث » (١١) حديث « إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه » . الحديث ، قال : وفي لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمن لصاحب الشمال =

الشمال وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة ، وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه » فقال أعرابي : وإن تاب عنه ؟ قال : « محى عنه » قال : فإن عاد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يكتب عليه » قال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : « محى من صحيفته » قال : إلى متى ؟ قال : « إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل » ، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب البهمن حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل ^(١) .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالى صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذا مت ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « نعم معى » ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل ، والحسد ؛ ولسانك من اثنتين : الغيبة ، والكذب ؛ وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تردى بهما مسلماً - دخلت معى الجنة على راحتى هاتين ^(٢) . وفى الحديث الطويل لأنس : أن الأعرابي قال : يا رسول الله ، من بلى حساب الخلق ؟ فقال : « الله تبارك وتعالى » قال : هو بنفسه ؟ قال : « نعم » ، فتبسم الأعرابي ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « مم ضحك يا أعرابي ؟ » فقال : « لأن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سأل » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق الأعرابي » ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الأكرمين ، ثم قل : « فقه الأعرابي ^(٣) » ، وفيه أيضاً : « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى » ، قال الأعرابي : ومن أولياء الله تعالى ؟ قال : « المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى » ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ، وفى بعض الأخبار : « المؤمن أفضل من الكعبة ^(٤) » و « المؤمن طيب

= وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ... الحديث أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس إمامة إسناده فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه : « إن صاحب البهمن أمير على صاحب الشمال » وليس فيه : أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلاً .

(١) حديث أنس : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه » فقال أعرابي : فإن تاب عنه ؟ قال : « محى عنه » قال : فإن عاد ؟ .. الحديث . وفيه : « إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار » الحديث أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : فقال : يا رسول الله إنى أذنب ذنباً . قال : « فاستغفر ربك » قال : فاستغفر ثم أهود . قال : « فإذا عدت فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أرواها . قال : فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور ، وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصرى منكر الحديث . وروى أيضاً من حديث عقبة بن عامر : « أحذروا الذنب » قال : « يكتب عليه » قال : ثم يستغفر ويتوب ؟ قال : « يدفله ويتاب عليه » قال : فيهدود .. الحديث . وفيه : « لا يعمل الله حتى تملوا » وليس في الحديثين قوله في آخره : « فإذا هم العبد بحسنة » . الخ ، وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبتها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبتها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسئية فلم يعملها كتبتها الله عنده حسنة كاملة » ، فإن هم بها فعملها كتبتها الله سيئة واحدة » زاد مسلم في رواية : « أو يحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » ولهما نحوه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالى صدقة ولا حج ولا تطوع ... الحديث هدم . (٣) حديث أنس الطويل : قال أعرابي : يا رسول الله ، من بلى حساب الخلق ؟ قال : « الله تبارك وتعالى » فقال هو بنفسه ؟ قال : « نعم » ، فتبسم الأعرابي .. الحديث ، لم أجد له أصلاً .

(٤) حديث : « المؤمن أفضل من الكعبة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : « ما أعطيك وأعظم حرمتك » ، والقى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وقد تقدم .

طاهر^(١) ، و « المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة »^(٢) ، وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة »^(٣) ، وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم »^(٤) ، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه »^(٥) ، وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي »^(٦) ، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة »^(٧) ، و « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار »^(٨) ، و « من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار »^(٩) ، و « لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان »^(١٠) ، وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد »^(١١) ، ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام : قم فابعث بعث النار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما لكم لا تعملون ، فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كم أنتم في الأمم ؟ أين تاويل وثاريت ومنسك وأاجوج ومأجوج أم لا يحصيها إلا الله تعالى ، إنما أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، كالرقعة في ذراع الدابة »^(١٢) ، فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسيطا الخوف ويقودهم بأزمة

- (١) حديث « المؤمن طيب طاهر » لم أجده بهذا اللفظ ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لا ينجس » .
 (٢) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة » أخرجه ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » وأبو المهزم تركه شعبة وضمه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في السبب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (٣) حديث « خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده إلى الجنة » لم أجده هكذا ، وبني عنه مارواه البخاري من حديث أبي هريرة « عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلام » .
 (٤) حديث « قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم » لم أقف له على أصل .
 (٥) حديث أبي سعيد « ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولا يجهول .
 (٦) حديث « إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث معاذ وأنس « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ « من مات يشهد » .
 (٨) حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » . (٩) حديث « من لقي الله لا يفسرك به شيئا حرمت عليه النار » أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله لألا حرمة الله على النار » وزاد البخاري « صادقا من قلبه » وفي رواية له « من لقي الله لا يفسرك به شيئا دخل الجنة » ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ « جعله الله في الجنة » ولذلك في أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عند يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة » . (١٠) حديث « لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان » أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء « من شهد أن لا إله إلا الله حرمة الله على النار » وفيه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان « لاني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار » قال عمر بن الخطاب : هي كلمة الإخلاص ، ولستأند صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، نعم لا يلقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وفيه « فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه » وقال مسلم « من خير » بدل « من إيمان » . (١١) حديث « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٢) حديث : لما تلا ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صحيح . قلت : هو من رواية الحسن البصري عن همران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد .

الرجاء إلى الله تعالى ، إذ ساقهم بسياط الخوف أولاً ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن مناقضاً للأول ولكن ذكر في الأول ما رآه سبياً للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلة الباطنة ، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقاً يذبون فيغفر لهم »^(١) ، وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق يذبون فيغفر لهم لأنه هو الغفور الرحيم » ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل : وما هو ؟ قال : العجب »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها »^(٣) ، وفي الخبر « ليفقرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ، حتى إن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه »^(٤) ، وفي الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترحم الخلق ، فتحن الوالدة على ولدها وتعطف الأهيممة على ولدها . فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض . قال : فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك »^(٥) ، وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »^(٦) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وابشروا واعلموا أن أحداً إن ينجي عمله »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للطيعين المتقين بل هي للمتوطين المخلطين »^(٨) ، وقال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة »^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى « أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة »^(١٠) ، ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم « ولا تحمل علينا إصراً » وقال تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال . لما نزل قوله تعالى « فاصفح الصفح الجميل » قال « يا جبريل ، وما الصفح الجميل ؟ قال عليه السلام : « إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يا جبريل فأنه تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه ، فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى

- (١) حديث « لو لم تذبوا لخلق الله خلقاً يذبون فيغفر لهم » . وفي لفظ « لذهب بكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب ، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريباً منه . (٢) حديث « لو لم تذبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب » قبل ما هو ؟ قال « العجب » أخرجه البرزاري وابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس ، وتقدم في ذم السكير والعجب (٣) حديث « والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بنحوه . (٤) حديث « ليفقرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الطل بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف . (٥) حديث « إن لله تعالى مائة رحمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث « اعملوا وابشروا واعلموا أن أحداً لن ينجي عمله » تقدم أيضاً . (٨) حديث « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ... الحديث » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « لسكني دعوة واني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي » . ورواه مسلم من حديث أنس ، ولفظه من حديثه . وصححه ، وابن ماجه من حديث جابر « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى » ، أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله « السهلة » وله ولطبراني (٩) حديث « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله « السهلة » وله ولطبراني من حديث ابن عباس « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » وفيه محمد بن اسحق رواه بالضعف . (١٠) حديث « أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة » رواه أبو عبيد في غريب الحديث ، وأحمد .

إليهما ميكائيل عليه السلام وقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : كيف أعاتب من عفوت عنه ، هذا ما لا يشبه كرمي (١) والاختبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فآله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فآله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كان مسرفاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يارب حجبت الملائكة صوته ، وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة : يارب ، قاله الله تعالى . حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري ، أشهدكم أنني قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله عليه : خلال الطواف ليلة وكانت ليلة مظلمة ، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت : يارب أعصمني حتى لا أعصيك أبداً ، فهتف بي هاتف من البيت : يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى إلى قعره بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالחסنين . وأتى مالك بن دينار أبانا فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، إلى أن لا أرى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كسامك هذا من الفرح . وفي حديث ربيع بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت - قال : لما مات أخى سجد بثوبه وألقيناه على نعشه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً ، وقال : إلى لقيت ربى عز وجل لخيانى بروح وريحان وربى غير غضبان ، وإلى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه .

وفي الحديث أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويذمّه ، فكان يقول : دعنى وربى ، أبعثت على رقيبى ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحد أن يحظر حتى على عبادى ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت ديناه وآخرته (٢) .

وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بنى إسرائيل أربعين سنة ، فرز عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الخواريين ، فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً ، قال : فنزل فجعل يريد أن يذنب من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيماً للحوارى ويقول في نفسه : مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد . قال : وأحس الحوارى به ، فقال في نفسه : هذا يمشى إلى جانبي ، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشى بجنبه فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي : لما نزل قوله تعالى (فاصبح الصبح الجليل) قال : « يا جبريل وما الصبح الجليل ؟ » قال : « إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه ... الحديث » أخرجه ابن مهدي في تفسيره موقوفاً على علي بن الحسين ، قال : الرضا بن عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر . (٢) حديث « أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً ... الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد .

والسلام . قل لها ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالها ؛ أما الخواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه ، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطى* عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجهته ، قال : فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال « اذهب فلن يغفر الله لك » فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على في عبادي ، إني قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين وبلغهم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام ^(١) .

وروى في الآثار أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة ، قال : فاذا أدخلوا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على في عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله ، وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله الدرجات العلى وإنما تسألون كريما ^(٢) » ، وقال « إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ؛ فإن الله تعالى لا يتعاطاه شيء ^(٣) » .

وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستمائنون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ، ثم ما برجتنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي لإياك مع الأعمال ؛ لاني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوكم وكيف لا تغفروا وأنت بالجود موصوف .

وقيل إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفتك ؛ فتر المجوسى ،

(١) حديث ابن عباس : كان يقنت على المشركين وبلغهم في صلاته ، فنزل قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فترك الدعاء عليهم . . . الحديث ، أخرجه البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول « اللهم العن فلانا وفلاناً وفلاناً » بعد ما يقول « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » فأمر الله عز وجل ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ إلى قوله « فإنهم ظالمون » ورواه الترمذى وسماه أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد « فتاب عليهم فأسلوا حسن إسلامهم » وقال حسن غريب . وفي رواية له « أربعة نفر » ولم يسمهم وقال « فهداهم الله للإسلام » وقال حسن غريب صحيح .

(٢) حديث « سلوا الله الدرجات العلى وإنما تسألون كريما » لم أجده بهذا اللفظ . وللترمذى من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يستعمل » وقال : هكذا دوى حماد بن واقد وليس بالحافظ .

(٣) حديث « إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطاه شيء » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي ان شئت ، ولكن ليحزم وليعظم الرغبة ، فإن الله عز وجل لا يتعاطاه شيء أعطاه » والبخارى من حديث أبي هريرة في أثناء حديث « فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ورواه الترمذى من حديث معاذ وهبادة بن الصامت .

فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم لم قطعته إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة لقطعته على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ! فر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فردده وأضافه ؛ فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك ؟ فذكر له ؛ فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا .

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له : يا أستاذ ، بهم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى برى .

وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : لجأوا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسأنا : قال : فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت . أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه ، فقال : اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شريف جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للجلس ، فز الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام إليه الدراهم ، فقال منصور : ما الذى تريد أن أدعوك ؟ فقال : لى سيد أريد أن أنخلص منه ، فدعا منصور وقال : الأخرى . قال : أن يخلف الله على دراهمى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى . قال : أن يتوب الله على سيدى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى ، فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال : وبهم دعا ، فقال : سألت لنفسى العتق . فقال له : اذهب فأنت حر . قال : وأيش الثانى ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك . قال تبث إلى الله تعالى . قال : وأيش الرابع ؟ قال : أن يغفر الله لى ولك وللقوم ، قال . هذا الواحد ليس لى ، فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أوترى أنى لا أفعل ما لى ، قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال : رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة ، قال : فأخذت مسكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت ، فقلت للمرأة : من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى . قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمره . قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : مخنثا ، من فرحمها وذبحت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وخطة وثيابا ، قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى ، فقلت من أنت ؟ فقال المخنث الذى دفتنموفى اليوم رحمنى ربي باحتقار الناس إياى

وقال إبراهيم الأطروش : كنا فعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون ، فقالوا للمعروف أما تراهم يعصون الله مجاهرين ، ادع الله عليهم ، فرفع يديه وقال إلهى كما فزحتهم فى الدنيا ففزحهم فى الآخرة ، فقال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم ! فقال : إذا

فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه : يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتكم عليهم سابعة ورزقكم عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدّر الرزق حتى كأنك ياربنا لا تنضب .

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيستد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

الشرط الثاني من الكتاب : في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أنّ الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنيهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعواتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف ؛ وبالجملة فالحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة عله بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحشه على الانتقام عاليا عن يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مغالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وإن كان افتراسه بالاختيار ، وقد يكون من صفة جبلية المخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق ؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الخوف ، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعبود نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغناؤه وأنه لا يستل عما يفعل وهم

يستلون ﴿ فتكون قوة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : أنا أخوفكم لله ^(١) ، وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء ، وقد تذشق به المرارة فيفضي إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا : قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتذى مخافة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيها إذا عرف أن فيه سما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومواخضة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالف سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لامتساع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا ، فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به بخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ، ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ؛ فإذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ، ووراء اسم الصديق والمقرب ، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها بحرى الأخص من الأعم ؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول : الإنسان إما عربي وإما عجمي ، والعربي إما قرشي أو غيره ، والقرشي إما هاشمي أو غيره ، والهاشمي إما علوي أو غيره ، والعلوي إما حسني أو حسيني ، فإذا ذكرت أنه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه ، فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت : إنه تقى وورع وعفيف ، فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

(١) حديث « أنا أخوفكم لله » أخرجه البخاري من حديث أنس « والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له » والشيخين من حديث عائشة « والله اني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني ، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحداً وهو غلط ، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكفا الصبي ، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط ؛ فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث اليكاه وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيبي الضعيف الذي تضرب به ذابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف ، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، كذبت ، وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي وبقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقرط ، وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمحدور لا يقدر على دفعه ؛ فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي ، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بسكال في ذاته ، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور ، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم .

❦ فإن قلت : من خاف فوات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموماً ؟ فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف ، فهو بالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة ، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغي أن يظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى ؛ كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين ، فإذا الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يشمر درجات الصديقين : وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع ؛ فهذا أقصى ما يحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجرع أيا ما كثيرة : احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه أما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تتركه المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواق المضرة لأدائها إلى الموت ، فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره : كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة . أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي أتمكّل عليها وتعززها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم : أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضرار السوء ، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه . أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل . فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة : وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى الخوف ، فن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على النظام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس ، وهكذا إلى بقية الأقسام . وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر ، وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ؛ لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تداخل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حتهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حزن الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد ، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه

عماداً يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفية أنه ما الذى خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد ؛ وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : ، هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص ، ثم قبض كفه اليسرى وقال ، هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستقدمهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة . وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم ^(١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنائته ، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة للاحالة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين ، وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والأمن . إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنائية ؛ بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولولا أنه يخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها ، فإن تيسير أسباب المعصية لإبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسر له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع فالذى يرفع محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنائية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة ، فإن من أطاع الله أطاع بأن ساط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً ، والذى عصى لأنه ساط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً ، فليت شعري ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه ، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلى من غير جنائية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء في الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود خفى كما تخاف السبع الضارى ^(٢) . فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا لجنائية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيئته ، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يهلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة ، إذ لا يتقدح

(١) حديث « هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب . (٢) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى داود : يا داود ، خفى كما يخاف السبع الضارى » لم أجده أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فانه عبر عنه بقوله : جاء في الخبر ، وكثيراً ما يعبّر بذلك عن الإسرائيليات التى هى غير مرفوعة

ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ، والله المثل الأعلى ، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » هؤلاء إلى النار ولا أبالي ، ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة . الطبقة الثانية من الخائفين : أن يشمل في أنفسهم ما هو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدة ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف السر والسؤال عن التقير والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها . وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه ، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركها فيها البهائم ؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار .

أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة ، إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بقطع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف ؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وغايته دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، وقال الله تعالى ﴿ وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وصفهم بالعلم لحشيتهم . وقال عز وجل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام : وأما الخائفون

فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مراعاة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء . ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول : « أسألك الرفيق الأعلى »^(١) ، فإذا إن نظر إلى مشمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما ، حتى إن العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى ﴿ ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بهمتي الخوف - كما سبق - ولذلك قال تعالى ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان ، فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى : « وإذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسبا وجعلت نسبا ، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ، قلت ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأبينم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب »^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « رأس الحكمة مخافة الله »^(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود : « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى »^(٤) ، وقال الفضيل : « من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو كغلب بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفشت عما في يديه إلا الورعين فإنني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب .

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الاسامى ، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال ﴿ سيدك من يخشى ﴾

(١) حديث : لما خير في مرض موته كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى » متفق عليه من حديث عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح « له لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخبر » فلما نزل به ورأسه في حجرى غشى عليه ثم أفانق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال « اللهم الرفيق الأعلى » فعلمت أنه لا يخترنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح ... الحديث . (٢) حديث « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ، أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسبا وجعلت نسبا ، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ، قلت ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأبينم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب » (٣) حديث « رأس الحكمة مخافة الله » (٤) حديث « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى » قاله لابن مسعود : لم أتف له على أصل .

(٣) حديث « رأس الحكمة مخافة الله » رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب ، وضعفه من حديث ابن مسعود ، ورواه في دلائل النبوة من حديث عتبة بن عامر ولا يصح أيضا .

(٤) حديث « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى » قاله لابن مسعود : لم أتف له على أصل .

وقال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل : وعزتي لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمينين فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافتى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف الله تعالى خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أتمسكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى ، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً »^(٣) ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضا : ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضعيف يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا نجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن ، يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير ! فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب . وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويبنى ؟ قال « لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه »^(٤) ، والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ما ورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إما لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف ؛ فإذا ن المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة ؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، ألعم أحد طرفى الشك قد يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظلنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف

- (١) حديث « لأجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمين » أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة ، ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسل .
 (٢) حديث « من خاف الله خافه كل شيء » . الحديث « رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب اللؤلؤ من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين بإسناد ضعيف مغل ، وقد تقدم .
 (٣) حديث « أتمسكم عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث » لم أقف له على أصل ، ولم يصح فى فضل العقل شيء .
 (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله ﴿ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ هو الرجل يسرق ويبنى ؟ قال « لا ... الحديث » رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . قلت : بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن الرحمن بن حازم عن أبي هريرة .

بالرجاء ، فقال تعالى ﴿ ما لكم لا ترحون الله وقارا ﴾ أى لا تخافون ، وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه ، بل أقول : كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ وقال عز وجل ﴿ أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم مبعدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرّمه الله على النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقتصر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياهما كما يتحانت من الشجرة ورقها »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع »^(٣) ، وقال عقبة بن عامر : ما النجاة بارسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »^(٤) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جرا »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم « رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »^(٨) ،

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليباك .
وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول . بلغنى أن النار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه .
وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة يوم القيامة ،

(١) حديث « مامن مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٢) حديث « إذا اقتصر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياهما ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي في حديث العباس بسند ضعيف . (٣) حديث « لا يلج النار عبد بكى من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح ، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث قال عقبة بن عامر : ما النجاة بارسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » تقدم . (٥) حديث عائشة : قلت أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى » لم أوف له على أصل . (٦) حديث « مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وقال : حسن غريب ، وقد تقدم . (٧) حديث « اللهم ارزقني عينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، ورواه الحسين المروزي في زيادته على الزهد والرفائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلادون ذكر « الله » وذكر الحارثي في العلل أن من قال فيه « عن أبيه » وهم ، وإنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلادون ، قال : وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله الحارثي وليس بأبي عمر انتهى ، وما ذكره من أنه سالم الحارثي هو الذى يدل عليه كلام البخارى في التاريخ ومسلم في السكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة ، وإنما ذكروا له رواية عن سالم الحارثي والله أعلم . ثم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذى يروى عن سالم الحارثي أو سالم بن عبد الله بن عمر . (٨) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله ... الحديث » مطلق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

فإن سألت دموعه أطفأ الله بأقل قطرة منها بحارا من الديران ، ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .
وقال أبو سليمان البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .
وقال كعب الأحبار رضي الله عنه ، والذي نفسى بيده ؛ لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بحبل من ذهب .
وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لأن أدمع دموع من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار .
وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعنا إلى أهلى فدنوت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فانسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلنا في نفسى ، قد نافقت حيث نحول عني ما كنت فيه من الخوف والرهبة ، فخرجت وجعلت أنادى . نافق حنظلة ، فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال . كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . كلا لم ينافق حنظلة ، فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا ، فرجعنا إلى أهلى فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه . فقال صلى الله عليه وسلم . يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدأ على تلك الحالة لصاغتكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم ؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة^(١) ، فإذا كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما ، وقول القائل . الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهى قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب : فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دوامان يداوى بهما القلوب ؛ وفضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتزاز به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكينجين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكينجين مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل ، فهذا الاستبصار غلبة الخوف أفضل ؛ لأن المعاصى والاعتزاز على الخلق أغلب ، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستق من بحر الرحمة ، ومستق الخوف من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة بمازجتها للرجاء .

(١) حديث حنظلة : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ... الحديث ، وفيه « نافق حنظلة الحديث » وفيه « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم مختصرا .

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الاصلح لا امظ الافضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفا ترى أنك لو أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لنخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى ؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه ؛ فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أسروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره .

« فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين ! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهي مانحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها ، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يحزب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهي في بلاد ليس يدرى أكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاءه على خوفه ، والبذر في مسألتنا هو الإيمان - وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب - وخفاياخته وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يحزب مثله ، والصواعق هي أحوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لم يحزب مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يحزب ، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لاحالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين ، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاءه ، فأما أن يغلب رجاءه فلا ، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين^(١) ، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتليبس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر^(٢) . وفي رواية « إلا قدر فوق

(١) حديث : أن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة « في أصحابي اثنا عشر منافقا » تمامه « لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الحديث » .

(٢) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر » وفي رواية « إلا قدر فوق »

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟ فإذا أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أتى عليهم فقال تعالى ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعاً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأين مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذى يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور فهو الخوف المحمود ، دون حديث النفس الذى لا يؤثر في الكف والحك ودون اليأس الموجب للقنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الازدكار .

وقال مكحول الدمشقي : من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد .

فإذا نلنا من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاءه ، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى ، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه والقُدوم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه ، فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب : فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فوته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي ، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي ، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فوته قدوم على محبوبه وخلص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن ونخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر ، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعد الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر ، وفلا عما أعد الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من

= ناقة ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « أن الرجل ليعمل الزمن الطويل يعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار » وللبزار والطبراني في الأوسط « سبعين سنة » واسناده حسن . ولشيخين في أسماء حديث لابن مسعود « أن أحداكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ... الحديث » ليس فيه تقدير زمن للعمل بخمسين سنة ولا ذكر « شبر » ولا « فواق ناقة » .

الانكسار والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنيكال ، ففسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن ، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد ^(١) ، والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه ^(٢) ، وقال تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ، ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه : يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به ، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن حبيبي إلى عبادي . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي ، فإذا غايه السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ؟ فقال : الآن أفلت ، فلما أصبح سأله عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرخناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض ، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ، لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهبج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ، ولذلك قال على كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويؤدي دوام الذكر إلى الانس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ، ويؤدي كمال المعرفة والانس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والانس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل ، فإذا فيها ذكرناه في علاج الصبر كفاية ، ولكننا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن العصب إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، وربما مبالغ في الحيية ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أوه وهو عاقل يخاف من الحيية وهرب منها ، فإذا نظر العصب إلى أبيه

(١) حديث « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك . . . الحديث » أخرجه الترمذي من حديث معاذ ، وتقدم في الأذكار والدعوات .. (٢) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجه مسلم من حديث جابر ، وقد تقدم .

وهو ترتعد فرائضه ويحتال فى الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الحرب ؛ نخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه رقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف فى نفسه ، فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عز وجل ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وأما الاول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما حزامين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإما تزول الغفلة بالتدكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجاستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فانت المشاهدة فالسماح لا يخلو عن تأثير ، وأما الثانى وهو الأعلى فإن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف العراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هى خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويذول على قرب ، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه ، والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار ؛ فإذا من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالفه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالفه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قزب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفه ، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالي وهؤلاء فى النار ولا أبالي . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة ، فإن كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل ، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال : احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما ، فحج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسائه وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا ، فبكى ووجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال نعم . قال : أفنلومنى على

أن عملت عملاً كتبته الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال صلى الله عليه وسلم ، فحج آدم موسى (١) ، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ، ومن سمع هذا فأمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفتريه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً ، وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقاً ، والواقع في مخالب السبع لو كنت معرفته لكان لا يخاف السبع ؛ لأن السبع مسخر : إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك ، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته ، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجرم الأزل إلى ما خلق له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سخرها لأسبابها شاموا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلاً سخرها لأسبابها شاموا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتأري في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراغة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (٢) وكان أشد الناس خوفاً (٣) حتى روى أنه كان يصلي على طفل : ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول واللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٤) ، وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلاً يقول : هنيئاً لك ، عصفور من عصافير الجنة ، فنضب وقال : ما يدريك أنه كذلك ، والله إنى رسول الله ، وما أدري ما يصنع بي إلا أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٥) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة : هنيئاً لك الجنة ، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله لا أزكى أحداً بعد عثمان (٦) ، وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « احتج آدم وموسى عند ربهما ، حج آدم موسى . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

(٢) حديث : كان سيد الأولين والآخرين . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم ولا فخر . . . الحديث » .

(٣) حديث : كان أشد الناس خوفاً . تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثاً . قوله « والله إنى لأخذناكم لله » وقوله « والله إنى لأعلمهم باقه وأشدهم له خشية » .

(٤) حديث أنه كان يصلي على طفل فسمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبوية وقال « لو كان أحدنا من صفة القبر لنحنا هذا الصبي » واختلاف في اسناده ، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن سبياً دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أفلت أحدنا من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » (٥) حديث : أنه سمع قائلة تقول لطفل مات : هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة ، فنضب وقال « ما يدريك . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت : توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة . . . الحديث وليس فيه فنضب ، وقد تقدم . (٦) حديث : لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة : هنيئاً لك الجنة . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، قال « وما يدريك الحديث » وورد أن القى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة .

وسلم ولا أبي الذي ولدني ، قال : فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه ، وروى في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره ^(١) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألمة على الله تعالى ؟ » فقال المريض : هي أمي يا رسول الله ، فقال « وما يدريك ، لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه ^(٢) » ، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول شديقتي هود وأخواتها ^(٣) ، سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لمسا في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى « ألا بعدا لعاد قوم هود » « ألا بعدا لنمود » « ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود » مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة « ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة » أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزات الواقعة : إما خافضة قوما كانوا سفوعين في الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا . وفي سورة التكموير أحوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى « وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما احضرت » وفي عم يتساءلون « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » الآية ، وقوله تعالى « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولولم يكن فيه إلا قوله تعالى « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين » وقوله تعالى « ليسأل الصادقين عن صدقهم » وقوله تعالى « سنفرغ لكم أية الثقلان » وقوله عز وجل « أفأمنوا مكر الله » الآية . وقوله « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » وقوله تعالى « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا » الآيتين . وقوله تعالى « وإن منكم إلا واردها » الآية وقوله « اعملوا ما شئتم » الآية : وقوله « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » الآية . وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » الآيتين . وقوله تعالى « وقد منا إلى ما عملوا من عمل » الآية . وكذلك قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لئ خسر » إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران ، وإنما كان خوف الانبياء مع ما فاص عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبسكيا وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ ^(٤) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله « قد أمنتكما » ابتلاء وامتحانا لهما ومكرابهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيها بقولهما

(١) حديث : إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه : هنيئاً لك يا بني الجنة . رواه البيهقي في الشعب ، إلا أنه قال فقالت أمه : هنيئاً لك الشهادة وهو عند الترمذي ، إلا أنه قال : إن رجلا قال له : أبسر بالجنة ، وقد تقدم في ذم المسال والبخل مع اختلاف . (٢) حديث : دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنة . . . الحديث ، تقدم أيضا . (٣) حديث « شيعتي هود وأخواتها » أخرجه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس ، وهو في الصالحين من حديث أبي حنيفة . وقد تقدم في كتاب السماع . (٤) حديث : أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل ، فأوحى الله إليهما : لم تبسكيا ؟ الحديث ، أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ، وروياه في مجلس من أمان أبي سعيد الخدري . سند ضعيف

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق قال : حسبي الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء ، حتى قال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وقام بحقيقة قوله حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى بموجب قوله : حسبي الله ، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ﴿ إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ ، قال لانخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك ^(١) ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك ، فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأهى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ وقال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية ، فوض الأمر الى المشيئة وأخرج نفسه بالسكينة من بين ، لعله بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسابان فضلا عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم ﴾ الآية ؛ فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزل ولا يطعم فى تداركه ولو كان الأمر أنما لكانت الاطعام تمتد الى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقرار خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالسكينة عن الدنيا منقطعا وبظاهرة وباطنه على الله مقبلا : كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقابا من القدر فى غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقاب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين

(١) حديث قال يوم بدر « اللهم لن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » : أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ « اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم ... الحديث » .

سنة أسطوانة فات لم أقطع له بالتوحيد ، لاني لا أدري ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لاني لا أدري مايعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سابه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ﴿وقلوبهم وجله﴾ .

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويحز ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفوا الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتي الوفاة فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال : وبهم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفزقه .

وكان سهل يقول : المرید يخاف أن يبتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطى زنارا أخاف أن يذهب بي إلى البيعة ويبت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار ، فهذا لي في كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أتم تخافون المعاصي ، ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر .

وروى في أخبار الانبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبي ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء . وسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أني برىء من النفاق كان أحب إلي مما طاعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر » (١) ، وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » .

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني

(١) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق .. الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد .

بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكر بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ! حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير بها منافقا إلى لا سمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات ^(١) . وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٣) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال : لا . قال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٤) . وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٥) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يمتلي بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز لبرة ، وبأق عليه ساعة يمتلي بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز لبرة ، فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمر رتقته : منها البدع . ومنها المعاصي ، ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ! وإن ظن أنه خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إنى أخاف على نفسى النفاق ، فقال : لو كنت منافقا لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفا منهما ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم : العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ، فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ^(٦) ، والله المستعان .

بيان معنى سوء الخاتمة

• فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة عل رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فإن يغاب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على

(١) حديث حذيفة : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيصير بها منافقا . . الحديث ، أخرجه أحمد من حديث حذيفة ، وقد تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر . . . الحديث « أخرجه البخارى من حديث أنس وأحمد ، والبخارى من حديث أبي سعيد ، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرس وصححه إسناده ، وتقدم في التوبة . (٣) حديث : قال رجل لابن عمر : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون . . . الحديث ، رواه أحمد والطبرانى ، وقد تقدم في قواعد العقائد . (٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا . . . الحديث ، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج . (٥) حديث : إن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا . . . الحديث ، لم أجد له أصلا . (٦) حديث : العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى . . . الحديث « أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد تقدم في ذم الدنيا : ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد لإبلا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس

القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب الخلد . والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساراً له إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب . ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه ؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار : جز يا مؤمن فإنّ نورك أظفأ لحي ، فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه ، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجته من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين .

هـ فإن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويهمل طول هذه المدة ؟ فاعلم أنّ كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما صححت به الأخبار وهو : أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة^(١) وأنه قد يفتح إلى قبر المعضب سبعون باباً من الجحيم^(٢) ، كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الحاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر^(٣) والتعذيب بعده^(٤) ، ثم المناقشة في الحساب^(٥) والافتضاح على ملا من الأشهاد في القيامة^(٦) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط^(٧) وهول الزبانية^(٨) . . . إلى آخر ماوردت به الأخبار ، فلا يزال الشقى متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته . ولا تظن أن محل الإيمان لا يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعباد بالله شقية .

(١) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب ، وتقدم في الأذكار (٢) حديث « أنه يفتح إلى قبر المعضب سبعون باباً من الجحيم » لم أجده أصلاً . (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر : تقدم في قواعد العقائد . (٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه : (٥) حديث المناقشة في الحساب : تقدم فيه . (٦) حديث الافتضاح على ملا الأشهاد في القيامة : رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر بإسناد جيد . من اتقى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رهوس الأشهاد « وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رهوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » والطبرانى والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » وهو حديث طويل منكر . (٧) حديث خطر الصراط : تقدم في قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية أخرجه الطبرانى من حديث أنس « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فقه حلة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران » قال صاحب الميزان : حديث منكر . وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضافاً خربة جهنم ما بين منسكى أحدم كما بين المشرق والمغرب .

« فإن قات : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصائها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها : أما الختم على الشك والخمود فينحصر سببه فى شيئين :

(أحدهما) يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال : كالمبتدع الزاهد فإن عاقبته خطيرة جدا ، وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ؛ فإن بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى بالبدعة : أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يقول وبه يفتر ، وإما أخذاً بالتقليد من هذا حاله ؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ؛ فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق فى إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكها فيها ، فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه ، فهو لاء هم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبشكم بالأخسرين أعمالا ﴾ الذين صل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وكما أنه ينكشف فى النوم ما سيكون فى المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هى المسانعة للقلب من أن ينظر إلى المملوكات ، فيطالع ما فى اللوح المحفوظ لتتكشف له الأمور على ما هى عليه ، فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظرا بالرأى والمعقور ، فهو فى هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفى لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا رجلا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ولم يشرعوا فى الكلام استقلالاً ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله (١) ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والحوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق أن يقتصرواعلى أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده فى التشبيه ، ومنعهم عن الخوض فى التأويل لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثورة ومسالكه وعرة ، والمعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبات عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض ، والقلوب لما ألقي إليها فى مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعصبات النائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنفها آخذة وعن تمام الفكر صارفة ، فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس فى قرائعهم واختلافهم فى طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أنس ؛ وقد تقدم .

أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصنفين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الآلاف فيهم ، فأنسد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم : ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ويذهب أن يفسد في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسننت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تحف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث ، فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سميته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، فرجا يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين بهضاعة عقولهم إما مع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم أو دون الأدلة ، فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله معتر بقله الناقص ، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وإني يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

(وأما السبب الثاني) فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً ، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً ، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى ، إذ لا يحب إلا من عرفه ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فإذا نكل من فارقه روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ؟ فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال ، وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور ، مجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سببان :

(أحدهما) كثرة المعاصى وإن قرى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الإلalf والمادة . وجميع ما ألّفه الإنسان فى عمره يسود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذى لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر ، والذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ، ونعرف هذا بمثال : وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته فى اليقظة ، وحتى إن المراهق الذى يحتمل لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثم لا يخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة ، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ؟ لأنه إنما يظهر فى حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب ، والموت شبه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يهتد به من الغشية قريب من النوم ، فية تقضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب بطول الإلف ، فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح ، وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها ، وكما أن ما يخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها ، كما أننا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدرك وجه مناسبتة له ، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين ، مثل أن ينتقل من شيء ثان ، ومنه إلى شيء ثالث ، ثم ينسى الثانى ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة وبين الثانى والأول مناسبة ، فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا - والعلم عند الله - من كانت الحياطة أكثر أشغاله ، فإنك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التى لها عادة الكسبان يأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمد يده إلى المقرض ،

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتحلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلمتي الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت . وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألأ نورا ، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها ، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش ؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذها من الحياء والخوف مايجل عن الوصف ، وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة ، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه بما يؤثر فيه ، وسكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخني أبي القاسم السكرماني مناماً لي وقلت : رأيتك قلت لي كذا . فقلت : لم ذاك ؟ قال : فهجرتني شهراً ولم يكلمني وقال : لو لا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال : إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه ؛ فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ؛ فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكائك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيبة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إنني لأعجب من هلك كيف هلك ، ولكنني أعجب من نجا كيف نجا ؛ ولذلك قال حامد اللقاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا . وكان الثوري يوماً يبكي فقليل له علام تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زماناً ، فالآن نبكي على الإسلام . وبالجملة من وقعت سفينة في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاها من أمواج البحر ، وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسین سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب (١) ، ولا يتسع

(١) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسین سنة ... الحديث » تقدم .

فراق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي فسألهم : ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يتخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكره أو بنور المعرفة . وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والآهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلباً لمَرْضاته وباعماً دنياه بآخرته وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به ، إذ قال تعالى ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْرُهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ؛ ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يلبس على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصفت القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار (١) .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي وجوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهداً ، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة ، وإياك أن تهمل لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك ، هذا مادمت في يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقق قطعاً وبقيناً أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تنقذ من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقه ، فينبغي أن يكون تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ،

(١) حديث « المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة » متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري « إن رجلاً قال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وفي رواية : الرجل يقاتل شجاعة ويقال حية ويقال رياء . وفي رواية غضبا .

إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في الجلبة ، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمته ما يخرج من بطنك . وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك ، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور : من مأكولك في وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحد فيواظب على الصوم ، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن ، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق ، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفى بجميع الشهوات ، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحزن والبرد وستر العورة ؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة يداق فطلبك غيره فضول منك يضيق فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ما تدفع به الحزن والبرد عن بدنك ؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده . بل كنت بمن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كشمته السماء سقفنا والأرض مستقرا ؛ فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد ، فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك ، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فتبدت تورطت في مهواة يبعد رقيق منها ، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصر عليها تفرغت لله و قدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لآخرتك ، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلكك ؛ فاقبل هذه النصيحة بمن هو أخرج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير ، فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت لجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك ، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم : لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخز ميتا إلى الأرض ، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت عائشة رضی الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله ^(١) . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق ^(٢) ، وقال تعالى ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

(١) حديث عائشة : كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث : قرأ في سورة الواقعة فصعق ، المعروف فيما يروى من هذه القصة أنه فرأى عنده (أن لدينا أسكالا وججما وطاما ذا قصة وهذا الجيا) فصعق ، كما رواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مسلا ، وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما قدم

عليه السلام بالأبطح فصعق^(١) . وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار^(٣) ، وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يارب ، ما نأمن منك ؛ فقال الله تعالى : هكذا كوننا ، لا نأمننا منك ،

وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أئمة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق بنو آدم عادت . وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ ، فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار^(٤) .

ويقال : إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من الثمر ويأكل ، فقال : يا ابن عمر ، مالك لا تأكل : ، فقلت : يا رسول الله لا أشتهي ، فقال : لكنني أشتهي وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ولم أجده ولو سألت ربّي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سذمتهم ويضعف اليقين في قلوبهم ؟ ، قال فوالله ما برحنا ولا قنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبأ رزقاً لغد^(٥) .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دمرعه وحتى غطي رأسه ، فنودي : يا داود أجامع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقي ؟ أم عار فتكسي ؟ فنحب نجبة هاج العود فاحترق من حر جوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال : يارب اجعل خطيئتي في كفى فصارت خطيئته في كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأكبته ، قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاً فإذا

(١) حديث : أنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد : سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه في صورته ؟ فقال : ادع ربك ، فدعاه فطلع منه من قل المشرق فجعل يرتفع ويسير ، فلما رآه صعق . ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا بلفظ : فدهى عليه . وفي الصحيحين عن عائشة : رأى جبريل في صورته مرتين وسلمًا عن ابن مسعود : رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٢) حديث : كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذي في المعجمين ، والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير ، وتقدم في كتاب السماع . (٣) حديث : ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرتعد فرائسه من الجبار ، لم أجده هذا اللفظ . وروى أبو الفتح في كتاب المغطاة من ابن عباس قال : إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى يرتعد فرائسه فرقا من عذاب الله ... الحديث . وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته .

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك . فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلًا ، وورد ذلك أيضًا في حق اسرافيل . رواه البيهقي في الشعب ، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين .

(٥) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الثمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر ، قال البيهقي : هذا إسناد مجهول ، والجراح بن منهال ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضره على شفته حتى يفيض الفرح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل ، وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحي ، سبحانه إلهي أتيت أطباء عبادك ليداؤوا خطيئتي فكلهم عليك يدلني ، فبؤسا للقائين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم ، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطيء . وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول ، دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحما وقبل أن يؤمر في ملائكة غلاظ شداد لا يحصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صورته فقال : إلهي يح صوقي في صفاء أصوات الصديقين . وروى أنه عليه السلام لما طال بكأؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه ، فقال : يارب أمارحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلى الطير على رأسى وأنسيت الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته ييدى ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبست ثوب كرامتي وتوجهته بتاج وقارى ، وشكالى الوحدة فزوجته حواء أمتى وأسكنته جنتي ، عصاني فطرده عن جوارى عريانا ذليلا ، يا داود اسمع مني والحق أقول : أطعنا فأطعناك ، وسألنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلتناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبي كثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والصوامع والبيع ، فينادى فيها : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت ، قال : فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الآواك وتأتى العذارى من خدورهن ، وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ في أحوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ في الدعاء ، فيبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل : يا داود عجبت بطلب الجزاء على ربك ! قال فيختر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار ، يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه ، فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول : يا أبتاه تقق بهذا على ماتريد ، فيأكل من

ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيسكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي . خرج داود ذات يوم بالناس بعضهم ويخوفهم ، فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً ومارجع إلا في عشرة آلاف ، قال : وكان له جاريثان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهدهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبيه فتر بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يا يحيى ، هلم بنا للعب فقال : إني لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبيه فسألهما أن يدعاهما الشعر ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب ، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجله في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك ، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرداه أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبيكاته حتى يغمى عليه ، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحلم خديه وبدت أضراسه للناظرين ، فقالت له أمه : يا بني لو أذنت لي أن أخذ لك شيئاً توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدي ، فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فحصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال : اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوماً . يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرّ عينائي بك ، فقال يحيى ، يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام : يا بني فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحراريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا . بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع السكّاب في طلب الفردوس قليل .

وقيل : كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاني ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له : ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ؟ فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي ، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطارئ ليتني مثلك ياطر ولم أخلق بشراً .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : وددت لو أتي شجرة تعضد وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت إني إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسياً منسياً .

وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه ، فكان يعاد أياماً .

وأخذ يوماً متبنة من الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبة ، ياليتني لم أك شيئاً مذكوراً ، ياليتني كنت نسياً منسياً ،

ياليتنى لم تلدننى أمى . وكان فى وجهه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون . ولما قرأ عمر رضى الله عنه ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ خثر مغشياً عليه . ومر يوماً بدار لسان وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * ماله من دافع ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً ، ورجع إلى منزله فرض شهراً يعود الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال على كثرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فسادوا كما يبدى الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأن بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فارؤى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رماداً تنسفنى الرياح فى يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فياً تكون لحى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ اصفرلونه ، فيقولون له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خونه وجزعه . وقرأ مضر القارئ يوماً ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . . . الآية ﴾ فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لأعصيتك جهدى أبداً ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان السور بن محزمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن : لشدة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياً ما ، حتى أتى عليه رجل من خشم فقرأ عليه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ فقال أنا من المجرمين واست من المتقين ، أعد على القول أيها القارئ ، فأعادها عليه فشقق شققة فلحق بالآخرة .

وفرى عند يحيى البكاء ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متمبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم شهرة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وبكى : فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخاً أقول : مكنت مالكا أمه .

وروى أن الفضيل روى يوم عرفه والناس يدعون وهو يبكى بكاء الشكى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأنا منك وإن غفرت ، ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون : كيف نفرح والهُوت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا .

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحك وهو جالس مع قوم في مجلس ؛ فقال له الحسن : يا فتى ، هل مررت بالصراف ؟ قال : لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا . قال فما هذا الضحك ؟ قال فما روى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبيد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له : لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويفلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده ،

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد اتى آدم عليه السلام فيها مالتى : ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبه اتى مالتى ١ ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا اتى ١ ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقاءه أقاربه وأعداؤه ١

وقال السرى : إني لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى . وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظير السخط وأعمالى تدل على ذلك .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها : يا بنى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً ، وكانك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليالك ونهارك ١ فقال : يا أماء ، ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى ففتنى وقال : وعزى وجلالى لا غفرت لك

وقال الفضيل : إني لا أغبط نبيا مرسلًا ولا ملكا مقربا ولا عبداً صالحاً ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ، إنما أغبط من لم يخلق .

وروى : أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتقه فخر ميتا ، فقال صلى الله عليه وسلم : جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده (١) ،

وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : يا ليت أمتى لم تلدنى ، فقالت له أمه : يا ميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك : هداك إلى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أننا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها ،

وقيل لفرقد السبخى : أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن نبي إسرائيل ١ فقال : بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عدراء لباسهن العيوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فتن جميعا في يوم واحد .

وكان عطاء السلبى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له في مرضه : ألا تشهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة : إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك

(١) حديث : أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة ، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق ، وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال : هذا من أجل يصيبهم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بظهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤوسهم ولصقت جنوبهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكانهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فيبتهام يمشون إذ مزأ حد بمكان نخر من شيا عليه ، يجلس أصحابه حوله يبسكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، لجأوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسأله عن أمره ؟ فقال : إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان .

وقال صالح المري : قرأت على رجل من المتعبدين ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ فصعق ثم أفاق فقال : زدني يا صالح فأني أجد غما ، فقرأت ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فخر ميتا .

وروى أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ خر مغشيا عليه ، فحمل ميتا . ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال : عظمي يا يزيد : فقال يا أمير المؤمنين ، أعلم أنك لست أول خليفة يموت ، فبكي ثم قال : زدني ، قال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت ، فبكي ثم قال : زدني يا يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، فخر مغشيا عليه .

وقال ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه (١) .

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول : يا ابنه ، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصعق داود وسقط مكانه .

وقيل : مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذي فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء وجس عروقه ثم قال : ما علمت أن في الملة الخنيفية مثله .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ، ففتح تخفت على عقلي ؛ فقلت : يا رب على قدر ما أطيق ، فسكن قلبي .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكرا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٢) .

وقال العنبري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته نزجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ! ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك واخذ ما تعرف ودع ما تنكر .

(١) حديث ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسي : لم آف له على أصل
(٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » تقدم في قواعد العقائد .

وروى الفضيل يومان هو يمشي ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : لا أدري ، وكان يمشي والهامن الخوف .
وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المشككين يتكلمون فلا يبي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ، فقال : يا بني ليست النائحة الشكلى كالنايحة المستأجرة .
وحكى أن قوما وقفوا بعباد وهو يبكي فقالوا : ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال : قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا : وما هي ؟ قال : روعة النداء بالعرض على الله عز وجل .

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته : قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني .
وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة فقال : أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا ، فقرأت عليه ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ فشبه الرجل شهقة وخز مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله ، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشبه شهقة وخز مغشيا عليه ، فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت ﴿ ذلك لمن يخاف مقامى وعافى وعيد ﴾ فشبه شهقة فبدأ الدم من منخره وجعل يتشبط في دمه حتى يابس . فتركناه على حاله وخرجنا فأدبرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ؛ ثم أتيت به إلى السابغ فاستأذنا . فإذا امرأة من داخل الخوص تقول : ادخلوا ، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلا ، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلاسلنا ، ففك بصوت عال : ألا إن للخلق غدا مقاما ، فقال الشيخ : بين يدي من ويحك ؟ ثم بقي مبهوتا فاتحاه فاه شاخصا بعصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت ، فقالت امرأته : اخرجوا فإنكم لا تلتفتدون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ؟ فإذا ثلاثة قد أقفوا ، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى . وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل .

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنا أبدا ، فما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله .
وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلغني أنك لم تضحك قط ؟ فقال : كيف أضحك وجههم قد سرعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت .

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، قال : كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالى ؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فأنكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة ؟ على أى حال يكون ؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حال أشد من حالهم .

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها : فرقدت فاستبكت في منامها ، ثم انتهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إني والله رأيت عجبا ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جرى بالصراط ووضع على متنها ، فقال : هيه ، قالت : لحيء بعبد الملك بن مروان لحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه ، قالت : ثم جرى بالوليد بن عبد الملك لحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بسلیمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بك والله يا أمير المؤمنين : فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خز مغشيا عليه ،

فقامت إليه لجعلت تنادى في أذنه : يا أمير المؤمنين ، إني رأيتك والله قد نجوت ! إني رأيتك والله قد نجوت ! قال : وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه . ويحكى أن أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه ، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلّى كما تتقلّى الحبة في المقلّى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طير ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، باليتنى كنت ذلك الرجل ، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ما ضحك أربعين سنة ؛ قال : وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه ، وإذا تكلم كأنه يعان الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، فإذا سكنت كأن النار تسعيرين عينيه . وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال : ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض ما يكره فقتنى فقال : اذهب فلا غفرت لك ؛ فأنا أعمل في غير معتمل .

وعن ابن السماك قال : وعظت يوما في مجلس ، فقام شاب من القوم فقال : يا أبا العباس ، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبأى أن لا نسمع غيرها . قلت : وما هى رحمتك الله ؟ قال قولاك : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود إما فى الجنة أو فى النار . ثم غاب عني ففقدته فى المجلس الآخر فلم أراه ، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض بعاد ، فأتيته أعوده فقلت : يا أخى ما الذى أرى بك ؟ فقال : يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود إما فى الجنة أو فى النار . قال : ثم مات رحمه الله فرأيت فى المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال : غفرلى ورحمنى وأدخلنى الجنة . قلت بماذا ؟ قال بالكلمة .

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة ، وإلا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهواتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل يذهبنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يربحنا ؛ فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضلّه وجوده أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

ومن المعجائب أنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبحارى وعاطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وشهرنا ، ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمائم الله لنا ولا نجلس فى بيوتنا فنقول : اللهم ارزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذى إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول ﴿ وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ﴿ ولا يفرّحكم بالله الغرور ﴾ ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا يذهبنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانيتنا ، فما هذه إلا عنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويحيرنا ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون بمن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا ؛ علامة للخذلان أعظم من هذا ؛ فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفصله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى . ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد - أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يراه أدمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لما رأيته هالتي منظره ، فقلت : أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك ، فقال : يا أخى بماذا أوصيك ، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفتسه السباع أو يسهر فتتهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل ، فهو في المخالفة ليله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون . ثم ولى وتركني فقلت : لو زدني شيئاً عسى أن ينفعني ؟ فقال الظمآن يحزبه من الماء أيسره ، وقد صدق فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواقظ ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحديق ؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهى التى لا تزال تفترسك وتهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك تعجب العيون عن مشاهدتها ؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانها ، فتري بعينك العقارب والحيات وقد أهدقت بك في قبرك وإنما هى - صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر على بل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونمشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمد لله الذى تسبح له الرمال ، وتجد له الظلال ، وتتدكدك من هيبتة الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدق والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضائته حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيمس وتختال ، وانكشف له باطنها عن جور شوهاه عجنت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهى متلففة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، وهى تفتنهم بضروب المكر والاعتيال ، ثم لا تجترئ معهم بالخلف في مراعيه الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههمهم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعترها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

(أما بعد) فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل ، وبسكرها زل من زل ، فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربح المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر فشرط من الكتاب والزهد في شرط آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشرط الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء ، وبيان فضيلة الفقير على الغنى ، وبيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحترم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا ، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موحود - رى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا معنى واحد ، وكل من عداه فليس محتاجون إليه ليمتدوا وجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ هذا معنى الفقر مطلقا ، ولكننا لسنا بقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص ، وإلا فقير البعد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لأن حاجاته لا حصر لها . ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط ، فنقول : كل فاقد للمال فإننا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر . ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهي العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحتززا من شره وشغله وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد .

(الثانية) أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحرىص .

(الخامسة) أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقبلنا تفكك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وفقده ؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أنها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفزقتها من يومها فقالت خادمها : ما استطعت فيما فزقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بخذاً في يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزنة الله تعالى لا في يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره ، ويلبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعتنا ببقائه ؛ فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنه ليس يتأذ به ليجتاح إلى إحراجه ، وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه . وليس فاقداً له ليجتاح إلى الدخول في يديه ، فغنائه إلى العدم أميل ، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب ، وإنما أقرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ، ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً ، ليبقى الغنى اسماً لمن له الغنى المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواء ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذي استغنى من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب محتلمة بين الرق والحربة في أوقات متقاربة ، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقاً عليه مع هذا السكال إلا مجازاً .

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن السكارة للدنيا مشغول بالدينا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً ، فإنه أقرب إليك من جبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بمسكك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوباً عنه ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله ، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولر استغفره العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل السكال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان

في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة ؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب ، إذ يرجى له أن يفتى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود ؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محموداً بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يقتدر على الاشتغال بالدابة في الوصول إليها ، فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا يدفع العائق ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة ، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة ؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذا ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى ، بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء ، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيكَ بأن تكون على شاطئ البحر ، ولا قلته تؤذيكَ إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المال ؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم : علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للغيرة : اذهب إلى البيت نخذ الزكوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها ، قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية : قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها ، فبين أن كراهية كون الزكوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان .

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل انفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للحتاجين إليه ، لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها ^(١) ، إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر ، وما نقل عنهم من امتناع فيما أن ينقل عن خاف

(١) حديث : لمن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أس : أن النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أبي به ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء مجلس إليه ، فقلما كان يرى أحداً إلا أعطاه . ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه . وفي الصحيحين من حديث عمرو ابن هوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمونه ... الحديث ، ولها من حديث جابر : لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثاً ، فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر أبو بكر منادياً فنادى : من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا ، فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ، فأتاني ثلاثاً .

أن لو أخذه أن يخذله المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والحرب منه في حقهم كمال ؛ وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، ولما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك ؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفتر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآوها فيهلكون ، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء ، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجه تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال ، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى ؛ بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أمورهِ عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة ، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين . وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذا اسم الفقير عام ، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير ، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر ^(١) » وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا ^(٢) » لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وأمتى مسكينا ^(٣) » ، إذ فقر المضطر هو الذى استعاض منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، ولذلك الافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأل في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ ساق الكلام في معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى : روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : « مؤسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . » فقال « نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : « فمن خير الناس يا رسول الله ؟ » قال « فقير يعطى جهده ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لبلال ألقى الله فقيرا ولا تلقه غنيا ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٦) » ، وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام ^(٧) » ، وفي حديث آخر

(١) حديث « أعوذ بك من الفقر » تقدم في الأدكار والدعوات .

(٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا » تقدم في دم الحسد . (٣) حديث « أحيى مسكينا وأمتى مسكينا » رواه الترمذى من حديث أنس وحسنه ، وإن ما جاءه الحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٤) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « أى الناس خير ؟ » فقالوا : « مؤسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . » فقال : « نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : « فمن خير الناس ؟ » قال : « فقير يعطى جهده » أخرجه أبو موصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث : « قال لبلال « ألقى الله فقيرا ولا تلقه غنيا » أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال . ورواه الطبرانى من حديث أبي سعيد بلفظ « مت فقيرا ولا تمت غنيا » وكلاما ضعيف .

(٦) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم

(٧) حديث « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال : حسن صحيح

وقد تقدم ،

« بأربعين خريفاً ^(١) ، أى أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص ، والتقدير بخمسائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب ، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعزى بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم ، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسائة ، ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافاً وبالتفاهت ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحسق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ^(٢) » ، فإنه تقدير تحقيق لا محالة ، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف تلك النسبة إلا بتخمين ، فأما بالتحقيق فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص : أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف . والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى . والثالث . أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدكم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء وبملم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير ، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والغرض التنبيه على مناهج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولترجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً « خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني : الفقر والجهاد ^(٤) » ، وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول . أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ^(٥) ،

(١) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفاً : أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ، إلا أنه قال : فقراء المهاجرين ، والترمذي من حديث جابر وأنس . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد ، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك . (٣) حديث « خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها » لم أجده أصلاً . (٤) حديث أن لي حرفتين اثنتين .. الحديث « وفيه » الفقر والجهد » لم أجده أصلاً . (٥) حديث : أن جبريل نزل فقال : لمن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا .. الحديث ، وفيه « إن الدنيا دار من لادار له . » الحديث « هذا ملحق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة « عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » الحديث وقال . حسن ولأحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لادار له .. الحديث » وقد تقدم في ذم الدنيا .

وتكون معك أينما كنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا جبريل ، إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له ، فقال له جبريل : يا محمد أثبتك الله بالقول الثابت وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عبادة ، فأيقظه وقال : يا نائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له فم إذن يا حبيبي .
ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه والحية في التراب وهو متزرب عبادة ، فقال : يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له يقول لك محمد أسلمني أو بغني دقيقا إلى هلال رجب ، قال فأتيته فقال : لا والله إلا رهن ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه ، اذهب بدرعي هذا إليه فارهنه ، فلما خرجت نزلت هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾^(١) الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أصبح منكم معافي في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها^(٣) ، وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراساني : مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال : بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ، ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا له يدي عن منزلتيهما ، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال : رضيت يارب .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ، وفي لفظ آخر : فقلت أين الأغنياء ؟ حبسهم الجحيم ، وفي حديث آخر : فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن ؟ فقيل شغلن الأحرار الذهب والزعفران^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : تحفة المؤمن في الدنيا الفقر^(٥) ، وفي الخبر : آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه^(٦) ، وفي حديث آخر : رأيت يدخل الجنة زحفا^(٧) .

(١) حديث أبي رافع : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر .. الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ أخرجه الطبراني بسند ضعيف .
(٢) حديث « الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس » رواه الطبراني من حديث شدد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، رواه ابن عدي في الكامل هكذا (٣) حديث « من أصبح منكم معافي في جسمه ... الحديث أخرجه الترمذي وقد تقدم (٤) حديث « اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ... الحديث » تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره . (٥) حديث « تحفة المؤمن في الدنيا الفقر » رواه محمد بن خفيف الهبراني في شرف انفق ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ، ورواه أبو منصور أيضا في حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا . (٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان » الحديث « تقدم ، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد ، وفيه نسكارة . (٧) حديث : رأيت يبعث عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة .
وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإذا أحبه
الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا ^(١) . .
وفى الخبر : إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب
عجلت عقوبته ^(٢) . .

وقال موسى عليه السلام : يارب من أحبائك من خلقتك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال : كل فقير فقير ، فيمكن
أن يكون الثاني للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر .

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء ، وكان أحب الاسامى إليه
صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا
يوما ولهم يوما يحميئون إليك ولا نجىء ، ونجىء إليك ولا يحميئون ، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب
وأبي ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم
النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة
الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأفرع بن حابس التميمي وعبد بن
حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم ولما هم
مجلس واحد ؛ فنزل عليه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد
عينك عنهم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾
يعنى الأغنياء إلى قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ^(٣) الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي
صلى الله عليه وسلم ، فأنزله الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك لعله يركى أو يذكر فتشبعه
الذكرى ﴾ يعنى ابن مكتوم ﴿ أما من استغنى فأنْتَ له تصدى ﴾ ^(٤) يعنى هذا الشريف .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل
فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهُوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة
والفضيلة ، أخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك فى أو كسأك فى يريد بذلك وجهى نأخذ بيده وهو لك ،
والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة ^(٥) .

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه . . الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى .

(٢) حديث « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته » أخرجه
أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أنى الدرداء ولم يسمع منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام . ياموسى . . . فذكره بزيادة فى أوله . ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كتب الأحبار
غير مرفوع بإسناد ضعيف .

(٣) حديث : قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم . اجعل لنا يوما ولهم يوما . . . الحديث فى برول قوله تعالى
﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم . . . ﴾ الآية ، تقدم من حديث خباب ، وإيس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم
إذا عرقوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان . (٤) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل
من أشراف قريش ونزول قوله تعالى ﴿ عبس وتولى ﴾ أخرجه الترمذى من حديث عائشة وقال غريبهات : ورجاله رجال الصحيح
(٥) حديث « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول وعزتى وجلالى ما زويت =

وقال عليه السلام : أكثرُوا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة ، قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فسمعت حركة أمانى فنظرت فإذا بلال ، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمى وأولادهم ، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل ؛ فقلت يارب ما شأنهم ؟ قال : أما النساء فأضربهن الأحرا ن الذهب والحرير ، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي ، فقلت : ما خلفك عني ؟ قال : يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالى ^(٢) ، فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ^(٣) ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا من قال بالمال هكذا وهكذا ^(٤) ، ومع هذا فقد استعصر بالغنى إلى هذا الحد .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ^(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ^(٦) .

وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال : يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأبى يا رسول الله ، فقام وقتت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فقالت : ادخل يا رسول الله . قال : أنا ومن معى ؟ قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال : عمران ، فقالت فاطمة : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عبادة قال : اصنعى بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدى على رأسك ، ثم أذنت له فدخل فقال

== عنك الدنيا لم رانك على الحديث أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف : يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى ، تقول الملائكة : ومن أحبائك ؟ يقول : فقراء المسلمين ، ويدنون منه فيقول : أما لى لم أزو الدنيا : بكم لوان كان بكم على ولاكن أردت بذلك أن أضف لكم كرامتى اليوم ، فتمدوا على ما شئتم اليوم . . . الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم فى الحلية ، وسألت فى الحديث الذى بعده .

(١) حديث « أكثرُوا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف « اتخذوا عند الفقراء أيادى ، فإن لهم دولة يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيروا إلى الفقراء ، فيمتدحروا إليهم كما يمتدحرون أخيه فى الدنيا .

(٢) حديث « دخلت الجنة فسمعت حركة أمانى ، فنظرت فإذا بلال ، وانظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمى وأولادهم . . . الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه ، وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر .

(٣) حديث ثمان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سميد بن زيد ، قال الترمذى : حسن صحيح . (٤) حديث « لا من قال بالمال هكذا وهكذا » متفق عليه من حديث أبى ذر

فى أثناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال « لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم » لم أجده . (٦) حديث « ألا أخبركم عن ملوك الجنة . . . الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل

« ملوك » وقد تقدم ، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ « ألا أخبركم عن ملوك الجنة . . . الحديث » دون قوله « أغبر أشعث » .

و السلام عليكم يا ابتاه ، كيف أصبحت ؟ ، قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضربني الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا تجزعي يا ابتاه فوالله ما دقت طعاما منذ ثلاث ، وإنني لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها : أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، قالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ قال : آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنك في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ، ثم قال لها : اقنعي بآن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١) .

وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أبغض الناس فقراهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاية الأحكام ، والشوكة من الأعداء (٢) .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسابا من ذي الدرهم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عاصر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال : أشد من ذلك ، ثم قال : أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بمحسمائة عام ، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣) .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له : تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثوري ، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاض بهما جميعا ، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا . وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين .

وفي الأخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام . احذر أن أمتهك فتسقط

(١) حديث عمران بن حصين . كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال : يا عمران ، إن الله عندنا منزلة وجاها ، فهل لك في عيادة فاطمة ؟ الحديث « تقدم » (٢) حديث : إذا أبغض الناس فقراهم وأظهروا عمارة الدنيا . الحديث « أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة ، وهو منكرو » (٣) حديث سعيد بن عاصر : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمحسمائة عام . الحديث « وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد ألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقه ، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال : تسعين عاما » وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تسكلم فيه ، وفي رواية له : بأربعين سنة « وأما دخولهم قبلهم بمحسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه ، وقد تقدم .

من عيني فأصب الدنيا عليك صبا .

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائه ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمروق ، وتقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ! وكانت صائمة ، فقالت : لو ذكرتني لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أردت اللحوق في فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقيعه ^(١) .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فأخ عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أريد أن أحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لأفعل ذلك أبدا - رضي الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به ^(٢) ، وقال سلى الله عليه وسلم ، يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثراب فقركم وإلا فلا ^(٣) ، فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله ، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة ^(٤) » .

وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى ^(٥) » . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا ^(٦) ، وقال : « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا ^(٧) » ، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتي من خلقي ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدرى ،

(١) حديث : قال لعائشة « إن أردت اللحوق في فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه نحوه من حديثها ، وقد تقدم .

(٢) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » رواه مسلم ، وقد تقدم .

(٣) حديث « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم » الحديث « رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وهو ضعيف جدا ، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث .

(٤) حديث « إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ... الحديث » رواه الدارقطني في غرائب مالك ، وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق ، وابن عدى في الكامل ، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .

(٥) حديث « أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى عن الله » لم أجده بهذا اللفظ ، وتقدم عند ابن ماجه حديث

« إن الله يحب الفقير المتعفف » (٦) حديث « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو

متفق عليه باللفظ « قوتا » وقد تقدم (٧) حديث « مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا »

أخرجه ابن ماجه من حديث أنس ، وقد تقدم (٨) حديث « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا » لم أجده بهذا اللفظ

أدخلوهم الجنة . فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون ^(١) ، فهذا في القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يصادها الطمع . وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه : إن الطمع فقر واليأس غنى ، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابن آدم ، فليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : مامن أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : بها الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ؛ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام فاجئني به ، فلما قام جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعيت ؟ قال نعم ، قال ثم تمت طيباً ؟ قال نعم . فقال إبراهيم في نفسه ، فما أصنع أنا بالذي لو النفس تقنع بهذا القدر .

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً ، فقال له : يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال من رضى بالدنيا عوضاً عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمه الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وكان أبو ذر رضى الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له : اتجلس بين هؤلاء ؟ والله ما في البيت هبة ولا سفة ، فقال : يا هذه ، إن بين أيدينا عقبة كثرة لا ينجو منها إلا كل مخف ، فرجعت وهي راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس .

وروى أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة : يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك .

وقد قيل في القناعة :

أضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بياس فإن العز في الياس

واستغن عن كل ذي قربى وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس

(١) حديث « يقول الله يوم القيامة : أين صفوتي من خاني ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه	مقدراً أى باب منه يفلقه
مفكراً كيف تأتبه منيته	أغادياً أم بها يسرى فتطره
جمعت مالا يقل لى هل جمعت له	يا جامع المال أيا ما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق فى ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا ، فذهب الجنييد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء .
الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنييد دعا على ابن عطاء لحالته إياه في هذا فأصابته حنة ،
وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر — ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال
والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل .

فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل
فنقول إما يتصور الشك في مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض
بالإضافة إلى غنى منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال (والثاني) فقير حريص مع غنى حريص ،
إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير
الحريص ، أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال ، والغنى
متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال
وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ما روى في الخبر : أن الفقراء شكوا إلى
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فعلمهم كلمات في التسبيح ،
وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ماناله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال عليه السلام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١) .

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال : الغنى أفضل لأنه وصف الحق ، أما دليله الأول ففيه
نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك : وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب
الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه
قال : بعث الفقراء رسولاً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رسول الفقراء إليك ؛ فقال « مرحباً بك
وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم » قال : قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا تقدر عليه ،
ويعتصرون ولا تقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بلغ عنى

(١) حديث . شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات . . . الحديث ، وفي آخر :
فقال « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه .

الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء : أما خصلة واحدة : فإن في الجنة غرافا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لا يدخلها إلا نبي فقير ، أو شهيد فقير ، أو مؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة : إذا قال الغنى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : رضينا رضيانا ^(١) فهذا يدل على أن قوله : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم . وأما قوله : إن الغنى وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض ، فأنقطع ولم ينطق ، وأجاب آخرون فقالوا : إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقراء أفضل لأن صفات العبودية فضل للعمد كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها ، ولذلك قال تعالى فيها روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعى واحدا منهما قصمته ^(٢) . وقال سهل : حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى ؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها ؛ إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف للعمد ، وليس لاحد أن يفضل الغفلة على العلم ، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر : وهو أن ما لا يراد لعيته بل يراد لغيره فينبغي أن يضاب إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محدورة لعيثها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ، ولا الفقر مطلوب بالعيثه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التماثل عنه ، وكمن غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما ، وكمن من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب ، والمحبة للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق أكثر ، وربما يكون شغله في الوصال أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلمها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقدته ، إذ الجائع يسلك سبيل الممرت لاسبيل المعرفة . وإن أخذت الأمر باستتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ؛ إذ فتنه السراء أشد من فتنه الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر ، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم : بلينا بفتنة الضراء فصرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشهاد الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا .

(١) حديث زيد بن أسلم عن أس : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا : إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا تقدر عليه . . . الحديث ، وفيه « بلغ عن الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء . . . الحديث » لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف في هذا المعنى من رواة ابن ماجه ، حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال « يا معشر الفقراء ألا أشركم إن فقراء المؤمنين يدور الجاهل أغنياءهم بـ نصف يوم خمسمائة عام » ولإسناده ضعيف . (٢) حديث « قال الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » تقدم في العلم وغيره .

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح لكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم .

وقال بعض العلماء : تقلب الأموال يمهص حلوة الإيمان .

وفى الخبر : إن لكل أمة عجلا وعجلا هذه الأمة الدينار والدرهم ^(١) ، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول للدنيا : لا إليك عنى ^(٢) ، إذ كانت تتمثل له بزيئها . وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غرى غبرى ، ويا بيضاء غرى غبرى ، وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى زهرا من ربه ، وذلك هو الغنى المطلق ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس ^(٣) ، وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقدد المال وإن قصدوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة بذلها ، وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم ، وبقدرة ما أنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ؟ وبقدرة ما أنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف للاحالة إلى الله ، إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره ، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان ، فالمرتد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغى أن يكون مطمئنا نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها ، فإذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط ، فإن تساويا فيه تساوت درجاتهما ، إلا أن هذا منزلة قدم وموضع غرور ، فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفيناً فى باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقد ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كنت مستكنة فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى القواد استكنا الدار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء ، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدرة ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسليحاته وعباداته ، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور ، ولا يكون تأثيرها فى إثارة الانس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسملك .

(١) حديث : لكل أمة عجل : وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم ، رواه أبو منصور الديلمى من طريق أبي عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة . (٢) حديث : كان يقول للدنيا : لا إليك عنى .. الحديث ، رواه الحاكم مع اختلاف . وقد تقدم (٣) حديث : ليس الغنى عن كثرة العرض .. الحديث ، متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها : أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيهِ فصبّر واحتسب ، كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضربني العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت ، فإن دعائك أفضل من دعائي . وكان يقول : مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجواهر في جيد الحسنة . وقد كانوا يسكروهن سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كماله يحضر من الدنيا وجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا ، مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ، ومن نورق الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لي حانوتا على باب المسجد ولا تخطئي فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها في سبيل الله تعالى : قيل : وما تسكره ؟ قال : سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء : احتلر الفقراء راحة النفس وفرغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب ، وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنيا بوجوده ومقتدرا إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى ، لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق ، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال ، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح ، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد ، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى ، وقد سمعت بعض المشايخ يقول : إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تهجير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له : أي يكون له من كل واحد نصيب ، وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى ، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيلحق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى ، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس ، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكأن صفة التكبر حاصلة له ولا ثقة به وفضيلة في حقه ، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق ؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يحتم للكافر بالإيمان ، وقد يختم له بالكفر ، فلم يكن ذلك لا ثقة به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه

في صفات الله تعالى ، ولما كانت معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى ، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء ، فإذا لو استوى عنده وحوادث المسال وعنده ففهم نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة ، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا ، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

وانفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفانده له ثم وجدته ، فله حالة الفقر وحالة الوجود ، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول : ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه لحال الوجود أفضل ، لأن الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الفسك والذكر إلا قدرة مدخولة يشغل ؛ والمسكن هو العادر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا ، وقال : كاد الفقر أن يكون كفرا ، أى الفقر مع الاضطراب فيما لا بد منه ، وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ؛ لحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنها استويا في الحرص وحب المال ، واستويا في أنه كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ؛ ولكن افترقا في أن الواحد يأمن بما وجدته فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا ، والعاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يرغبى الخلاص منه ، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلا أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا ؛ لحاله أشد لا محالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعى : أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد ، فينبغى أن تحب من لا يفارقه وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقه وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ؛ وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقدها وإن كان حريصا عليها ، فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمعهم ؛ والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوته وحياته على التكلم والمداوى ؛ ولو مات جرحا لكانت معاصيه أقل ؛ فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا ؛ فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر . ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواء . وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتسجع النقيز بفقره ، وهذا في محل النظر ، ولا يظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تسجيها لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تسجيها بفقره ؛ والعلم عند الله تعالى فيه .

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعى أحب من أحببت فإنك مفارقة » تقدم .

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها .
فأما أدب باطنه فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله - وإن كان كارهاً للفقر - كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجامة ولا كارهاً للحجامة ، بل ربما يتقصد منه منة ، فهذا أقل درجاته وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام : يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا ، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقير بل يكون راضياً به ، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بفوائده الغنى ، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن الله تعالى عقوبات بالفقير ومثوبات بالفقر ؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته - إذا كان عقوبة - أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود ، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقير ويرضى لعلمه بشمرته ، إذ قيل : ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له : خذ على ثلاثة أمثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره : فإن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستتر فقره ويستتر أنه يستتره في الحديث : إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال ، وقال تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحتنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كدور البر .

وأما في الأعمال فأدبه : أن لا يتواضع لعنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرم الله وجهه : ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل ، فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداً منة للأغنياء وطمعاً في العطاء .

وأما أدبه في أفعاله : فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم ، قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف (١) ، وينبغي أن لا يتدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يتدخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين (والثانية) أن يتدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

(١) حديث زيد بن أسلم : درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف . قيل : وكيف يا رسول الله ؟ قال : أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف .. الحديث . أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً ، وقد تقدم في الركاة ، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسل .

ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يتدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربعين يوماً ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطي ، وغرضه في الأخذ . أما نفس المال فينبغي أن يكور . حالاً خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحتزن من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب . وأما غرض المعطي فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والدكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزجها ببقية الأغراض . أما الأول - وهو الهدية - فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فلا يرد البعض دون البعض ؛ فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش ^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض ^(٣) ، وقال : لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي ^(٤) ، وفعل هذا جماعة من التابعين . وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسين درهماً فقال : حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أتاه رزق من غير مسألة فرده فأما يرد على الله ^(٥) ، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرهما . وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حل إليه رجل كيساً ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له حلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين ولا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني

(١) حديث أن قبول الهدية سنة : تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .

(٢) حديث : أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش . أخرجه أحمد في أثناء حديث أبي بصير : وأهدت إليه كبشين وشيئاً من سمن وأقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عني الآخر . ولساد حيد . وقال وكيع . مرة عن أبي بصير عن أبيه .

(٣) حديث : كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة . وإيم الله لأهل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يسكون مهاجرين . الحديث . فيه محمد بن إسحق ورواه بالسنن .

(٤) حديث : لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال : روى من غير وجه عن أبي هريرة ، قت : ورجاله ثقات . (٥) حديث عطاء مرسل : « من أتاه رزق من غير وسيلة فرد فإعما يرد على الله عز وجل » لم أجده مرسلًا هكذا ، ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد . من حديث خالد بن عدي الجهلي . من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف بنفس فقبله ولا يرد فإعما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه . ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة . « من أتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فليقبله » وفي الصحيحين من حديث عمر : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل لحظه . الحديث » .

حتى آخذه وإلا فلا ، وأمانة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرى السقطى لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بسأل وسأله أن يأكله فقال : أفترقه على الفقراء ، فقال : ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال : ما أريد أن تنفقه في الحل والبقل بل في الحلوات والطيبات ، فقبل ذلك منه ، فقال الخراساني : ما أجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد : ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك .

الثاني : أن يكون للشواجر المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فليُنظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمعصية في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك اقتناراً به لأخذت وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم لإشفاقاً عليهم ونصحاً لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم .

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر : أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه ، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما للمعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإني ما هو رزق ساقه الله إليه »^(٢) ، وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد كان سرى السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئاً فرده مرة ، فقال له السري : يا أحمد ، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد : أعد على ما قلت ! فأعاده ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر ، فأحبسه لي عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه لي ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوب من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره ؛ فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو : إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لمسا في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى ، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه ، ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مآمان (أحدهما) أن يأخذ في العلانية ويرد في السر ، أو يأخذ في العلانية ويغترق في السر ، وهذا مقام الصديقين ؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأن بنفسه بالرياضة (والثاني) أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه . أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية ؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار

(١) حديث « ما للمعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً » رواه الطبراني من حديث ابن عمر ، وقد تقدم في الزكاة . (٢) حديث « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإني ما هو رزق ساقه الله إليه » وفي لفظ آخر « فلا يرد » تقدماً قبل هذا بحديث .

الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقير فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمه الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإن في ذلك آفات وأخطارا ، والنزوع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا جائع كما ترى عربان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي : لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا ؛ فحملتها إليه ، فنظر إليهما ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مؤثرين . ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة بي إلى الباقي فردّه . قال : فرأيت الليلة الثانية وعليه مؤثران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء . فالتفت إلى فأحد يدي . فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكهيز : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وحوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال . هذا كله قد أعطانيه فرهدت غيه وأخذ من أيدي الخلق لأن هذه أثمان وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ولعنة ، والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك وفقاً بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرهن والابتلاء . قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب ^(١) ، فإذا أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب . ومن الاختبار أيضاً : أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرباً إلى الله تعالى وكسراً لعنة النفس فتأتيك عفراً صفواً لئمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم أغرت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها ، فزود ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون ؛ وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحق الفقراء وتعتد جماعة من الصالحين فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبإدربه إلى الصرف إليهم ولا تدخره ، فإن إمساكه ولو لبلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرّب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاء ، وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ قيل معناه : ليسع أحد ثوبيه . وقيل معناه : فليستقرض بحاجته ، فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم : إن لله تعالى عبداً ينفقون على قدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله ثلاث طوائف : الأقوياء ، والاشقياء ، والاغنياء ، فقليل : من هؤلاء ؟ فقال : أما الأقوياء فهم أهل

(١) حديث « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه فما زاد فهو حساب » أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال « وجانب الحزن والسوء » بدل قوله « طعام يقيم صلبه » وقال صحيح . (٢٧ - أحياء علوم الدين - ٤)

التوكل على الله تعالى ، وأما الاستخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى ، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى ، فإذا نهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطى فليأخذه ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى ؛ لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلما قعد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول : من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام ، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم في الدرجة . فقال صاحب المنزل لشقيقه : ما قصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغدوني هذا يوما ويعيشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي ، أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليخرجوا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم : « للسائل حق ولو جاء على فرس »^(١) ، وفي الحديث : « ردوا السائل ولو بظالم محرق »^(٢) ، ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بعصفهو حرام ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفع عن ثلاثة أمور محرمة .

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال لإظهار الفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو : الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تسليماً على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشييع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل المنة .

(الثاني) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق فإسهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة ، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول .

(الثالث) أنه لا ينفع عن إيذاء المسئول غالباً ؛ لأنه ربما لا يسمح نفسه بالبدل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استجيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخل ، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها »^(٣) ، فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح

(١) حديث « لثاني سأل وإن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث الحسن بن علي ، ومن حديث علي ، وفي الأول - يعل بن أبي يحيى جهله أجو حاتم وونه ابن حبان ، وفي الثاني شيوخ لم يسم - وسكت عليهما أبو داود ، وهذا ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه يله من أحمد بن حنبل قال : « أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها » - للسائل حق .. الحديث .
فإنه لا يصح عن أحمد ، فقد أخرج حديث الحسن بن علي في مسنده . (٢) حديث « ردوا السائل ولو بظالم محرق » رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح . والسائل والمأذون من حديث أم مجيد . وقال ابن عبد البر . حديث مضطرب .
(٣) حديث « مسألة الناس من الفواحش ، وما أحل الله من الفواحش غيرها » لم أجده أصلاً .

لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره . وقال صلى الله عليه وسلم « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جر جهنم »^(١) ، « ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظيم يتقعقع وليس عليه لحم ، وفي لفظ آخر « كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه »^(٢) ، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبإيعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم بأمر كثير آ بالتعفف عن السؤال ويقول « من سألنا أعطينا » ومن استغنى أغناه الله ، « ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » قالوا : ومنك يا رسول الله ؟ قال « ومنى »^(٥) ، وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لو أحد من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيت ، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال : لست سائلاً ولكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالذرة وقال : لا تعد . ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنة الصديق الحوطة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استتجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه ، فإن يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوطة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده ؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله ، وهيات إن ذلك أيضاً معصية ، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رأى مستغنياً عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى ما لا مال له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كالأخذ المولى بقوله إلى علوى وهو كاذب . فإنه لا يملك ما يأخذه ، كأخذ الصوفي الصالح الذى يعطى لمصلاحه وهو فى الباطن مقارفاً لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه — وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه — فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قررناه فى مواضع ، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء . إما أن يكون مضطراً إليه ، أو محتاجاً إليه حاجة

(١) حديث « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جر جهنم » ... الحديث ، رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرين على ما ذكر منه وتقدم فى الركاه ، ولمسلم من حديث أبي هريرة « من يسأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جريراً » الحديث . وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمر « ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخاف وجهه » وفى إسناده ابن وهب وشيخين من حديث ابن عمر « ما زال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه حرمة لحم » وإسناده جيد .

(٢) حديث « من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه » رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى الركاه (٣) حديث : بإيعاد قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٤) حديث « من سألنا أعطينا ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا » أخرجه ابن أبي الدنيا فى القناعة ، والحاثر بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى ، وفيه حصن بن هلال لم أر من تسلم فيه ، وبأقبح ثقات . (٥) حديث « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » الحديث « أخرجه البزار والطبرانى من حديث ابن عباس « استغنوا عن الناس ولو بشوكة » وإسناده صحيح ، وله فى حديث « تنفعوا ولو بحزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : وما قل من السؤال ... الخ .

مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستغنى عنه ؛ فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحاً ، والمسئول منه بكونه راضياً في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب ، فإن القادر على الكسب وهو بطلال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف ، وكن له جبة لا قبيص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا يذتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قبيص والبرد يؤذيني أذى أليقة ولكن يشق على ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤال قبيصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستراخروك من ثيابه عن أعين الناس ، وكن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز ، وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الرحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

• فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة للنفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به عن حد الشكوى ، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك ، فإن الذل لازم للمنة لا محالة . وأما الإيذاء فبببيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة ، وإن كان في القوم شخص مرموق لولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التغافل إن أراد ، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به ، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى .

• فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لا خلاف فيه . بين الأمة ، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسيطا الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف اللام ، وضرب البالغ أشد نكاية في قلوب العقلاء ، ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله

عليه وسلم وإنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ^(١) ، فإن هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه ، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كاللجنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه ، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثبته على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفهم عن عهده ، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته ، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى .

* فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا ؟ فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أهلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يجب ، وإنما عظم التكثير في السؤال وتأكد الأمر بالتمنعف لهذا ، لأن الأذى إنما يحل بضرورة : وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة ، فكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان واقفا ببيصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والافط ، وكان هذا بأيتهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ، ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمة فكانوا يحترزون من ذلك ، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين : أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة : سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم ، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فسكانوا يستغنون عن السؤال ، وخذ لإباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا يتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك ، فأما في تحريك الحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك في الكراهة ، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال ، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طاق ، وفي الثانية محت ، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم ، وليدع ما يريه إلى ما لا يريه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة ، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله

(١) حديث « إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » لم أجده أصلا ، وكذا قال المزني لما سئل عنه

صلى الله عليه وسلم : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ^(١) ، وقد أوتي جوامع الكلم ، لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته قليلاً كل من أيدى الناس ، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراماً ، وإن أعطى بسؤال فإن من يطيب فله به بالعطاء إذاسئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو موتك ، فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فנסأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنيننا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه ، إنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : من سأل عن طهر غنى فإنما يسأل جمراً فليستقل منه أو ليستكثر ، صريح في التحريم ، ولا يمكن حد الغنى مشكلاً وتقديره عسير ، وليس إليناً وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث : استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره . قالوا : وما هو قال : غداً يوم وعشاء ليلة ^(٢) ، وفي حديث آخر : من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلخاء ^(٣) ، وورد في لفظ آخر : أربعون درهماً ، ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير ممتنع ، وغاية الممكن فيه تقريب ، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، وبیت يكتنه فما زاد فهو حساب ، فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشى وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالذابة أيضاً . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً ، ولا يذنبى أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفى فيه الخرف . فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرة في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير . والأدم على الدوام فضلة ، وقطعة بالسكية لإضرار ، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجرى من حيث المقدار وذلك من غير زينة ، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى ، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكتنه فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات (إحداها) ما يحتاج إليه في غد (والثانية) ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً . (والثالثة) ما يحتاج إليه في السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال

(١) حديث : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه « تقدم .

(٢) حديث : استغنوا بغنى الله « قالوا : وما هو ؟ قال : غداً يوم وعشاء ليلة « تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنطلية قالوا ما يفتيه ؟ قال : ما يمد به أو يشبهه « ولأحد من حديث علي بن إسماعيل حسن : قالوا وما طهر غنى ؟ قال : « مشاء ليلته » وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة (٣) حديث : من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلخاء « وفي لفظ آخر : أربعون درهماً « تقدم في الزكاة .

لسنّه فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه يقول التقدير بخمسين درهما في الحديث ، فإن خمسة دنانير تسكنى المنفرد في السنة إذا اقتصد ، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيسكون قد سأل مالا يحتاج فيه غداه يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر . وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد وهو بتأخير السؤال خائف أن يبتى مضطرا عاجزا عما يعينه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مالا لعله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يحل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره انفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتى فيه قلبه ويعمل به إن سالك طريق الآخرة ، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وفناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعالمك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة ، وسأل من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان ما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهالكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا مع الروحانيين في عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا - وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثني عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق ، هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق ؟ فقال : للفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت يا أستاذ .

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عالين ، ومن لا يميز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستعجبته له ، فأثيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم لينبيهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المعطى هى العليا »^(١) ، فقال بعضهم : يد المعطى هى يد الآخذ للمال لأنه يعطى الثواب والقدر له لالمسا يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائدة ثم قال : أحملها إليه ، فقلت فى نفسى : إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به بجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال : ردّها عليه وقل له : أنا لأقبل منك أنت شيئا وأخذما زاد على المائدة قال : فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه : وزن المائدة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال : أخذماله وردمألنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب . وتناجى الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، فمن أنكرك ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن يشكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكرك بعد أن طال اجتجاهه حتى بذل كنهه بجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعله فى باطنه فأخذ ينسركون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ولكنه ليس محاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحدرجلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراغبين فى العلم القائلين ﴿ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والسكن والأثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل ، وكان القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه ، وإن لم يكن صادرا عن حال سمى لإسلاما ولم يسمى لإيمانا والعلم هو السبب فى حال يجرى بجرى المثمر ، والعمل يجرى من الحال بجرى الثمرة ، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل : أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته

(١) حديث « يد المعطى هى العليا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

في غيره ؛ لحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً ، فإذا استدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً ، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً ، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة ، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ معناه باعوه ، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض ، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ، ولكن العادة بجاريه بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو اللبيل في وضع اللسان . ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال ، والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يجب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الخور والقصور والآهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول ، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين ، وهو زهد صحيح ، كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة ، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات ، فإذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا ، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنه فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه ، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال ، وبإترك يبتين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يا زاهد ، فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففماذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم الساجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع ، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى ، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللكل ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الغوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجواهر الذي لا فناء له ، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ثم بين أن صفقةهم رابحة فقال تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر : وهو أن الآخرة

خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا ، إما لضعف عظه وبقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يحتطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت : وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل ﴿ وقال الدين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير ﴾ فبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغوب عن عوضه ، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعارضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ^(١) » ، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس ، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى ، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالنكالية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقتها ، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن ، فإذا وصى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست ببيع بل بيعه الذي بايع به ؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد ، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ، وما دام ممسكاً بالدنيا لا يصح زهده أصلاً ، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد وإن كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التليم والبيع ، فعلاقة الرغبة الإمساك ، وعلاقة الزهد الإخراج : فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيادون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط واستزاهداً مطلقاً ، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإليك إذا لم تجزب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات ، فإليك أن تثق بوعدها في المباحات ، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها ، أن تجزبها مرة بعد مرة في حال القدرة ، فإذا وفيت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر ، فإنها سريعة النقص للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجمل فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى مارك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا

(١) حديث : قال رجل : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » ذكره صاحب الفردوس مختصراً « اللهم أرني الدنيا كما تربها صالح عبادك » من حديث أبي القصير ولم يخرج له ولده

لأنفتى في مسألة إلا رد علينا — يعنى أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أدري أهو ابن الحائك أم ماهو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ولو علمنا في أى شيء محبته لفعلمناه حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾^(١) . قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت منهم — يعنى من القليل . قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾^(٢) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات ، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة ؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور من لا يؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة ومخاء وحسن خلق ، ولكن لا يكون زهدا ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى الذواها من المال ، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستئقالا له لمسا في حفظ المال من المشقة والغناء . والحاجة إلى التذلل للسلطين والاغنياء ليس من الزهد أصلا ، بل هو استعجال حظ آخر للنفس ؛ بل الزاهد من أتمه الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو تادر على الكنعن بها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسرارى والفسران طمعا في الخور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن ما في الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ فخرج على قومه في زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ فماسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : معناه أيهم أزهدي فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يستجيبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فوصف الكفار بذلك ، ففهموه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

(١) حديث قال المسلمون . إنا نحب ربنا ولو علمنا في أى شيء محبته لفعلمناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية : لم أقف له على أصل . (٢) حديث ابن مسعود . ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ الآية أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير ، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربيع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنى بالزهد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره وفترق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة »^(٢) ، وقال تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله بنابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال كل مؤمن محوم القلب صدوق اللسان ، قلنا يا رسول الله وما محوم القلب ؟ قال « التي التي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد ، قلنا : يا رسول الله ، فمن على أثره ؟ قال « الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة »^(٣) ، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا »^(٤) ، لجعل الزهد سبباً للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فيلبيغني أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضاً أن من يحب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة ، فإن صادقا قلباً فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتحلا »^(٥) ، ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا قال « وما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذوها ، وكأني بالجنة والنار ، وكأني بعرش ربي بارزا ، فقال صلى الله عليه وسلم « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان »^(٦) ، فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : عبد نور الله قلبه بالإيمان . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى ﴿ فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال « إن النور إذا دخل في القلب الشرح له الصدر وانفسح ، قيل يا رسول الله . وهل لذلك من علامة ؟ قال « نعم ، التجافي عن دار الغرور ؛ والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »^(٧) ، فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحي منه تعالى ، فقال « ليس كذلك تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون »^(٨) ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وما علامة إيمانكم ؟ » فذكروا

(١) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد ، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه .

(٢) حديث « إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة » رواه ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف (٣) حديث : قلنا يا رسول الله وما محوم القلب ؟ قال « التي التي ... الحديث » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله : يا رسول الله فمن على أثره ، وقد تقدم ، ورواه بهذه الزيادة بإسناد المذكور الخراطي في مكارم الأخلاق (٤) حديث « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا » رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه ، وقد تقدم . (٥) حديث « الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة ، فإن صادقا قلباً فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتحلا » لم أجده أصلاً . (٦) حديث : لما قال له حارثة : أنا مؤمن حقا ، فقال « وما حقيقة إيمانك ... الحديث » أخرجه البزار من حديث أنس ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف .

(٧) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ ... الحديث . أخرجه الحاكم ، وقد تقدم .

(٨) حديث « استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشئانة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبثوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون ^(١) » ، فجعل الزهد تمكلاً لإيمانهم . وقال جابر رضى الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من جاء بلا إله إلا الله لا يخطئ بها غيرها وجبت له الجنة » ، فقام إليه على كثر من الله وجهه ، فقال : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله مالا يخطئ بها غيرها ؟ صفه لنا فسرر لنا » ، فقال : « حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة » ، فن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة ^(٢) . وفي الخبر : « السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن » ، والبخل من الشك . ولا يدخل الجنة من شك ^(٣) . وقال أيضاً : « السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخیل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار ^(٤) » ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة . وروى عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام ^(٥) » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرفى أصحابه بهمار من الفرق حفل وهى الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، وأتباعها في قلوبهم قال الله تعالى ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها ؟ فقال : « قد نهاني الله عن ذلك » ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عييك إلى مامتنعابه ﴾ الآية ^(٦) . وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : ألا تستطعم الله فطعمك ؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع ؛ فقال يا عائشة ؛ والذي نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحتها ؛ يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر عز . كروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكلفنى ما كافهم ؛ فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله ^(٧) . وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها .

- (١) حديث : لما قدم عليه بعض الوفود قالوا : « يا مؤمنون ، قال : « وما علامته يا أيها النعم . الحديث » رواء الخطيب وابن عساكر في تاريخهم بإسناد ضعيف من حديث جابر . (٢) حديث جابر : « من جاء بلا إله إلا الله لا يخطئ معها شيئاً وجبت له الجنة » لم أره من حديث جابر ، وقد رواء الترمذى الحسكى في التواتر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف . (٣) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن . . . الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده . (٤) حديث : « السخى قريب من الله . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٥) حديث أبي ذر : « من زهد الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه . . . الحديث » لم أره من حديث أبي ذر ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسل ، ولا بن عدى فى السكامل من حديث أبي موسى الأشعرى : « من زهد فى الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله يتابع الحكمة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكر . وقال القهقي باطل : ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب : « من أحسن لله » وكلمها ضعيفة . (٦) حديث مر فى أصحابه بشار من النوق حفل . . . الحديث . وفيه : « ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عييك ﴾ الآية : لم أجده أصلاً (٧) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ، ألا تستطعم ربك فطعمك ، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع . . . الحديث . وفيه : « يا عائشة » ، إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر . . . الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسنده الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلى من رواية عباد بن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصراً : « يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يكلفنى ما كلفهم » ، فقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ومجاهد مختلف فى الاحتجاج به .

البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : يا حفصة ، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا كذا سنة لم يشبع من التمر وهو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينسجم على عبادة مثنية ثنيت له ليلة أربع طافات فنام عليها فلما استيقظ قال : منعتموني قيام الليلة بهذه العبادة اتوها باثنتين كما كنتم تثنونها ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد توبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كسامين لزاوا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاهما وبكى عمر رضى الله عنه واشتجب حتى ظننا أن نفسه ستخرج ^(١) . وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقا ، فإن سلكت غير طريقة هملسك في طريق غير طريقتهما ، وإني والله سأصبر على عيشتهما الشديد لعلني أدرك معهما عيشتهما الرغيد .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد كان الأنبياء قبل يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة ، وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم ^(٢) .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خصرة البقل ترى في بطنه من الهزال ، فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة . وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) حديث : أن عمر لما فدت عليه الفموحات قالت له حفصة : البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود ... الحديث يعاونه وفيه : ناشدتك الله هل تعلمين كذا : يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاهما وبكى ... الخ . لم أجده هكذا مجرّدا في حديث ، وهو مفرق في عدة أحاديث ؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه ، وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك الحديث ، ولترمذي من حديث طائفة قالت : ما شبع من طعام فأشاء أن أبكي لا بكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها ، والله ما شبع من خبز ولحم صرّين في يوم . وقال حديث حسن ، وللشيخين من حديثها : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وللبخاري من حديث أنس : كان لا يأكل على خوان ... الحديث ، وتقدم في آداب الأكل ، ولترمذي في الفهائم من حديث حفصة أنها لما سألت : ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم ؟ مسح ثنيتين فينام عليه . الحديث . ولأن سعدى الطائفات من حديث عائشة : أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ... الحديث ، وتقدم في آداب الميعة . وللبزار من حديث أبي الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتخلل له الدقيق ولم يكن له إلا قيس واحد . وقال : لا أعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد . قال يونس بن بكير : قد حدث عن سعيد بن مسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها . قلت : فيه سعيد بن مسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم . ولأن ما جاء من حديث عبادة بن الصامت صلى الله عليه وسلم في شمة قد عقد عليها زاد النظير في جزئه المشهور : فقد دعا في عنقه ما عليه غيرها ولمسأله ضعيف ، وتقدم في آداب الميعة . (٢) حديث أبي سعيد الخدري : كان الأنبياء قبل يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة . الحديث ... بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل

في سبيل الله) قال صلى الله عليه وسلم ، تبأ الدنيا تبأ للدينار والدرهم ، فقلنا : يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة ، فأى شيء ندخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تعينه على أمر آخرته (١) .

وفي حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هما لا يفارق قلبه أبدا وفقر لا يستغنى أبدا وحرص لا يشبع أبدا (٢) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة (٣) .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يابني الله لو أمرت أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم ببيان على الماء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة دهباً ، فقلت لا يارب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأنا اليوم الذى أجوع فيه فأنضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، والذى بعثتك الحق ما أسمى لآل محمد كفى سويق ولا سفة دقيق ، فلم يكن كلام . أسرع من أن سمى هذه من السماء أفطعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا لإسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه لإسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بماتيسح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعملت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال : نبيا عبدا ، ثلاثا (٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله لعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه (٥) .

(١) حديث عمر : لما نزل قوله تعالى ((والذين يكتزون الذهب والفضة)) الآية ، قال « تبأ الدنيا تبأ للدينار والدرهم ... الحديث » وفيه : فأى شيء ندخر ؟ بل أخرجه الترمذى وابن ماجه وهنئ في النكاح دون قوله « تبأ للدينار والدرهم » والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان ، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى المال يتخذ ؟ كما فى رواية ابن ماجه ، وكما روى الزرار من حديث ابن عباس .

(٢) حديث حذيفة « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث . . الحديث » لم أجده من حديث حذيفة ، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن : من أشرق فى قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عنه ، وحرص لا يبلغ عنه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، وفى آخره زيادة . (٣) حديث « لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرتة » لم أجده لساندا ، وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن أبى طلحة مرسل « لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة ، وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب إليه من أن يعرف فى غير ذات الله » ولم يخرج له ولده فى مسند الفردوس ، وعلى بن أبى طلحة أخرجه له مسلم . وروى عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسله ، فالحديث اذن معضل (٤) حديث ابن عباس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعدا على الصفا . . الحديث فى نزول إسرافيل . وقوله : إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة . . الحديث تقدم مختصرا . (٥) حديث « إذا أراد الله لعبده خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله « ورغبه فى الآخرة » وزاد « فقهه فى الدين » ولسانده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : ازهّد في الدنيا يحبك الله ، وازهّد فيما في أيدي الناس يحبك الناس ^(١) .
وقال صلوات الله عليه ، من أراد أن يؤتیه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا ^(٢) ، وقال
صلى الله عليه وسلم : من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب
الموت ترك اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب ^(٣) .

ويروي عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام ، أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادات ،
والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء ^(٤) ، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها
لا يمكن ، فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما
أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار : فقد جاء في الآثار : لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا مانقصة
من دنياهم . وفي لفظ آخر : ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى :
كذبتم ، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال : تابعتنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا .
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهّد في الدنيا منكم
وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد .

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها .
وقال رجل لسفيان : أشتى أن أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك : تلك ضالة لا توجد .
وقال وهب بن منبه : إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا
لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إني لأشتى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي
درهم ، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله .

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له
بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال : أندرون مامثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت
لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلودها ، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبرسني ، موتوا
يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا .

وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر ، وليس له وليد يموت ولا يبيت
يجرب ولا يتخر لعد ، أينما أدركه المساء نام ،

وقالت امرأة أبي حازم لابن حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب !

(١) حديث « ازهّد في الدنيا يحبك الله ... الحديث » يهضم . (٢) حديث « من أراد أن يؤتیه الله علما بغير تعلم وهدى بغير
هداية فليزهد في الدنيا » لم أجده أصلا . (٣) حديث « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ... الحديث » رواه ابن حبان
في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب . (٤) حديث « أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادات ... الحديث »
رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد يهضم .

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بئ ، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك ؟ قال : الأمر أجمل من ذلك .

وقال إبراهيم ابن أدهم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدین المجتهدین إلى آخر الدهر أبدا سرمدًا .

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (١) ، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترج لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برغاء ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعري ، والفقر والذل . وقال الحسن البصري : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شئ منها أدبر ، ولهم كانت في أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطلوه ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أسر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم . كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ، والله ماسلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه : وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : (الدرجة الأولى) وهي السهول منها : أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهد ما ويكفها ، وهذا يسمى المتزهد ، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد ، والمتزهد يذيق أولًا نفسه ثم كيسه والزاهد أولًا يذيق كيسه ثم يذيق نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه ، والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . (الدرجة الثانية) : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذي يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن يزهد طوعا يزهد في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا . إذ عرف أن الدنيا لا شيء

(١) حديث : إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا ... الحديث ، تقدم .

فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهره ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ولعمري الآخرة أحسن من خزفة بالإضافة إلى جوهره ، فهذا هو السكال في الزهد . وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهره آمن من طلب الإقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي مرسى عبد الرحيم : في أي شيء تتكلم ؟ قال : في الزهد ، قال : في أي شيء ؟ قال في الدنيا : فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في شيء ، والدنيا لا شيء ، لا يش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله ؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها في المعدة ، ثم تنتهي إلى النتن والقذر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له ، والدنيا متناهية على القرب ، ولو كانت تنهت ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد ، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكثرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتادا به ، لا يراه شيئا معتادا به إلا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ، فهذا تفاوت درجات الزهد ، وكل درجة من هذه أيضا لها درجات ، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده .

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات : (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار ، إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء » (١) ، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا ، فإن الخلاص من الآلام يحصل بمجرد عدم . (الدرجة الثانية) أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الآلام بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ؛ وهو الذي أصبح وهوومه هم واحد ؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطالبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى ، وهذا زهد

(١) حديث « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غني ، ومؤمن فقير ... الحديث ، وفيه : « أتى حبست بحدك محبسا فطعنا كريها ماوسلت البك حتى سأل منى الفرق ما لوورده أتى بعير أسكته حتى لصدرت عنه رواء » وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد : حديثه مثله .

المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه ، وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالخور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى لذة الخور والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحاد الأقسام وبعضها أجل للحمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كل ماسوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها . وفي الدرجة الثالثة : أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس . وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذا أوالى وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأغنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيسكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ﴿ ولأنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه . وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أملة لاحالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ؛ فإن من أراد شيئا أراد دوامه ، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ، ولذلك لما كتب عليهم القتال ﴿ قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل رتبة الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموات موت العجائز ، فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأما المنافقون ، ففوتوا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ﴿ إن الموت الذين تغفرون منه فانه ملائكتكم ﴾ فإبناهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فسارحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يثيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فبقدر ما تملك من بطنك كذا ، تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو القناعة ، وهذا إشارة إلى المسال خاصة . وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإن من يميل إلى الشهوات يتحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه ، وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للضمون ، وهو إشارة إلى الرزق وقال أهل الحديث : حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول ، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة ، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات ، فإن من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها ، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال ، هذا أفضل منى ، فذهب إلى أن الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد . وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال . وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة ، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رأيا مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العيد في نفسه والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه

فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف ، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل : ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : سمعنا في الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ فقال : هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال : إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه ؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض : هو الزهد في الحرام . والنفل : هو الزهد في الحلال . والسلامة : هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال : التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء ، بل الأحوال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه ، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك ؟ قال : وما الذي تجدد ؟ قال : توسدك الحجر : أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك . وروى عن يحيى بن زكريا عاينهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس البس ، فسأله أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت على الدنيا ، فبيكي ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه . وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط لإنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقتنى أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أنتعم بظل الحائط ، فإذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها ، وأقل درجاته : الزهد في كل شبهة ومحذور . وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لافي الشبهة والمحذور ، فليس ذلك من درجاته في شيء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن .

• فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ، ولا بقاء إلا بضروريات النفس ؛ فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ؛ فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقته في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم ناقته بالذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن ، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تمصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد ، وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك

ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفا إليه ؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسيم الأسحار وصوت الأطيّار ، ولكن إذا لم يقصد طالب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه مأوه فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شاقا فذته قريبة والاحتناء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد ، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم ؛ فالفضول كالتحليل المستمرة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنئها للترفيه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب ، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضروري ، والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته ، فلا بد من بيان وجه الزهديه ، والمهمات ستة أمور : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنسكح ، والمسال . والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الريام من ربح المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

(الأول المطعم) ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به ، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يتدخر من غذائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يتدخر لشهر أو أربعين يوما . (الدرجة الثالثة) أن يتدخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن ادخر لا أكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة ؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مد واحد ؛ وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة ، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ، ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التمتع وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأما الأدم : فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان ، وأعلاه اللحم أى لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، وبأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه أن يفتى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ، ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الآدم :

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها : فم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء ^(١) . وهذا ترك اللحم والمرقة والآدم .

وقال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف ويفتعل الخوص ويلحق أصابعه ويأكل على الأرض . ويقول : إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد ^(٢) .

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فخير الشعير له والنوم على المزابل مع السكالب كثير .

وقال الفضيل ماصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ^(٣) . وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ، فإنكم إن تقوموا بشكره . وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطاعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده .

ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : « أما إنني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى » ^(٤) .

وأما عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : اعزلوا عني حسابها . وقد قال يحيى ابن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قريبه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمة ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

(المهم الثاني) الملبس . وأقل درجته : ما يدفع الحر والبرد ويستتر العورة . وهو كساء يتغطى به . وأوسطه : قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه . أن يكون معه منديل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه . بل يلزمه القعود في البيت . فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد . أما الجنس فأقله المسوح

(١) حديث عائشة : كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ... الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان ... الحديث . وفي رواية له : ما يوقد فيه بنار . ولأحمد : كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار . وفي رواية له : ثلاثة أهله .

(٢) حديث الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار الحديث ، تقدم دون قوله « إنما أنا عبد » فإنه ليس من حديث الحسن ، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم .

(٣) حديث : ماصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ، تقدم .

(٤) حديث : لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ... الحديث ، تقدم .

الحشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ . وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله ما يبق يوما ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه ما يتماثل عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه ؛ فن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للعالم ، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس » ^(٢) ، وقال عمرو بن الأسود العنسي : لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام لبيل أبدا على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبدا فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود ^(٣) . وفي الخبر « ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا » ^(٤) واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . ^(٥)

وكانت قيمة ثوبه عشرة ^(٦) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا ^(٧) واشترى سراويل بثلاثة دراهم ^(٨) . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف ^(٩) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر : كان قيصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيصر زيات ^(١٠) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم ^(١١) فكان أصحابه يلبسونه ويقولون

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . رواه الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة . (٢) حديث « إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس » لم أجده أصلا . (٣) حديث عمر « من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد . (٤) حديث « ما من عبد لبس ثوب شهرة ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله « وإن كان عنده حبيبا » . (٥) حديث . اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة ، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... الحديث ، وإسناده ضعيف .

(٦) حديث : كان قيمة ثوبه عشرة دراهم ، لم أجده . (٧) حديث : كان إزاره أربعة أذرع ونصفا . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل : كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف ... الحديث ، وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة : كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي .

(٨) حديث : اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي يعلى ، وشراؤه السراويل منه أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس لا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٩) حديث : كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ ، تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء : رأيته في حلة حمراء ولا بى داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحروبة وعليه أحسن ما يكون من حبل اليمن وقال : رأيته على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحبل . وفي الصحيحين من حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن ، وتقدم في آداب المعيشة . ولأن داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة : وعليه بردان أخضران ، سكك عليه أبو داود واستفربه الترمذي . وللبزاز من حديث قدامة الكلبي : وعليه حلة حمراء وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف ، قاله الذهبي .

(١٠) حديث : كان قيصره كأنه قيصر زيات . أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف : كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحية حتى كأن ثوبه ثوب زيات . (١١) حديث : لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهداه المقوقس ثم نزع ... الحديث .

يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا - وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعهُ وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباغ . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم ، كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعهُ ^(١) لحرم لبسه على الرجال ، وكما قال لعائشة في شأن بريرة « اشتطى لآلهما الولاء » ^(٢) ، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فخرمه ، وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لنا كيد أمر النكاح ^(٣) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيصة لها علم ، فلما سلم قال : شغلى النظر إلى هذه ، اذهبوا بها إلى أبي جهم واقتنوا بأبجائيتها ^(٤) ، يعني كساءه ، فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصل فيهِ ، فلما سلم قال « أعيذوا الشراك الخاق وانزعوا هذا الجديد فإنى نظرت إليه في الصلاة ، ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال « شغلى هذا عنكم ، نظرة إليه ونظرة إليكم » ^(٥) ، وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين ؛ فأعجبه حسنها ، فخر ساجدا وقال « أعجبنى حسنها فتواضعت لربي خشية أن يمقتنى » ، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه ^(٦) . وعن سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال « انظروا ما أحسنا ! ما أليها ! » قال : فقام إليه أعرابي فقال يارسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبتخل به ، قال : فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فبات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة ^(٧) . وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضى الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بسكى وقال « يا فاطمة ! تجزعى مرارة الدنيا لنعيم الأبد » . فأنزل الله عليه ﴿ واسرف يعطيك ربك فترضى ^(٨) ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن من خيار أمتي فيما أنبأني الله الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ، ويبكون سرا من خوف عذابه ، مؤتمهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش » ^(٩) فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أوصى أمته عامة باتباعه ، إذ قال « من أحبني فليستن بسنتي » ^(١٠) ، وقال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » ^(١١) ، وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها خاصة وقال « إن أردت اللحد في قبائلك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه » ^(١٢) ، وعد على قيص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم .

- (١) حديث : لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعهُ . متفق عليه وقد تقدم . (٢) حديث قال لعائشة في شأن بريرة « اشتطى لآلهما الولاء » . الحديث « متفق عليه من حديثها . (٣) حديث : أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها . أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٤) حديث : صلى في خيصة لها علم . الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم في الصلاة . (٥) حديث : لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال « شغلى هذا عنكم » . الحديث « تقدم . (٦) حديث : احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنها . الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار . الحديث ، رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمر أن يحاك له أخرى ، فهي عند الطبراني فقط ، وفيه زمعة بن صالح ضعيف ، ويقع في كثير من نسخ الإحياء : « يارب من بعدى وهو غلط . (٨) حديث جابر : دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى . الحديث . أخرجه أبو بكر بن لال في « تكملة الأخلاق بإسناد ضعيف . (٩) حديث أن من خيار أمتي فيما أنبأني الله الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سرا من خوف عذابه . الحديث ، تقدم ، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضمه . (١٠) حديث « من أحبني فليستن بسنتي » تقدم في النكاح . (١١) حديث « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » . الحديث « رواه أبو داود والترمذي وصححه ، وابن ماجه من حديث الرباض بن سارية . (١٢) حديث قال لعائشة « إن أردت اللحد في قبائلك ومجالسة الأغنياء » أخرجه الترمذي وقال غريب ، والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وقد تقدم . (٣٠ — إحياء علوم الدين — ٤)

واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميته من الرسخين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه . وقال الثوري وغيره : ألبس من الثياب مالا يشرك عند العلماء ولا يحقر عند الجهال ، وكان يقول : إن الفقير ليرتبي وأنا أصلي فأدعه يحوز ، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يحوز . وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة ذهائق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته . وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو ما يستر العورة ، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة ، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من الغابيين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قيص ومزرتحتة ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف : أول النسك الذي ، وفي الخبر « البذاذة من الإيمان ، وفي الخبر » من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في تحت الياقوت ، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل لأولياي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يخطب ، فقال : انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق — وكان عليه ثياب رقاق ، وبما عبده الله بن سامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته ، فجعل يتكلم في الزهد ، فوضع أبي ذر راحته على فيه وجعل يضطرب به ، فغضب ابن سامر ، فشكاه إلى حمير فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه : إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقبض بهم الغنى ولا يزرى بالفقر فقره . ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم . ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعيم وقال : « إن الله تعالى عابدا ليسوا بالمتنعمين »^(١) ، ورؤى فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافيا فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ؟ فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتنى أحيانا^(٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبك فارفع التميميص ونكس الإزار واخشف النعل وكل دون الشبع . وقال عمر : اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر ، وقال على كرم الله وجهه : من تزييا بزى قوم فهو منهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشددون في الكلام^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما أسفل من ذلك ففي النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا^(٤) » ، وقال أبو سليمان الداراني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرء أو أحمق^(٥) » ، وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة . ودخل محمد بن واسع

(١) حديث : نهى عن التنعيم وقال « إن الله تعالى عابدا ليسوا بالمتنعمين » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وقد تقدم .
 (٢) حديث فضالة بن عبيد : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحتنى أحيانا . أخرجه أبو داود بإسناد جيد .
 (٣) حديث « إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ... الحديث » وآخره « أولئك شرار أمتي » وقد تقدم .
 (٤) حديث « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ... الحديث » رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضاً النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي : كلا الحديثين محفوظ .
 (٥) حديث أبي سليمان « لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرء أو أحمق » لم أجده له إسنادا .

على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف ؛ فقال له قتيبة : مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت فقال : أكلبك ولا تجيئني ! فقال أكرم أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو فقرا فأشكو ربي . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه : أن وار عورتك من الأرض ، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ؛ فإنه كان يتخذ سراويلين ! فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتى عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لبلمان الفارسي رضى الله عنه : مالك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال وما للعبد والثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى . وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفقا ؛ وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها ، فقلت : إنك تكسى خيرا من هذا ! فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ، فجعل يحيى ابن معين يحدث بها ويبيكى .

(المهم الثالث) المسكن ، وللزهد ، فيه أيضا ثلاث درجات (أعلاها) أن لا يطلب موصعا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة . (وأوسطها) أن يطلب موصعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خوص أو ما يشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو لإجارة ؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج منه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجسيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكينة حد الزهد في المسكن ؛ فاختلف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر ، واختلف قدره بالسنة والضيقة ، واختلف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا ، والزهد مدخل في جميع ذلك . وبإجله كل ما يرد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى ، وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدًّا ، وقد قيل : أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز : كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشييد : هو البنيان بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد ^(١) . وقد جاء في الخبر ويأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود البمانية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها ^(٢) . ومر عليه السلام بمجنبة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فذهب فهدمها ؛ فرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها . فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير ^(٣)

(١) حديث : كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد . أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والمالك أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة : فصفاوا النخل قبل المسجد وجعلوا عضادته الحجارة ... الحديث ، ولها من حديث أبي سعيد : كان المسجد على عريش فوقف المسجد ^(٢) . حديث : أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها . رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اهدمها ... الحديث » وهو منقطع .

(٣) حديث : مر بمجنبة معلاة فقال « لمن هذه ؟ » فقالوا : لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ... الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ : فرأى قبة مصرية الحديث ، والمجنبة القبة .

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع ابنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ^(١) .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في المساء والطين ^(٢) ، وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً ، فقال : ما هذا ؟ قلنا خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك ^(٣) ، واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كم من رحل قدمات وهذا قائم على حاله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » ^(٤) ، وفي الخبر : كل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفق في المساء والطين ^(٥) ، وفي قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر أو برد ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله : اتسع في السماء ^(٧) ، أي في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر ، فكبر وقال : ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بذيان هامان لفرعون ؛ يعني قول فرعون ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ يعني به الآجر ، ويقال : إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والآجر ، وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما الجبابرة ، وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف ، ثم رأيت من رهص ، ثم رأيت الآن مبنيًا باللبن ، فسكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللبن . وكان من السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قائمة وبسطة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف . وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه . وقال الفضيل : لا تلم أعجب من بنى وترك ، ولكن أعجب من نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين ، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم .

(١) حديث الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع ابنة على لبنة . الحديث ، رواه ابن حبان في الثقات ، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسل . والطبراني في الأوسط من حديث عائشة : من سأل عن أوسره أن ينظر إلى فليتنظر إلى أشعث صاحب مشعر لم يضع ابنة على لبنة . الحديث ، ولا نأده ضعيف .

(٢) حديث : إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في المساء والطين . رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد . خضره في الطين والابن حتى يبني . (٣) حديث عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً لنا قد وهى . الحديث . رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .

(٤) حديث : « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لير وانهطاع (٥) حديث : « كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفق في المساء والطين » رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ : لا في التراب أو قال في البناء . (٦) حديث : « كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد » رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ : « لا مالا » يعني بالبرد منه .

(٧) حديث قال للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله : « اتسع في السماء » قال المصنف : أي في الجنة . رواه أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المنيرة قال : شكى خالد بن الوليد فذكره ، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المنيرة عن أبيه عن خالد الوليد ، إلا أنه قال : ارفع إلى السماء واسأل الله السعة ، وفي إسناده لين .

(المهم الرابع) أثاث البيت ، وللزهد فيه أيضا درجات (أعلاها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفي ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ، فرمى بالمشط ، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود ، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة . ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخرف في كل ما يكتفي فيه الخرف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجئس النازل الخسيس ، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجئس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ، ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف ^(١) . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عبادة مثلية ووسادة من آدم حشوها ليف ^(٢) . وروى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام ، فدمعت عيناه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما لذي أبك يا ابن الخطاب ؟ ، قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما في من الملك ، وذكرت أنك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بشريط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ، قال : بلى يا رسول الله ، قال : فذلك كذلك ^(٣) ، ودخل رجل على أبي ذر ليجعل بقلب بصره في بيته فقال : يا أبا ذر ، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معى عصا أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ، ومعى قصعتي أكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي . ومعى مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهورى للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما هم به ، فقال عمر : صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى حتى باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال : من أجل التستر والسواوين ، فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى ، فقال : اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة ، فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم ، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال : بأبي أنت قد أحسنت ^(٤) ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكت

(١) حديث عائشة : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجه . (٢) حديث : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عبادة مثلية ووسادة من آدم حشوها ليف . رواه الترمذي في المعجمين ، وقال تقدم ، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه . (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط . (٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع . . . الحديث ، لم أره بمجوع ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفيان باسناد جيد : أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على مضادتي الباب فرأى القرام قد ضربت في ناحية البيت فرجع ، فقالت فاطمة لعل : انظر فأرجعه . . الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال : =

الخل لجلس فرأى أثر الشريط في جنبه . . الحديث ، معفى عليه من حديثه ، وقد تقدم .

وقال « كذا رأيت ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان ^(١) » ، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنوية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها « أعيدي العباءة الخلقعة ونحي هذا الفراش عنى قد أمرني الليلة ^(٢) » ، وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة ليلا فيبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطة ثم قال « ما ظن محمد بربه لو لاقى الله وهذه عنده ^(٣) » ، وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار مالا حدم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

(الملم الخامس) المنكح ، وقد قال قائلون : لامعنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثراته ، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال : قد حجب إلى سيد الزاهدين الفساء فكيف زهد فيهن ؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية . والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العزوبة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ؟ وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فاعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلى البين والآنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك استرازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات ، واللذة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تنضره ، إذ لم تكن هى المقصد والمطلب ، وهذا كمن ترك أكل الحبوب وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شيء ، لأن فى ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ما عناه سهل لا محالة ، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ^(٤) فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ، فأكثر الناس يشغلهم

== جاءت ابنة هيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفى يدها فتخ من ذهب .. الحديث . وفيه : أنه وجد فى يد فاطمة سلسلة من ذهب . وفيه « يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار » وأنه خرج ولم يقعد ، فأمرت بالسلسلة فبيئت فاشترت بشئها بعد فأعتته ، فلما سمع قال « الحمد لله الذى نهي فاطمة من النار » .

(١) حديث : رأى على باب عائشة سترا فتهتك .. الحديث . أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائي فى الكبرى من حديثها . (٢) حديث : فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان ينام على عباءة مثنوية .. الحديث ، رواه ابن حبان فى كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراشا رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنوية فاطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا .. » الحديث . وفيه : أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته ، وفيه مجاهد بن سعيد مختلف فيه ، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من القمائل .

(٣) حديث : أتته دنائير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله .. الحديث ، وفيه « ما ظن محمد بربه لو لاقى الله وهذه عنده » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه « يا عائشة ، ما فعلت بالذهب » لجاء ما بين الخمسة إلى التساية إلى التسعة لجل يلقبها بيده ويقول « ما ظن محمد .. » الحديث « وزاد « انفقها » وفى رواية : سبعة أو تسعة دنائير ، ولمن حديث أم سلمة بإسناد صحيح : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام الوجه ، قالت : لحسبت ذلك من وجع ، فقلت : يا نبي الله ، مالك شام الوجه ؟ فقال « من أجل الدنائير السبعة التى أتتنا أمس أسينا ومى فى خصم الفراش » وفى رواية « أسينا ولم تنفقها » (٤) حديث : كان لا يهمله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، هدم فى النكاح

كثرة النسوان ، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد في النساء : أن يختار المرأة المدون أو القيمة على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب للريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والتزوج . وقال : أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه ؛ فإذا ظهر أن لذة التكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا .

(المهم السادس) ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال ، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجته واقتصر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته ، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه ؛ وهذا له أول قريب ولكن يتأدى به إلى هاوية لا عمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم ، فأما النفع فيغنى عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده المستأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة ، وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الحاء في بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا ينضب لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب ، والخاص في طلب الجاه بالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين ، فأما التوهيمات والتفديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة ، إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال ، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فإذا نطلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعنى القليل منه ، فلم كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكذب حبتين رفع سقطة وقام ، هذا شرط الزهد ؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقربائهم جميعا ، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصنق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد ، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا : إنه خرج من حد الزهاد نعتي به أن ما وعد للراعي في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله ، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة ، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء : معناه أن التضيق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه . كل ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يحميم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعم من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة ، فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشقة أمره ، فن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا محالة . والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه ، فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخفضت أن أسألك منها شيئا ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فإذا قدر الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيد به بما يشتهي حتى تظهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراعاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ، ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة . فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلقتها فهي تجاذبه إلى الدنيا ، وغالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كمن ينشر بالمنشيار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشيار إنما ينزل المؤلم ببذنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بالـم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقيه قبل ما يراه من حسرة فوت الزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب . قال الله تعالى ﴿ كلا لمنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴿ فترى العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار ، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ؟ ففسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا مانع في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له : أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) . وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناجمه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه : رفقوا الدنيا بالسكينة ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهدهم في حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا

(١) حديث : نفث في روعه أحب من أحببت فإنك مفارقة ، تقدم .

ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا اشراقكم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ . وقال تعالى ﴿ فأعرض عن تولي عن ذكرنا ولم يره إلا الحياة الدنيا ﴾ ذلك مياخهم من العلم ﴿ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك ، فقال : أخرج مالك والحقني . فقال : لأستطيع ، فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغنى الجنة — أو قال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب ، يقول أحدهم بالشرق : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب ، أحدهما : لدوا للموت وابنوا للخراب . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة ، بل لا يلة من الزهد في المال والجاء جميعا حتى يكل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة ، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهنئ إليهم مثل لباسهم ، أثلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقرها فيهدطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون نفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعملة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضائق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا تهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوا ما حالاً لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ؛ فإذا معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل .

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك : وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدير ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : ألم بماذا أفنى بهم الزهد؟ فقال : إلى الأتس بالله ؛ فأما الأتس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام :

اللهم إني أسألك إيماناً بياشراً قلبي .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس — وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه — وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً .

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان : أكان داود الطائي زاهداً ؟ قال : نعم . قلت : قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة ، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه ، وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجرون على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاطفه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال .

فإن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لغلبة الانس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها . وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال النصر آبادي : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة . وقال أيضاً الزاهد الله يسمطك الخل والخردل ، والعارف يسمك المسك والعنبر . وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضاً : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري : مارس كل شيء من أمر الزهد فذلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإن لم أبلغه ولم أطلقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشركه في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فللشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . الرافع السماء بغير عمد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعداء والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، ومامن دابة إلا على الله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قانع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقربين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ، والتناقل عنها بالسكينة طعن في السنة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل ، وانفاس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب هما شاهدوه من حيث استنطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل المقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات ، فقد قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وأعظم بمقام موسوم بحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه وعجه ومراعيه : فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب . وقال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل : هو المكذب لهذه الآية . فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذبجابه والتجأ إلى

ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر . حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه . وقال تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال عز وجل ﴿ والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهياتهم ، فقيل لي : أريت ؟ قلت : نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ، قال الذين لا يكتنون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة وقال . يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اجعله منهم ، فقام آخر فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : سبقك بها عكاشة ^(١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كبرزق الطير تفدون خاصا وتروح بطانا ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب : ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ^(٣) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه ^(٤) ، ويروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ، ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل ، قال عز وجل ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ^(٥) الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : لم يتوكل من استرقى واكتوى ^(٦) .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقدرى إلى النار بالنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أملك فلا ، وقام بقوله حسبى الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ أبرمى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيد السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار . فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب فأقسمت على أمي التسترين ، فساوت الراقي يدى لئى لم تلدغ .

(١) حديث ابن مسعود : أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل . . الحديث . رواه ابن منيع بإسناد حسن ، وانفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كبرزق الطير . . الحديث . أخرجه الترمذى والحاكم وصحاحه من حديث عمر ، وقد تقدم (٣) حديث : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة . الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ، ومن طريقه البيهقي الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يجمع منه ، وفيه إبراهيم بن الأشعث تسلم فيه أبو حاتم (٤) حديث : من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده . رواه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٥) حديث : كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ، ويقول : بهذا أمرني ربي . قال تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية . ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام لما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فبعد سماعه من جد أبيه . (٦) حديث : لم يتوكل من استرقى واكتوى . أخرجه الترمذى وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني والافظ له ، إلا أنه قال : أو من حديث المنيرة بن شعبة ، وقال الترمذى : من اكتوت أو استرقى فقد برئ من التوكل ، وقال النسائي : ما توكل من اكتوى أو استرقى .

وقرأ الخواص قوله تعالى ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ إلى آخره ، فقال : ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندي ولكن سأل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حبان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك لا تنفعها الموعظة . وقال بعضهم : متى رزيت بالله وكيفا وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من - علم هو الأصل و - عمل - هو الثمرة و - حال - هو المراد باسم التوكل .

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى لإيماننا فى أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك (له الملك) والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك (وله الحمد) فن قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) ثم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذا لم نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الحضم الذى لا ساحل له ، فنقول .

للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ونمثل ذلك تقريبا إلى الأنفهام الضمنية بالجوز فى قشرته العليا فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكراه كتوحيد المنافقين . والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان قائما عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ؛ فالأول موحد بمجرد اللسان ويمصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان . والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو هدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعفه

بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه للعقدة وشدّها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخلص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقده . والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العاصى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ؛ فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب . وكما أنّ القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مزلزلة ، وإن نظر إلى باطنه فهو كربة المنظر ، وإن اتخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ؛ لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت : والقشرة السفلى هى القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانسراح الصدر وانشراحه وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أفمن ﴾ شرح الله صدره للإسلام فهو عل نور من ربه ﴾ وكما أنّ اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

« فإن قلت . كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة : فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم أنّ هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن . وهو أنّ الشئ قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أنّ الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكمن شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع ، والمثلثات إلى الكثرة فى تفرقه ، فكذلك كل مافى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من

الاعتبارات واحد ، وباعتبارات آخر سواء كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والوجود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك . وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كاليرق الخاطف وهو الأكثر ، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار فقال : فيماذا أنت ؟ فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتوكلين ؛ فقال الحسين : قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ؟ فكان الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

هـ فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبنيا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول وهو النفاق فواضح وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى عالم الكلام ، وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل ، فلندكر منه القدر الذى يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم المنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصذك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسبيين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثانى الالتفات إلى الجمادات ، أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها : وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لمسا نجونا . ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه تالم يحرك محرك ، وكذلك محرك ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى المحرك الأول الذى لا يحرك له ولا هو متحرك فى نفسه عز وجل ؛ فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى الالتفات من أخذ لتحر رقبته فكاتب الملك توقيعا بالمغو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الخبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول . لولا القلم لمسا تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وإنما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والخبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك

الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فإذا انكشف لك أن جميع ما فى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان عاثبا وأيس عن مزج توحيده بك بهذا الشرك ، فأنتك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحزرقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حزن رقتك وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الأكترون إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط الثله مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود لليأس ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدةها ، فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض بقدرته التى بها نطق كل شىء حتى سمعوا تقديسها وتسييحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز بالأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد به سماع يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .

فإن قلت : فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة فى السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لثوم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار ملك قد نوحى بخفاياه فنادى بسرّه على ملا من الخلق ، ولو جاز لإفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) ، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يسيكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢) ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا » ، وإذا ذكر أسرارهم فأمسكوا (٣) ، ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فإذا من حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكننا فى المثال الذى كنا فيه - وهى حركة القلم -

(١) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث انتهى عن إفشاء سر القدر : رواه ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر « القدر سر الله فلا تخشوا الله عز وجل سره » لفظ أبى نعيم ، وقال ابن عدى « لا تسكروا فى القدر فإنه سر الله الحديث » وهو ضعيف ، وقد تقدم .

(٣) حديث « إذا ذكر النجوم فأمسكوا » ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث « أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء ، وعلقم فى العلم (٤) حديث : أنه خص حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ وزد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفاً وأصواتاً ، ولكن هي ضرورة التفهم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالخبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم يهودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد : ما أنصفتني في هذه المقالة ! فإني ماسودت وجهي بنفسى ولكن سل الخبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظليماً وعدواناً ! فقال : صدقت ، فسأل الخبر عن ذلك ؟ فقال : ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد ، واختطفني من وطني وأجلااني عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالتسؤال عليه لاعلى ! فقال صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب في ظله وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال : سل اليد والأصابع فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار متنزهاً بين خضرة الأشجار ، فجاءتني اليد بسكين فنهجت عني قشرى ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنايبي ، ثم برقت وشقت رأسي ، ثم غسقتني في سواد الخبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشي على قمة رأسي ، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، ففتح عني وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحماً يظلم أو جسماً يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر وكبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني ، وتجول بي في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدي الموق تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبينه القلم ، فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزججى من وكبني ، فقال صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدتها ، فقالت : دع عنك لومى وممانيتى ، فكف من لائم ملوم ، وكف من ملوم لا ذنب له ، وكيف خنى عليك أسرى ؟ وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راحة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا استسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنى ميتة أو معدومة ، لاني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزججى وأرهقني إلى ما تراه منى ، فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزججى من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأي ، فقال : صدقت ، ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاباً لم تجد عنه مخالفاً ولا مناصاً ، فقالت الإرادة : لا تعجل على فعل لى عذرا وأنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وبما أنبعت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب وسول العلم على لسان العقل بالإفخاص للقدرة فأشغبتها باضطراب فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأى جرم وقعت عليه وسحرت له وألزمت طاعته ، لكنى أفرى أنى فى دعة وسكون ما لم يرد على هذا الولد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته لإزاما ، بل لا يبق لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة ، لعمري مادام هو فى التردد مع نفسه والتخير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه أزججى بطبع وقهر تحت طاعته وأشغبت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك ،

فإني كما قال القائل :

مضى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً لإياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشغاف القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنقش نقش في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكأن هذا اللوح قبل خالياً عني ، فسل القلم عني لأن الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تمتنع السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكي كنت أطيب نفساً بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً لا في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال : فأما قولك : إنني خط ونقش ، وإنما خطي قلم فلست أفهمه ، فإنني لا أعلم قلباً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطاً إلا بالحبر ، ولا سراجاً إلا من النار ، وإنني لا أسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً : أسمع جمجمة ولا أرى طحناً : فقال له القلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة : فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو ورأى : فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله وفيه المهمة الفصح والجلال الشاهقة والبحار المفرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت : لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثبوتها ، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت ؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تمتنع ؛ وإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فالنصر ففقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقبنا لمشي على الهواء » (١) ، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيع هذه المهمة التي وصفتها أم لا ؟ فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحو فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

(١) حديث : قيل له إن عيسى يمشي على الماء ، قال « لو ازداد يقبنا لمشي على الهواء » تقدم .

الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقت ، فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأفلام ولا كلامه ، سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ، ولا قلبه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مختنبا بين لحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ؟ ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات وأخذت تتوقف فى يده وقلبه ولوحه وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكان مشبها مطلقا ، كما يقال : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكان منزها صرفا ومقدسا لخلا ، واطور الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تتأدى بما نودى به موسى ﴿ إني أنا ربك ﴾ فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مختل بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتة الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بمحدثه اشتعل زيتة فأصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه : ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكأن له فى كل قلب رأسا ولا رأس له ، فقضى منه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، لجراه الله تعالى عن خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم : فإنى أراه قلما لا كالأفلام ؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامى عندك ومرادى لك ، وأما عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات ؟ فقال : أرقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال : لجوابى مثله جوابه . قال : كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم : أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ؛ فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة . فقال : فن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ؟ قال : نعم . قال : والأفلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالإيمان ، ويد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع ؛ فرأى القلم محزوكا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ؟ فقال : جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لاحكم لها فى نفسها وإنما

محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقلت : إنما أنا صفة فأسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لأعلى الصفات ، وعند هذا كاد أن يريخ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء محجبات سرادقات الحضرة (لا يستل عما يفعل وهم يستلون) فغشيته هيبة الحضرة ، فخر صمعا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق قال : سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبتهل بين يديك ، فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأثني عليك ؛ فنودى من وراء المحجبات : إياك أن تطمع فى الثناء وتريد على سيد الأنبياء ، بل إرجع إليه فما آتاك نخذه وما نهاك عنه فانته عنه ، وما قاله لك فقله ؛ فإنه ما زادنى هذه الحضرة على أن قال : سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) ، فقال : إلهى ، إن لم يكن للسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك ، فنودى : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به ؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم ، أما سمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فيكيفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك عروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا ؛ فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذرى فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صحح عندي عنديكم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والمزية والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن ؛ فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخِر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؛ فالأول ليس بآخر ، والظاهر ليس بباطن ؛ فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى المراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت ، فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

« فإن قلت : قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يحسده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا ندرك بالحواس الخمس ، فلزموا - ضييع عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فإن قال : وأنا منهم قائل لا أعتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية لحواس الخمس ، فإنهم قالوا : ما نراه لا نثق به ، فلعلنا نراه فى المنام . فإن قال : وأنا من جملتهم فإنى شك أيضاً فى

(١) حديث « سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه ، فيترك أياماً فلائلاً ، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء : هذا حكم الجاحد . وأما الذى لا ييجد ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت ، فإن وجدوها صحيحة فى الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتفقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه ؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن فى عالم الشهادة أيضاً توحيداً ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأهوين ، فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد والمدير واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق مارآه فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللامق بقدرة عقله ، وقد كاف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم فى المخاطبة .

* فإن قلت : فتل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه ؟ فأقول : نعم ؛ فإن الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما لذى شاهد الطريق وسلوكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً ، كما أن الذى يرى إنساناً فى وقت الإسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً فى تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى ؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام أجواز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكبروا بقول فرعون ﴿ لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ بل ﴿ قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ فإن البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ونسوا أنه لا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً : فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافاً وتضاداً أصلاً .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهمما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخراً ؟ فأعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء ، لكان هذا منزلة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء وإن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه ، إذ لو كانت إليه لافترقت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن إليه المشيئة فهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقودورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى الخافقة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجرام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب . فهذا ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف

القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع .

فإن قلت : فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ أقول : لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكر متطفلاً وتاباً فإن هذا الكتاب لم يقصده إلا علم المعاملة ، ولكننى أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه ، إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويحرق الماء إذا وقف عليه بحسبه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً ، ونسمى تنفسه فعلاً إرادياً ، ونسمى كتابته فعلاً اختيارياً ، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الحرق بعد التخطى ضرورياً ، والتنفس في معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخرق الماء إلى ثقل البدن ؛ فهما كان الثقل موجوداً وجد الانخرق بعده وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الاجفان اضطراراً ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الاجفان اضطراراً فعل إرادى ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً . وأما الثالث - وهو الاختيار - فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة لا يشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه : أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك ، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ما قد يتردد العقل فيه ؛ فالذى يقطع به من غير تردد أن من يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدتك بسيف ، فلا يكون في عليك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلا جرم تنبعت الإرادة بالعلم . والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الاجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ، ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرك أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية ففكر حتى يميز أن الخير في الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية ففكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعت لدفع السيف والسنان ؛ فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير ، أى هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ، ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه ، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية ، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهى التى انبعثت بإشارة العقل فيما له إدراكه توقف ، وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ، ولا يتصور أن تنبعت الإرادة إلا بحكم الحسن والتخيل أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرق رقبته نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعت بحكم العقل أو الحسن بكون الفعل موافقاً ، وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا نطاق ؛ فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن

تردده بين شر الشرين ؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لاميلا فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالذى يتبع بالسيف للقتل فإنه يرى بنفسه من السطح مثلا وإن مهلكا ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فكلا ولا ، فإذا ن معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدث فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فإذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار في الإحراق مثلا جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ، لأنه لما كان فنا ثالثا وائتموافيه بكتاب الله تعالى فسماه كسبا وليس منافضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحوير وتردد ، فإن ذلك فى حقه محال ، وجميع الالفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن أن تسعمل فى حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه ،

• فإن قلت : فهما يقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله تعالى ، وإن أبديت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حواله جميع ذلك على معنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية ، وهو الأصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه إلا الرايخون فى العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والسكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للنخوص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يقدّم متقدّم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والزم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجاهدين - تعالى الله عن قول الجاهلن علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر إلا لا انتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس فى شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتبدير ، وتفهم ذلك عسير ، ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن

نقدر إنسانا محدثا قد انغمس في الماء إلى رقبته ، فالحديث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له ، فقدور القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه ، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث حقيقه ، إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاق لها لا بغسل الوجه ، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء . ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ، فلترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد ، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه ، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ! وما أعز حقيقة ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم .

« فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع : ومعنى التوحيد : أن لا فاعل إلا الله تعالى ؛ ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ؛ فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد ، وإن كان له معنيان ويكون الاسم بمجلا مردها بينهما لم يتناقض ، كما يقال : قتل الأمير فلانا ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخرع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخرع بالمخرع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا ؛ لأن القتل ارتباط بقدرة ولكن على وجهين مختلفين ، فلذلك سمي فعلا لها ، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال الله تعالى في الموت ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تمحرون ﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وحبنا ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وكان النافع جبريل عليه السلام ، وكما قال تعالى ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قيل في التفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى ﴿ قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين

القتل ، بل صرح وقال تعالى ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ﴾ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه : وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ وقال ﴿ عليه البيان ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ أفرايتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف ملك الأرحام : إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة فى يده ثم يصورها جسدا ، فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوج ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك ^(١) ، وفى لفظ آخر : ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة . وقد قال بعض السلف : إن الملك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ، ولذلك سمي روحا ، وما ذكره فى مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم ، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرّد ، وكذلك ذكر الله تعالى فى القرآن من الأدلة والآيات فى الأرض والسموات ، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة . فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربى ربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيى والمميت ، ثم فوّض الموت والحياة إلى ملكين ، فى الخبر : أن ملكى الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحيى الموتى ، فأوحى الله تعالى إليهما : كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع ، وأنا المميت والمحى لا يميت ولا يحيى سواى ^(٢) ، فأذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الذى ناوله النمرة : خذها ، لو لم تأتها لأنتك ^(٣) ، أضاف الإتيان إليه وإلى النمرة ، ومعلوم أن النمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها ، وكذلك لما قال النائب : أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : عرف الحق لأهله ^(٤) ، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ، ومن أضافه إلى غيره فهو المنتجوز والمستعير فى كلامه ، وللمنتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهها ، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه لتحقيق ، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلال ، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس

(١) حديث : وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا . . الحديث ، رواه البخاري وابن عدى من حديث عائشة : إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يمت ملكا فيدخل الرحم فيقول : يارب ماذا ... الحديث ، وفى آخره : فما من شيء إلا وهو يخلق معه فى الرحم ، وفى سنده جهالة . وقال ابن عدى : لأنه منكر ، وأمله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه . (٢) حديث : إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحيى الأموات ، فأوحى الله إليهما : أن كونا على عملكما ... الحديث ، لم أجده أصلا . (٣) حديث : قال الذى ناوله النمرة : خذها لو لم تأتها لأنتك . أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح . (٤) حديث لأنه قال لذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد : عرف الحق لأهله ، تقدم فى الركاة .

وقالوا : إنَّ الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالجاز . أى تتجوز به عما وضعه اللغوى له ، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أصدق بيت قاله الشاعر قول أبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (١) ، أى كل ما لا قوام له بنفسه - وإنما قوامه بغيره - فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه ، فإذا نحن لاحق بالحقيقة إلى الحى القيوم الذى ليس كمثل شيء ، فإنه قائم بذاته وكل ما سواء قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواء باطل ، ولذلك قال سهل : ياهمسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا : كن الآن كالم تكن فإنه اليوم كما كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن السكل جبر ، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريقين المكاشفين فيه تطول ، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه . وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخاق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعزفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بل به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى ، وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية ، بل كل فقر وضرر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره ، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة ، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء

(١) حديث « أصدق بيت قالته العرب بيت أبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « قاله الماعر » وفى رواية لمسلم « أشعر كلمة تكلمت بها العرب » .

أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر في التفاوت الذى بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكشفون .
والحاصل أن الخير والشر مقضى به ، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ، وانرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثانى من الكتاب

في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيّل ، وبيان التوكل بقدر الادعاء وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم .

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرة ، وقد أكثر الخائفون في بيان حد التوكل واختلقت عباراتهم ، وتسكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ، ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكل إليه وكيلاً ، ويسمى المفوض إليه متمكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يهتم فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكّل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الخيل شيء أصلاً . وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يحزن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به : وأما الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجراً القلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر

عليه في حقه من المجهود ، فإن قدرته لا تغنى دون العناية به إذا كان لايهمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك ؛ فإن كان شاكا في الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسمى لجمع الحلال والحرام لاجله ، فإنه يحصل له يقين بمتى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت في نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بحملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لاحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيب أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين ، فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جمد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادراً عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه ، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعه الميت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات ، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعيف قلبي يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه ، فإذا لم يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ فالتمس أن يكون مشاهداً لإحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً ، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإن اليهودى مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه ، فإذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب ، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى ؛ وقد قيل : مكتوب في التوراة : ملعون من ثقتي لإنسان مثله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١) » ، وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلًا فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ما ذكرناه : وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الثانية) وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أمه ، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعه ، فإنه قد وثق بكفالاتها وكفائتها وشفقتها ثقة ليست محالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوب بتفصيل هذه الحاصل لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كما يكاف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً : فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فتى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكاف والكسب وليس قائماً عن توكله لأن له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانى . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهي أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى في حركانه وسكنانه مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كلاً يحدث جبراً فيكون باثماً عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزغق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفتحه وتسقيه ، وهذا المقام فى التوكل يشترط الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط .

« فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثانى والثالث أعزها ، والأول أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثانى فداومه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجع ، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض ، كما إن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والوجع عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تمنحى عن ظاهر البشرة الحرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإن البشرة ستر رقيق تراه من وراء حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم ، وكذا انقباض القلب بالسكينة عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

(١) حديث « من اعتز بالعبيد أذله الله » أخرجه العقيلي فى الضعفاء ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر ، أورده العقيلي فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى وقال : لا يتابع على حديثه ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : يخالف فى روايته .

* فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم إنَّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمجهول . والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسننه دون صريح إشارته ، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه ، إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسه له ؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر ؛ فقوله وأما المعلوم من عاداته واطراد سننه : فهو أن يعلم من عاداته أن لا يحتاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه : أن يكون معولاً على سنته وعاداته ووافياً بمقتضاها : وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاطبته ؛ فإذا لم يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسننه وعاداته وقعد ناظراً إلى حاجته فقد يمتدحى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهول المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة ، وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسننه ، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري ، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال ، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى ؛ فإذا لم يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إنَّ الوكيل جعله معتمداً لحاجته ، وعرفه ذلك بإشارته وسننه ، فإذا لا حول ولا قوة إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته ، بل هو جاعل لها مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذا لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً ، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ^(١) ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات وإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوبها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوبها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى ، إذ في هذه الكلمة إضافة إلى شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه ، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولين ، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرخوا إلى اللين ، وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات .

صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة ^(١) ، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمعاد به المقيد بالعمل الصالح ، فالملك لا يتأل بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس ، وإنما الصدق والإخلاص وراهما ، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلا بالملك ، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقررين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحدود العيون ، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك ، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ، ولو كان لهذه الذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة ، أفترى أن أحوال البهائم - وهي مسيبة في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد - أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوبة - من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين ، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حارا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام ! وليس يخفى أن شبه كل شيء ، منجذب إليه ، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب ، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة ، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففي قوته ذلك ، والتقدير على نيل الكمال أخرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال . وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) وإن من ليس قائلًا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل .

• فإن قلت : ليس في قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله ، فلو قال قائل ، السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا ، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين بل هما من خلق الله تعالى ، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدّة نظره ، فهى مهلكة خطيرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى ، فن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان (إحداها) النظر

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله صادقًا مخلصًا من قلبه وجبت له الجنة » رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم ، وأبو هريرة ، وقد تقدم .

إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها ؛ فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان مآقاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أنَّ شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال ، فقد قال أبو موسى الدبلى : قلت لأبي يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث ، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً فى المقام الأول من التوكل ؛ فقد احترز أبو بكر رضى الله عنه فى الغار إذ سد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : إنما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه ، وللنظر فى هذا مجال ، ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله ، فإن احترز لم يكن اتكاله على تديره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصرى عن التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب ، فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقليل له : زدنا ! فقال : إلقاء النفس فى العبودية وإخراجها من الربوبية ، وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط .

وسئل حمدون القصار عن التوكل ؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دائق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تياس من الله تعالى أن يقضيها عنك ، وهذا إشارة إلى مجزء الإيمان بسعة القدرة ، وأن فى المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ؟ فقال : التعلق بالله تعالى فى كل حال ، فقال السائل : زدنى ! فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثانى إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سبباً يفضى إلى سبب وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره ،

(١) حديث : إن أبى بكر سد منافذ الحيات فى النار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم . تقدم .

وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعر .

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثاني ، فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلى فزعه إليه وابتئاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو علي الدقاق . التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد ، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك ؛ وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلان طولها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل ، فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم بورث الحال ، والحال يثمر الأعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأمير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالاتخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فقصد حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

(الفن الأول : في جاب النافع) فقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

(الدرجة الأولى) المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيدته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكذك لست تمتد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعلى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شعا دون الخبز ، أو يخلق في الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى مودتك : فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام : فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثُر ولا يمكن إحصاءه ، أليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنمان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج ؟ وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعمل على حصول الطعام ، وربما يسلط الله تعالى

من يغلبك عليه أو يبعث حية تزججك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول ، فإذا كان هذا حاله وعليه فليمدد اليده فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا في التوكل ، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص .

• فإن قلت : فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها وسقواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترئ به فيحميها به بجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعول الخواص ونظرائه من المتوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول : هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير ذو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ؛ فإن المسافر مع حارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي ، فبكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية . لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام مضوغا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه ، كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي ، ففقد سبعة فكاد يموت ولم يأتته رزق ، فقال : يارب إن أحبيتي فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك ، فأوحى الله جل ذكره إليه . وعزتي لأرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقع بين الناس . فدخل المصروقة ، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه . أردت أن تذهب حكتي بزهدي في الدنيا ! أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذا التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب .

فإن قلت: ما قولك في الفعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أم مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه كفعول صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر يمكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت: فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا يميت إلا الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال»^(١) وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكثرون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوسطة (الدرجة الثالثة) ملازمة الأسباب التي يتوهم لإفصاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي فيه الناس كلهم: أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والسكى بالإضافة إلى إزالة الضرر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا، بل يصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير وقال: إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجبهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذا قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات

(١) حديث «لو توكلتم على الله حق توكله... الحديث» وزاد في آخره «ولزالت بدعائكم الجبال» وقد تقدمت قريبا دون هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه ابن «لوعرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسل دون قوله «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا ، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

(الأول) مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذى يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسنوبا وما فرقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده .

(المقام الثاني) أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ، لكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا يخرج به أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة ، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يرى كسبه وبضاعته وكمايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع ، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ؟ وإلى ماذا يميل ؟ وبم يحكم ؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفترق على المساكين فهو بيده مكتسب وبقبله منه منقطع ؛ لحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته ، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذاً بالاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حتى كرمه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقتت الخلافة النبوة ؟ فقال : لا تشغلوني عن عيالي فإنى إن أضعتهم كنت لما سوام أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق في مقام التوكل أفن أولى بهذا المقام منه ؟ فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد - وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق : كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافعا ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول : أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم ، كنوكل المكتسب ؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل

لإيهم فهذا أقوى في توكلهم ، لكنه بعد اشتها القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

• فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد في بيته ، أويخرج ويكتسب ؟ فأعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والائتكال على الله تعالى ، فاقعود له أولى . وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فرد ، فلما ولي قال له أحمد : الحقه وأعطه فإنه يقبل ، فلحقه وأعطاه فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال : كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو عاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره : رأيت الخضر ورضي بصحبي ولكني فارقت خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلي ، فإذا اكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته . كفايته كان متوكلا .

• فإن قلت : فاعلامه عدم انكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرق بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا ، فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البعادي كاتبه قال : بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل ، أرايت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل : تركها لما نوهت باسمه رقصد لاجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله ، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فزقها .

• فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرت وهلك فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيره في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ، ففي الخبر « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة بما لو فعله لسكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجواره وابن عمه : من سبقني ؟ من دهاني ؟ وماهي إلا رحمة رحمه الله بها (١) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا : فإنني

(١) حديث « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة بما لو فعله لسكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ... الحديث » أخرجا أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه ، إلا أنه قال « إن العبد ليصرف على حاجة من حاجات الدنيا ... الحديث » بنحوه .

لا أدري أيهما خيري ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شمت منه رائحة ، هذا كلامه مع علق قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أفصاه ، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمتع به العبد : لم يكمل حال التوكل ؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور - كما سبق - وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد .

فإن قلت : فهل من دواء يذتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى فى تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماح تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلمين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل ، فقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً ، فقال فى الرابعة : يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليت بها خالفك ثم أجيبك .

وينمى حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية : أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى فى إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا ، كما روى عن حذيفة المرعى وقد كان خدام إبراهيم بن آدم ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا فى طريق مكة يا ما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : يا حذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس ، لحثت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكأن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر غيبك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال : اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت فأول من لقيني كان رجلا على بغلة . فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو فى المسجد القلانى ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة

فقال : هذا نصراني ، لجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يحىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا ، لحدثني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعل أجد شيئا يسكن ضعفى ، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها ، فوجدت في قلبها منها وحشة وكان قائلا يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت ، فإذا أنا برجل أجمى قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قطرة وقال : هذه لك ، فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال : اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الفرق ، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت أول من أقيته ، فقلت : افتحها ، ففتحها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كماب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقات رد الباقي إلى أصحابك هدية منى إليكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي .

وقال بمشاد الدينورى ، كان على دين فاشتغل قلبى بسببه ، فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : يا بخیل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الآخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا فصايا ولا غيرهما . وحكى عن بنان الحمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ؛ فجاءتنى امرأة وقالت لى : يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتهم أنه لا يبرز فك ، قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسي : أحمله حتى يحىء صاحبه فربما يعطينى شيئا فأرده عليه ، فإذا أنا بذلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يحىء صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكنتيت بها إلى قريب مكة .

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه لجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يحىء النفير فاشتري ما يوافق ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها . بكم هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، لحملت إلى بنان وذكرته له القصة .

وقيل : كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعهم قرص فقال : إن أكلته مت ، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد فمررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فخرت لنفسي في الرمل جفرة وأريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ، إن الله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقامل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتملم القرآن فإنه سيفنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة ، فجاءه عمر فقال له . لى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عني ؟ فقال : لى قرأت القرآن فأغنانى

عن عمر وآل عمر، فقال عمر . رحمة الله فإلذى وءءء فىه ، فقال وءءء فىه ﴿ وفى السماء رزقكم وما ءوءءون ﴾ فقلت رزق فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فبكى عمر وقال ، صءءء ، فكان عمر بعء ذلك يأءه وءءلس إلهه ،

وقال أبو حمزة الخراسانى : ءءءء سنة من السنين فبئنا أنا أمشى فى السرىق إء وءءء فى بئر فنازعنى نفسى أن أسءفئف ، فقلت لا والله لا أسءفئف ، فما أسءءءء هذا الخاظر ءقى مربرأس البئر رجلا ن ، فقال أءءءما الآخر ءعالى ءقى نساء رأس هذا البئر إءلا ففء فىه أءء ، فأءوا بقصب وبارفة وطءوا رأس البئر ، فءءءء أن أصفف فقلت فى نفسى : إله من أصفف هو أقرب منهما وسكءء فبئنا أنا بعء ساءة إء أنا بشىء ءاء وكشف عن رأس البئر وأءلى رجله وكأءه فقول ءعلق بى فى مءممة له كءء أءرف ذلك ، فءعلقء به فأءرجنى ، فإءا هو سبء ، فءر وءءف بى ءائف : يا أبا حمزة ألس هذا أءسن ، نءفناك من ءءلف بالءلف ، فشئء وأنا أقول :

نءانى ءفائى منك أن أكشف الهوى وأءفئئى بالفهم منك عن الكشف
ءلطفء فى أمرى فأبءئء شاهءى إلهى ءافئى واللطف فءرك باللطف
ءراءئء لى بالءفب ءقى كأءما ءبشرفى بالءفب أنك فى الكف
أراك وبى من هفبى لك وءشة فءؤنسئى باللطف منك وبالعطف
وءءفب ءءبا أنت فى الءب ءءفه وءا نءبب كون الءفاء مع الءءف

وأءال هذه الوءائء مءا فءر ، وإءا قوى الإفمان به وانضم إلهه القءرة على الءوع قءر أسبوع من ءفرضفق صءر ، وقوى الإفمان بأءه إن لم فسق إلهه رزقه فى أسبوع فالوء ءفر له عءء الله عز وءل ولءلك ءبسه عنه : ءم ءوكل بهءه الأءوال والمشاءءاء ، وإلا فلا فءم أصلا .

بفان ءوكل المعفل

اعلم أن من له عفال لءكمه ففارق المنفرء ، لأن المنفرء لا ففص ءوكله إلا بأمر من (أءءءما) قءرءه على الءوع أسبوعا من ءفر اسءشراف وضمفق نفس (والآءر) أبواب من الإفمان ءكرناها ، من ءءءها : أن فطفب نفسا بالموء إن لم يأءه رزقه ، علمسا بأن رزقه الموء والءوع ، وهو إن كان نقصا فى ءءفا فهو زفاءة فى الآءرة ، ففرى أنه سفق إلهه ءفر الرزقفلن له : وهو رزق الآءرة ، وأن هذا هو المرص الذى به فموء وفكون راضفا بءلك وأنه كءا قضى وقءر له ، وهذا فءم ءوكل المنفرء ، ولا فءوز ءكففب العفال الصبر على الءوع ، ولا فمكن أن فقرر عءءم الإفمان بالءوءفء وأن الموء على الءوع رزق مءبوء علفه فى نفسه إن انفق ءلك ناءرا ، وكءاسائر أبواب الإفمان ، فإءن لا فمكنه فى ءقهم إلا ءوكل المكسب وهو المقام ءااء ، كءوكل أبى بءكر الصءفب رضى الله عنه إء ءرف لكسب ، فأما ءءول البواءى وءرك العفال ءوكلا فى ءقهم أو الصوء عن الاءءام بأمرهم ءوكلا فى ءقهم فهذا ءرام ، وقء ففضى إلهى هلاكهم وفكون هو مؤاءءا بهم ، بل ءءقفق أنه لافرق بفنه وبفن عفاله ، فإنه إن ساءءه العفال على الصبر على الءوع مءة وعلى الاءءاء بالموء على الءوع رزقا وءفمفة فى الآءرة ، فله أن فءوكل فى ءقهم ونفسه أفضاعفال عءءه ، ولا فءوز له أن فضعفها إلا أن ءساءءه على الصبر على الءوع مءة ، فإن كان لا فطفقه وفضطرب علفه قلبه وءءشؤش علفه عباءءه لم فءن له ءوكل ، ولءلك روى أن أباءراب النءشبى نظر إلهى صوفى مءفءه إله قشر بطفخ لفأكا به ءءءة أفاء . فقال له . لا ففص لك ءءصؤف . الزم السوق أى لا ءصؤف إلا مع ءوكل .

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أما جائع فألزموه السوق ومروء بالعمل والتكسب ، فإذا بذنه عياله وتوكله فيما يضر يدينه كتوكله في عياله ؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد : وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاجتهاد على الصبر على الجوع مدة الرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الامصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه ، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمتنع به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرعاية مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدّر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ إذا صار بحيف يرافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، لجنه بعد البلوغ جهل يحض لأنه ما نقصت أسباب معيشته يبلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سبط الله الشفقة والمودة والرحمة والرفقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بحاجة تأم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فصاروا محنجا ، ولو رأوه يقيم لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفونوه ، فما روى إلى الآن في سني الحصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم ؟ فينجبر ضعف شفقة الآحاد بدثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

• فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون : هو مثلنا فليجهد لنفسه ؟ فأقول : إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل من مقامات الدين يستعان به على التفويض لله تعالى ؛ فما للبطل والتوكل ؟ وإن كان مشغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إياه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا يغلّ الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فأت جوعا ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدّر عليه ، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تديرا كافيا لأهل الملك والملكوت . فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمذبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مادبره تديرا يصل إلى المشتغل به الحلول والطيور السمان والثياب الرقيقة والحيول النفيسة على الدوام لا محالة ، وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشغول بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة ، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا ، وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب : فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب ؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي ، وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك . فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين : الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما ؛ فإذا عليك بالقناعة بالزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأملك لا محالة وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقه على يدي من لا تحسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحسم الطير ولذائد الأطمعة ؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضمأن واطمأن إلى ضمأنه ؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء . قال الله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأسرار السماء لا يطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال : إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله . قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، فقالوا : ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون . فقال : التوكل على التجربة شك . قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى

الخزاز : كنت في البادية فالتى جوع شديد فغلبتني نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتنى أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيع من أنانا
ويسألنا على الإقتار جهدا كآنا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجنين باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمئن النفس أبداً واثقا بالله عز وجل ، فإن أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا فإنه تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذي ضمن رزق القائمين بهذه الأسباب التى دبرها صادق ، فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ، ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم ، والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البرادى بلا زاد أو يقعد فى الأمصار وهو حامل . وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أضعافه ، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الحامل مع الاكتساب ، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن : فإن الكسب يمنع عن السير بالفسكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ، ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحق المرزوق والعاقل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه : فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهم البهائم

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين ورغيفين وبعضهم رغيفا ورغيفا ويحتدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم ، وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلاني إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم : فن تعلق بالغلان وأآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أمناه من يد الغلام وهو ساكن فإنى أختصه بخلمة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ، ومن أخطأ غلاني فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان

ولا قائلا ليه أوصل إلى رغيفا فإني غدا أستوزره وأفوض ملكي إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يفتوا إلى العقوبة الموعودة ؛ وقالوا : من اليوم إلى غد فرج ! ونحن الآن جائعون فبادرنا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبغت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلبوا من العقوبة وما فازوا بالخلعة ، وقسم قالوا : لئنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحدا ونقتنع به ؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة ؛ وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا : إن اتبعونا وأعطونا قنعا برغيف واحد ، وإن أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة ، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذ اتبهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا ، وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش ، فباتوا في جوع شديد ، فقال اثنان منهم : ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطبق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميدان هو الحياة في الدنيا ، وباب الميدان الموت ، والميعاد المجبول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة المتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب ، والغلمان المسخرون هم الأسباب ، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الامصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والاختفون في الزوايا هم "سائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تدبهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور ، فإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، وأهل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الامصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتبارهم ، وساح في البوادي ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة ، وأما الآن فالنارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

(الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار) فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب ، فله في الادخار ثلاثة أحوال (الأولى) أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعا ، ويلبس إن كان عاريا ، ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ، ويفرق الباقي في الحال ، ولا يأخذه ولا يتخذه إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيتخذه على هذه النية ، فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا (الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يتخبر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا ؛ وقد قيل . لا يتخبر من الحيوانات إلا الثلاثة : الفأرة ، والنملة ، وابن آدم (الحالة الثالثة) أن يتخبر لأربعين يوما فما دونها ، فهذا : هل يوجب حرمانه من المقام المحمود المرعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه : فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكي : لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا ، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلك الرتبة لها بداية

ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا ؛ بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالممتنع وجوده ؛ أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لاحصر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود من يؤمل سنة ، وتقبيده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام : بعيد ؛ فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعد كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام : « إن الله خير طينة آدم بيده أربعين صباحا » (١) ، لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ماذكر ، فإذا ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقد روى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه : « إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية ، قلنا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « كان صقوما قواما كثيرا الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « بل أقل ما أوثقتهم اليقين وعزيمة الصبر » (٢) ، الحديث ، وليس السكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدرام في معنى ذلك ، فإن ادخاره لا ينقص الدرجة ، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق ، فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى ، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالديان في عينا غير مخدورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التجار بترك تجارتهم ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لها بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ،

(١) حديث « خير طينة آدم بيده أربعين صباحا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وساندان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل .

(٢) حديث : « أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسلاه وكفناه ببردته : أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ... الحديث . وفي آخره « من أقل ما أوثقتهم اليقين وعزيمة الصبر » لم أجده أصلا ، وتقدم آخر الحديث قبل هذا .

وهذا كله حكم المنفرد؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوة التوكل، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعياله قوت سنة^(١)، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لئلا يفتقر،^(٢) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنفق بلالا ولا تحش من ذي العرش إقلالا»^(٣)، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تجبأ»^(٤)، اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد كان تصراً مملو بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول: «ما يدري لعل لا أبلغه»^(٥)، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لو أخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا يثق بما ادخره، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلماً للأقوياء من أمته، فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته، بل أخبر: «إن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتي عزائمه»^(٦)، تطيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركوا الميسور من الخير عليهم بمعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم عليه اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «فتشوا ثوبه، فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره» فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيتان»^(٧)، وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى: ﴿تسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس (والثاني) أن لا يكون ذلك عن تلبيس، فيكون المعنى به نقصان عن درجة كاله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبيس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن التدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روى عن بشر: قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع إلى كفا من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط

(١) حديث: ادخر لعياله قوت سنة، متفق عليه، وتقدم في الزكاة. (٢) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لئلا يفتقر. (٣) حديث: نهى بلالا عن الادخار وقال: «أنفق بلالا ولا تحش من ذي العرش إقلالا». رواه ابن ماجة من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال: دخل عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده صبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة، وكلها ضعيفة. وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز، فلم أره.

(٤) حديث قال بلال: «إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تجبأ». رواه الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة. (٥) حديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بال تيمم مع قرب الماء ويقول: «ما يدري لعل لا أبلغه». أخرجه ابن أبي الدنيا في نصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف. (٦) حديث: «إن الله يحب أن تؤتي رخصه... الحديث». أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم. (٧) حديث أبي أمامة: توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخله إزاره، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كيتان». رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه.

مثل ذلك ، قال : فجئت بالطعام فوضعتہ فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير ، فأخذ الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ، فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لي بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلننا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

(الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف) اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً ؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منتهى عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة ، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية ؛ فإن السكى والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور الإزالة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تبيها لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الجبة ، وترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى ﴿ فأتخذوا كميلا وصابروا ﴾ (فأتخذوا كميلا وصابروا) وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما آذيتنونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وقال تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وهذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعاقته على الدين ، وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب المنافع فلا تطول بالإعادة ، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال ، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله ، اهقلها وتوكل ^(١) ، وقال تعالى ﴿ خذوا حذرکم ﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ فأسر بعبادى ليلا ﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر ^(٢) ، وأخذ السلاح في الصلاة فليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذي يقتضى التوكل تركه .

« فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول : وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغي أن يفتر ذلك المقام ؛ فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء

(١) حديث « اهقلها وتوكل » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، قال يحيى التيطان : منكر . ورواه ابن خزيمة في التوكل ، والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد « قيدها » . (٢) حديث : اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعين الأعداء دفعا للضرر ، تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .

• فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها ؟ . فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو مملوك في إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك ، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخراً لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخراً لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك ، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطلع في استسغار الكلب الظاهر .

• فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدو وأغلق بابه حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق ، فبأى اعتبار يكون متوكلاً فأقول : يكون متوكلاً بالعلم والحال ، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ؛ فكأن من باب يغلق ولا ينفج ، وكأن من بعير يعقل ويموت أو يفات ، وكأن من أخذ سلاحه يقتل أو يغلب ؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب ، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه ويحمله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول : اللهم إن سلطت على مافي البيت من يأخذه فهو في سبيك وأنا راض بحكمك ، فإن لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدري أنه رزق أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصناً من قضايتك وتسخطاً له ، بل جرياً على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب ؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه عليه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى ، وإن لم يجد بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك عالمًا أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل ؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على العكس منه ، فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس ، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه ، فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبته في جميع الدعاوى ؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها ؛ فإنها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير .

• فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت ، وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله ، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في

المأكل وفي كل مال زائد على قدر الضرورة ؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع ، والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ، ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين .

« فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتبه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإن كان أمسكه لأنه يشتبه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتبهه ؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر ؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به ، فيقول : لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني ، فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا ، وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قرّبه إلى ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه ، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدرى أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ؛ فإنني لا أدرى أيهما خير لي ؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالى المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدرى أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان أو كم من غنى يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتي كنت فقيرا !

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتناسك من الجيران الحفظ مع الغلق ، وجمعه أغلاقا كثيرة ؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول : لولا السكّاب ما شددته أيضا (الثاني) أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السارق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال : خذها لا حاجة لي إليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس إلى العدو أن اللص يأخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق ؛ ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما يضطر إلى تركه في البيت يذبح أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو في سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (أحدهما) أن يكون

(٣٦ — إحياء علوم الدين — ٤)

ماله مانعا من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل (والثانية) أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لما لم يسلم آخر ، ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوى دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصبح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصرا أخاك ظالما أو مظلوما »^(١) ، ونصر الظالم : أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه لإعدام للظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي . ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعائة درهم لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأفق النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) ، لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه ، فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل ، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد عليه ، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل ، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين .

وقد روى أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال . في سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين لجماء رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك في مكان كذا فلبس لعله وقام ، ثم قال : استغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال : إني كنت قلت في سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وأدخلني الجنة وعرض على منازل فيها فرأيتها ، قال : وهو مع ذلك كئيب حزين ! فقلت : قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ! فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إني لأزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت : ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى منادى من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل ، فقلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشئ إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيتنا لك .

وحكى عن بعض العباد بمسكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فاندبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له ، لحمله من البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعليه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب ، فأبى وقال خذه حلالا طيبا ، فساكنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنه وجعل يصصره صررا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء .

فهكذا كانت أخلاق السلف ، وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر ، وكذلك يفعل في الدراهم والدينارين وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات

(١) حديث « انصرا أخاك ظالما أو مظلوما » متفق عليه من حديث أنس ، وقد تقدم . (٢) حديث « من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجد له أصلا .

أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فيما أصيب به ؛ ففي الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر »^(١) . وحكى أن الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى ، فلم يقطع صلاته ولم ينزع لطلبه ، فجاءه قوم يعزونه فقال : أما إني قد كنت رأيته وهو يحمله : قيل : وما منعك أن تزجره ؟ قال : كنت فيها هو أحب إلى من ذلك - يعنى الصلاة - فجعلوا يدعون عليه فقال : لا تفعلوا وقولوا خيرا فإني قد جمعتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ! قال : ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه . قيل : أرايت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولا أنظر إليه لاني كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ما ظلمني أحد ، ثم قال : إنما ظلم نفسه ، ألا يكفيه المسكين ظم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال : لا تغرق فى شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج من اتهمك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .

وفى الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يسكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتصر له من المظلوم »^(٢) ، (السادس) أن يقيم لأجل السارق وعصيانته وتعرضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقضا فى دنياه لانتقاصه دينه ، فقد شكى بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين .

وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن ، فقال : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا والله ولكن على المسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة .

وقيل لبعضهم : ادع على من ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه ، فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

(الفن الرابع : فى السعى فى إزالة الضرر كدواوة المرض وأمثاله) اعلم أن الأسباب المزيل للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالسكى والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين ، وأقواها السكى ، وبأية الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص فهى على درجة بين الدرجتين ، ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » تقدم . (٢) حديث « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة . . . الحديث » تقدم .

وسلم وقوله وأمره به ؛ أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام »^(١) ، يعنى الموت . وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء »^(٢) . وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هي من قدر الله »^(٣) ، وفى الخبر المشهور « ما مررت بملا من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة »^(٤) ، وفى الحديث أنه أمر بها وقال « احتجروا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيخ بكم الدم فيقتلكم »^(٥) ، فذكر أن تبخير الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفى خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة »^(٦) ، وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحجامة ^(٧) ، وقطع لسعد بن معاذ عرقا ^(٨) أى فصدته ، وكوى سعد بن زرارة ^(٩) ، وقال لعلى رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين « لا تأكل من هذا ، يعنى الرطب وكل من هذا فإنه أوفى لك »^(١٠) ، يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرأ وأنت أرمء » فقال : « إني آكل من الجانب الآخر » فتبسم صلى الله عليه وسلم ^(١١) . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى فى حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ^(١٢) قيل : السنة المسكى .

(١) حديث « ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام » رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود دون قوله « إلا السام » وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله « عرفه ... إلى آخره » وإسناده حسن ، وللترمذى وصححه من حديث أسامة بن شريك « إلا الهرم » والطبرانى فى الأوسط والبخارى من حديث أبى هريرة « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » ولمسلم من حديث جابر « لكل داء دواء » . (٢) حديث « تداووا عباد الله ... » رواه الترمذى وصححه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة ابن شريك . (٣) حديث : سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال « هي من قدر الله ... » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى خزامة ، وقيل من أبى خزامة عن أبيه ، قال الترمذى : وهذا أصح . (٤) حديث « ما مررت بملا من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة » رواه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ، ورواه ابن ماجه من حديث أس بن سند ضعيف . (٥) حديث « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ... » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ، ورفع الترمذى بلفظ « أن خير ما يحتجون فيه سبع عشرة ... » الحديث « دون ذكر التبخير » وقال : حسن غريب ، وقال البخارى : لأن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ، ولابن ماجه من حديث أس بن سند ضعيف « من أراد الحجامة فليحتج ساعة عشر ... الحديث » .

(٦) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » رواه الطبرانى من حديث معقل بن يسار ، وابن حبان فى الضعفاء من حديث أس وإسنادهما واحد اختلف على راويه فى الصحاح ، وكلاهما فيه زين العمى وهو ضعيف . (٧) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعرابي حين سأله « تداووا ... الحديث » وسأني فى قصة على وصهيب فى الحجامة بعده . (٨) حديث : قطع عرقا لسعد ابن معاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : روى سعد فى أحسنه غصمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقه . . . الحديث . (٩) حديث أنه كوى سعد بن زرارة ، رواه الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ، ومن حديث أبى أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . (١٠) حديث قال لعلى وكان رمد « لا تأكل من هذا ... » الحديث « رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم المنذر . (١١) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرأ وأنت رمد ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان . (١٢) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدى من حديث عائشة وقال : إنه منكر ، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين .

وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها ^(١) . وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالخناء ^(٢) . وفي خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء ، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا ^(٣) ، وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات ؛ أن موسى عليه السلام اعتل بعله فدخل عليه بنو إسرائيل فعرّفوا علته ؛ فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء ، فطالت علته فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، ولنا تداوى به فنبأ ، فقال : لا أتداوى ، وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزني وجلالي لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم ، فداووه فبرأ ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟ .

وروى في خبر آخر أنّ نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاة علة يمجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة ، قيل هو الضعف عن الجائع . وقد روى أنّ قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم ، فأوحى الله تعالى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبلى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد ، وقد كانوا يطعمون الحلبى السفرجل ، والنفساء الرطب .

فهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأشياء ، فمما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص ، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول (والثاني) أن الدواء يسجل ، والسكنجيين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبداً في عصر في هذين الشئتين ، ولألا فالمسبب يتلو السبب لاحتالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره ، وترتيبه بحكم حكته وكأله قدرته ، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء ؛ فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ، من الداء والدواء ؟ فقال تعالى : مني . قال : فما يصنع الأطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس

(١) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها ، رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جبة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فندى عليه فرقاها "ناس... الحديث ، وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تجمّع كفا من شحونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ، ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم ، وفيه جابر الجعفي ضمه الجمهور .

(٢) حديث : كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فينلفه بالخناء ، أخرجه البزار وابن عدى في السكامل من حديث أبي هريرة ، وقد اختلف في إسناده على الأحوس بن حكيم : كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء ، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذي : غريب . (٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان إذا اشتكى الإنسان الذي منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم يده هكذا ، ووضع سفيان بن عيينة الراوى سببته بالأرض ثم رفعها وقال « بسم الله تربة أرضنا وريجة بعضنا يشفي سقمنا » .

عبادى حتى يأتى شغائى أو قضائى ؛ فإذا نى التوكّل مع التدأوى التوكّل بالعلم والحال ، كما سبق فى فنون الأعمال المدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التدأوى رأسا فليس شرطا فيه .

« فإن قلت : فالكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول : ليس كذلك ؛ إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للحرور . وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقبلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه إحراق النار فى الحال مع تنفّاء عنه فإنه مامن وجع يعالج بالكى إلا وله دواء يغنى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح مخزّب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يستمسكها غيرها ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى (١) . وكل واحد منهما بعيد عن التوكّل . وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع ، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى ، فكان يقول . كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة ، فلما اكتويت انقطع ذلك عني ، وكان يقول اكتونيا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى عليه ما كان يحسد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى الملائكة التى كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بفقدها ؛ فإذا الكى وما يحسرى بحراه هو الذى لا يليق بالتوكّل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان أن ترك التدأوى قد يحمّد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكّل

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تدأوا من السلف لا ينحصر ، ولكن قد ترك التدأوى أيضا جماعة من الأكابر ، فربما يظن أن ذلك نقصان ، لأنه لو كان كالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يكون حال غيره فى التوكّل أكمل من حاله .

وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال : إني فعال لما أريد . وقيل لآبى الدرداء فى مرضه : ماتشتكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فأتشتفى ؟ قال : مغفرة ربى . قالوا ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضى . وقيل لآبى ذر وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ؟ قال : إني عنهما مشغول ؛ فقيل : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال : أسأله فيما هو أهم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له لو تدأويت ؟ فقال : قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء ، فهلك المدأوى والمداوى ، ولم تغن الرقى شيئا . وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكّل وسلك هذا الطريق ترك التدأوى من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله .

(١) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى ، رواه البخارى من حديث ابن عباس « وأنهى أمى عن الكى » وفى الصحيحين من حديث عائشة : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى حمة .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذا منهم من ترك التداوى ورأه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن لترك التداوى أسبابا (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضى الله عنها في أمر الميراث : إنما من أختك ، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته وإطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال : إني عنهما مشغول بسلام أبي الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبي ، فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصائب بموت عزيز من أعزته ، أو كالحائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول من ألم الجرع ، فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا استعمال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحى القيوم ، فقيل : إنما سألناك عن القوام ؟ فقال : القوام خسر العلم . قيل : سألناك عن الغذاء ؟ قال : الغذاء هو الذكر . قيل : سألناك عن طعمة الجسد ؟ قال : مالك وللجسد . دع من تولاه أولا يتولاه آخره : إذا دخل عليه علة فردته إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى السكى والرقية ، فيتركه المتوكل ، وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال : ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به ، وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك في أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد ، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح في البعض ، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى ، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوى ، استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليحجز نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدة عليه البلاء . وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء ^(١) ، وفي الخبر : إن الله تعالى يحجز عبده بالبلاء كما يحجز أحدكم ذهابه بالنار

(١) حديث « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ... الحديث » رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : صحيح على شرط العيصين .

فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يزيد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا ^(١) ، وفى حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ^(٣) » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه ، تجدد المؤمن أصح شيء قلبا وأمرضه جسما ، وتجدد المنافق أصح شيء جسما وأمرضه قلبا ، فلما عظم الشاء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتسموه لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، ولأنما يمنع المرض جوارحه ، وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ، فى الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه فى وثاق إن أطلقته أبدلته لآخر من لحيه ودما خيرا من دمه ، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ^(٥) » ، فقيل : معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها ، وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما ، وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل فى شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ، ومن لم يدخل فى شيء فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر السموات لعلهم بأن ذرة من أعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة الله وعلل القلوب عقوبة .

السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو غائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الحى والمميلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة ^(٦) » وفى الخبر « حى يوم كفارة سنة ^(٧) » ، فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للإنسان ثلثائة وستون مفصلا فتدخل الحى جميعها ويحد من كل واحد ألما فيكون كل

(١) حديث « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه ٠٠٠ الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث ، ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده فى مسنده ، والطبراني من حديث أبي عتبة « إذ أراد الله بعبده خيرا ابتلاه ، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون » أخرجه ابن أبي عاصم فى الأحاد والمثنائين ، وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبي فاطمة ، وهو صدر حديث « إن الرجل تكون له المنزلة عند الله ... الحديث » ، وقد تقدم . (٤) حديث « إن الله يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه فى وثاق ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » تقدم ولم أجده مرفوعا .

(٦) حديث « لا تزال الحى والمميلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة » أخرجه أبو نعيم وابن عدى من حديث أبي هريرة ، والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال « الصداق » بدل « الحى » والطبراني فى الأوسط من حديث أنس « مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها » وأسانيده ضعيفة . (٧) حديث « حى يوم كفارة سنة » رواه القضاوى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

ألم كفارة يوم . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحصى ، سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموا فلم تكن الحصى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحصى لا تزالهم ^(١) ولما قال صلى الله عليه وسلم : من أذهب الله كرميتميه لم يرض له ثوابا دون الجنة ^(٢) ، قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام ، لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال : يارب ارحمه فقال تعالى : كيف أرحمه فيما به أرحمه - أى به أكفر ذنوبه - وأزيد في درجاته .

السبب السادس : أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان ، أو طول الأمل والتسويق في تدارك الفئات وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي ، وأقلها أن تدعو إلى التمتع في المباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات ، وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يحله عن التنبيه بالأمراض والمصائب ، ولذلك قيل : لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة . وقد روى أن الله تعالى يقول : الفقر يجنى والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقى ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي ، فقد قال بعض العارفين للإنسان : كيف كنت بعدى ؟ قال : فى عافية ، قال : إن كنت لم تمص الله عز وجل فأنت فى عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ؟ ما عوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد : ما هذا الذى أظهره ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم ، فقال : كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لما عيد .

وقال تعالى ﴿ من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ قيل العوافى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وكذلك إذا استغنى بالعافية . قال بعضهم : إنما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى لطول العافية ، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية - لعنه الله - ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر هاذم اللذات ^(٣) ، وقيل : الحصى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويق .

وقال تعالى ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها . ويقال : إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت : يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تحب .

(١) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحصى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموا ... الحديث ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله : أرايت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال « كفارات » قال أبى : ولان قلت ؟ قال « فإن شوكة فافوقها » قال : فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت ... الحديث ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال : يا رسول الله ، ما جزاء الحصى ؟ قال : تحرى الحسنات على صاحبها ما احتجج عليه قدم أو ضرب عليه عرق ، فقال : اللهم لنى أسألك حصى لا تمنعنى خروجا فى سبيلك ولا خروجا الى بيتك ولا لمسجد نبيك ... الحديث ، والإسناد مجهول ، قاله على بن المدنى . (٢) حديث « من أذهب الله كرميتميه لم يرض له ثوابا دون الجنة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فلقد كان فى الأنصار من يتمنى العمى ... (٣) حديث « أكثروا ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال . وقالوا : لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يرقع روعة أو يصاب ببيلة حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم « عرض عليه امرأة لحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وإنما ممرضت قط ، فقال لأحاجة لي فيها (١) » . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ما أعرفه ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم « لا إليك عني » . أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٢) ، لأنه ورد في الخبر « الحى حظ كل مؤمن من النار (٣) » .

وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٤) » ، وفي لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحزنه » ، ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها لا من حث رأوا التدوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ؟

بيان الرد على من قال : ترك التدوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ؟ فيقال : ينبغي أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبغ الدم .

فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ؟ فيقال : ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالحبة وهذا لا قائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء فإناق بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل وتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفتر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفرت من قدر الله تعالى ، قال عمر : نعم نفرت من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخضبة والآخرة مجذبة ، أليس إن رعى المخضبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه - وكان غائبا - فلما أصبحوا جاء

(١) : حديث عرست عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : فإنها ممرضت قط ، فقال « لأحاجة لي فيها » أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد ، (٢) حديث : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ، ما أعرفه ؟ فقال « لا لك عني » . الحديث « روى أبو داود من حديث عامر البراء أخى الحضرمي بنحوه ، وفي إسناده من لم يسم . (٣) حديث « الحى حظ كل مؤمن من النار » روى البزار من حديث عائشة ، وأحمد من حديث أنس ، وأبو بصير الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود ، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان . (٤) حديث أنس وعائشة : قيل يا رسول الله ، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة » لم أقف له على إسناده .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه يأمر المؤمنين شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم بالبواب في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ^(١) » ، ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟

• فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه البواب ، وسبب البواب في الطب الهواء ، وأظهر طرق التدوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك التوكل فع أمثال هذا مباح ، وهذا لا يدل على المقصود ، ولكن الذى ينقدح فيه - والعلم عند الله تعالى - أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهرا البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر البواب على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن ، فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل ، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جذس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه ، ولكن صار منهيًا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا ، وخلصهم منتظرًا كأن خلاص الأصحاء منتظر ؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنين يشد بعضهم بعضًا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه . فهذا هو الذى ينقدح عندنا في تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المنهدين وقدم عليهم قوم فرجما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإغاثة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف ^(٢) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيًا في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه ، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فإن قلت : ففي ترك التدوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التدوى لينال الفضل ؟ فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليسكفرها ، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة ، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنع عن التدوى وكان التدوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع ؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصور في ترك التدوى ، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف « إذا سمعتم بالبواب في أرض فلا تقدموا عليه ... الحديث » وفي أوله نصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلدهم أن بالعام وباء ... الحديث ، رواه البخاري . (٢) حديث تهيبه الفرار من الطاعون بالفار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف ، وقد تقدم .

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقداه ، فإنه لم يمكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالأفهي أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الحرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده ، وكان لا يمكنه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لحوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرقه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها ^(١) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لآمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه ، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا ، لحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتعلم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك الموهومات كالسكى والرقى فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات .

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه ، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجردها ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى في .

الثاني : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ،

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن من تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضى الله عنه كيف أنت ؟ قال : بشر ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم لم إياه حيث مرض على كثرم الله وجهه فسمعه

(١) حديث : أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ، وافظه : عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لقد سألت الله تعالى البلاء
فسئل الله العافية ^(١) .

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام
كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة - ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة
لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن
الأولى تركه ، لأنه ربما يؤهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزید في الوصف على الموجود من العلة ، ومن
ترك التدأوى توكلًا فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء ، وقد
قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام :
مالذي أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الاحزان فأوحى الله تعالى إليه . تفرغت لشكواي إلى عبادي ،
فقال : يارب أتوب إليك : وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنينه في مرضه ، وكانوا
يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل : ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام
إلا أنينه في مرضه ، لجعل الأنين حظه منه .

وفي الخبر : إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملائكة انظروا ما يقول لعواده فإن حمد الله وأثنى بخير
دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون ^(٢) . وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف
الزيادة في الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل
وهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتى أن أمرض بلا عواد ، وقال : لا أكره العلة إلا لأجل العواد .
رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى : كتاب المحبة والشوق والانس
والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق .

كتاب المحبة والشوق والانس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربح المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونصرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير
حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم

(١) حديث : مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، فقال : لقد
سألت الله العافية ، تقدم مع اختلاف . (٢) حديث : إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملائكة انظروا ما يقول
لعواده ... الحديث ، تقدم .

كشف لهم عن سبجات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلاله حتى تاهت في بیداء كبريائه وعظمته ، فكلمها اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيتها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجعله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والهدى والوصول غرقى في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً ،

أما بعد : فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرصا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فحال إلا مع الجفد والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر في هذا الكتاب : بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجهه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الانس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان خفيته ، ثم بيان أن الدعاء وكرهه المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تتبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلي : يارسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ^(١) » ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ^(٢) » ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ^(٣) » ، وفي رواية : « ومن

(١) حديث أبي رزين العقيلي : أنه قال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » أخرجه أحمد بزيادة في أوله . (٢) حديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » متفق عليه من حديث أنس بلفظ ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ، وذكره بزيادة . (٣) حديث : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وفي رواية : « ومن نفسه » متفق عليه من حديث أنس ، واللفظ لم هو ن قوله « ومن نفسه » وقال البخاري : « من والده وولده » وله من حديث عبد الله بن هشام : قال عمر يارسول الله لانت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي ، فقال : « لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلى من نفسي ، فقال « الآن يا عمر » .

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي »^(١) ، ويروى أن رجلا قال : يا رسول الله إني أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم « استعد للفقير » فقال إني أحب الله تعالى ، فقال استعد للبلاء^(٢) . وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظروا إلى هذا الرجل الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبيه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ماترون »^(٣) .

وفي الخبر المشهور : إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خيلًا يمت خيليه؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال ياء لك الموت الآن فاقبض^(٤) ، وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد »^(٥) ، وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها ، فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب »^(٦) ، قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرأى من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي : تدعى الأمام يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

(١) حديث « أحبوا الله لما .. دوكم به من نعمه » الحديث . أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب .
(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك ، فقال « استعد للفقير .. » الحديث . أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مفضل باللفظ « فأعد للفقير تحقفا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ... الحديث ، أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن .
(٤) حديث : إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خيلًا يقبض خيله .. الحديث ، لم أجده أصلا .
(٥) حديث « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك .. » الحديث . تقدم . (٦) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها .. » الحديث « متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروجه في الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه ؟ وفي بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب فبحق عليك كن لى محباً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ : إلهى إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك ، صغيراً أخذتني إليك وسر بلتني بمعرفتك وأمكنتنى من لطفك ونقلتنى في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهدًا وشوقًا ورضا وحبا تسقينى من حياضك وتهمنى فى رياضك ملازماً لأمرك ومشغولاً بقولك ، ولما طر شاربى ولاح طائرئ فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك هممة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلنشغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطالب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى :

فأول ما ينبغى أن يتحقق ؛ أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جمادىل هو من خاصية الحى المدرك . ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلابته ويلذه ، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى ما لا يؤثر فيه بإبلام وإلذاذ . فكل ما فى إدراكه كالدعة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولدعة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً . فإذن كل لذى محبوب عند الملتذبه ، ومعنى كونه محبوباً أن فى الطبع ميلاً إليه ، ومعنى كونه مبغوضاً أن فى الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المنتعب ، فإذا قوى سمي مقتاً . فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته (الأصل الثانى) أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، واسكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين فى الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة ، أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وجعل قرّة عينى فى الصلاة »^(١) ، فسمى الطيب محبوبات ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ؛ بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فهنّ إلا للبصر واللمس دون

(١) حديث « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب ، والنساء ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس - حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب - فإذا قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهيئات ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لاحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة - كما سيأتي تفصيله - فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا .

(الأصل الثالث) أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلهذين أسباب المحبة وأقسامها ، وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي : نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل ، لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الخذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبو به زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء ، فلهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب . وكما أن دوام الوجود محبوب فكالم الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فافقد للكمال . والقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت في الصفات . وكمال الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فإذا كان المحبوب الأول الإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمسال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلغرض حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا . نعم لو خیر بين قتله وقتل ولده - وكان طبعه باقيا على اعتداله - أثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه للكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجعلا بكاملهم ، فإن العشرة والمال والأسباب الخارجة كالجنح المسكل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذا كان المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام

ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثاني : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبي ^(١) ، إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطراراً لا يستطاع دفعه ، وهو جبهة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها . وهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء ، و الفرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لذاته بل لأنه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم محبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام . فإذا رجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيق فيجوز أن يكون محبوباً لذاته ، وكيف ينسکر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري ^(٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيوار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتتفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الأسباب ملذذة وكل لذيق محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يملو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينسکر كون الجمال محبوباً بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ^(٣) .

(الاصل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال ؛ أعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون ، وكون البياض مشرباً بالحرارة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الاغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم

(١) حديث « اللهم لا تجعل لسكافر على يدا فيحبه قلبي » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف مقطوع ، وقد تقدم . (٢) حديث : كان يعجبه الخضرة والماء الجاري ... أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري ، وإسناده ضعيف . (٣) حديث « إن الله جميل يحب الجمال » رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا ملوناً مقدّر فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً . وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالجرّة . فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن ، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إماء حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمة الطيبة . وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى أشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلا بد من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كثر وفز عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضدّه . لحسن كل شيء في كماله الذى يليق به . فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصرّ ، ولا تحسن الاوانى بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الاصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهى محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسناتها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس ؟ فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الحسن بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه خلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته . وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن تنفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه . فكيف من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري من يحب الشافعى مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسناته الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لأنصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ونشره هذه الخيرات في العالم ، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة . فأما الحواس فقاصرة عنها . وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب علياً رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبه إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره . فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي ما كان الصديق به صديقاً وهى الصفات الحمودة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان

الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذاعلم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة . وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله فإذن الجمال موجود فى السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبي الخلى وطبعه إذ أردنا أن نحجب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطنا ب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة . فهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطنا ب فى وصف المحاسن والمقاييس التى لا تدرك بالحواس ؟ بل لما وصف الناس حاتميا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحببهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعده المزار ونأى الديار . فإذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط لإحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتذكر الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ؛ فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشامصورا على الخائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الحفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لاسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم ، فاتعاروا منها اتلاف وماتناكر منها اختلاف ^(١) ، وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب فإذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكهاله وبقائه . وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على قيامه ودفع المهلكات عنه . وحبه من كان محسنا فى نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه . وحبه لسكل ما هو جميل فى ذاته ؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن . فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ، كما لو كان الإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات . فلقين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى ، وحب الرسول

(١) حديث « لما تعارف منها اتلف » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحبة المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملة ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأما حقيقة في حق الله تعالى ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً ، وبأن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى .

فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقائه وكأله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كاله فهذه جبلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكال وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخترع الموجد له وهو الملقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه ذو خلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكامل لامتته وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به . فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالفاً موجداً ومختزناً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره ، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة فتععدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحجر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن السكل من آثار قدرته ، ووجود السكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها ، وهو خطأ محض إذا انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق . فإذاً إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً لحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى ، إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن الحب هذا فلائنه اشتغل بنفسه وشهوته وذهل عن ربه وغالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهراته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التمتع به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبهه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربته فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم ،

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن عليه فراساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته

وقع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده . وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ، ولكننا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومآثره منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى وقتر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطارا يجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخر أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال ، وقد استسخر في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة . فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين .

(أحدهما) أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسنا بتسليم خاتمة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن حظه دينا ودنيا في بذله فبذله لذلك . (والثاني) أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا ممتولا بل الحظوظ كلها أعراض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل ، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومنه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان ، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان

من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضا موجود في الطباع . فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيع بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثاني وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثاني لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما ؛ فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لامن حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق ؛ أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكاملهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثا : بترفيهم وتعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعا . بتجميلهم بالمزاج والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضروري من الأعضاء : الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل . ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحرمة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان . الماء والغذاء . ومثال الحاجة : الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذا هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يجب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لالحظ ينال من وراء إدراك الجمال : فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثاني يختص يدركه أرباب القلوب ولا يشاركونهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحسن لا يدرك . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القاب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصديق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمه الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن مآلهم له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الآثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فإذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثاني) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يجب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأناسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى .

أما العلم : فآين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الخالق كلهم فقال عز وجل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نعمة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ واقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فتعليمه علمه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبباً وكان هو في نفسه زينة وكبلاً الموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلّم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم مانتقاضه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلّم لا يفضل الأجهل إلا بعلم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيق ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وغالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتصف به فإنه نوع كمال ، فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوام بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقبحهم للخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره - مامنتى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عتد ما يعجز عنه في نفسه وغيره بما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وب نفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لاهلكه ، فليس للعبد

قدرة إلا يتمكن مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا يتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته ونأصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعنى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب قادر لجمال قدرته فلا يستحق الحب بجمال القدرة سواء أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك والقُدوس ذى الجلال والإكرام

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس غيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بذكره . فهذا الوصف أيضا إن كان كاملا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار والإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان .

فإذن الجليل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغنى الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا أراد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، والمتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذي تحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه اللسان ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ولا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) ، وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك . سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فليت شعري من ينسکر لإمكان حب الله تعالى تحقيقا ويحمله مجازا ؟ أبشرك أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

والمحامد ونعوت السكّال والمحاسن أن ينسركون الله تعالى موصوفاً بها أو ينكر كون السكّال والجمال والبهاء والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه ؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ؛ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أرد الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : من أظلم من عبدنى لجنة أو نار لولم أخلقجنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع . وهى عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا : نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم . ومر يقوم آخرين كذلك فقالوا : نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال : أنتم أولياء الله حقاً معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم : لى لاستحى أن أعبدته للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالاجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر « لا يكون أحدكم كالاجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل » .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاركة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح . وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الاخبار والآثار كما استقصيناه فى باب الاخوة فى الله من كتاب آداب الصلحة فيطلب منه . وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا ، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين . وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك .

فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لى بمعنى طلب القرب بالمسكان بل بالصفات .

وأما ما لا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها آدمى فهى التى يوحى لها قولها تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حدّ عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى ﴿ إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله

عليه وآله وسلم ، إنَّ الله خلق آدم على صورته ^(١) ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشهوا وجسموا وصوّروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده » ^(٢) ، وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى النوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به » ^(٣) ، وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين تجاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله . وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتثليل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السرف فهم الأقلون . ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لا زلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجدته على أجرة قد قطع قصصها وبقي أصوله حتى تشققت قدماء وتوزمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا . فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لافى أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركه إياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب وغض من كاله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق - إذا لأصل المحبة - والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل الذات وأعلامها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها المقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » تقدم . (٢) حديث قوله تعالى « مرضت فلم تعدنى » فقال : وكيف ذلك ! قال : مرض فلان ... الحديث « تقدم . (٣) حديث قوله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى النوافل حتى أحبه » الحديث « أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالاسامى فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة ، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تدم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به ، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة . فالعلم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذة العلم بالحرارة والخطاطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملوك السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألد من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألد من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحببه له أكثر لأن لذته فيه أعظم . فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها ؟ وأخرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار . وبهذا نبين أن العلم لذيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته - من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين - فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة . وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتم من الجماع للذة القابر للشهوة ، ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال . وإنما تعرف أقوى

الذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن الخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معينا صادق في الكشف عن ترحيح الذات فنعود ونقول :

الذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأذن ولا لللس ولا للذوق ، والمعاني الباطنة أغلب على ذوى السكال من اللذات الظاهرة ، فلو خبر الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان الخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهما اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوة أيا ما كثيرة : فاختياره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من الطعومات الطيبة . نعم النافص الذي لم تسكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذي مانت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب للذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألد من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿ فلا نعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبهت والتفرد والعكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحققر الخلق الذين يرأسهم لعله ببناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالسكودرات التي لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام ملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية من المزاحمات والمسكدرات متسعة المتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويسكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ، إذ تمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحله الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن العارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء ^(١) » .

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض . وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم

(١) حديث « ان الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم ، وليس فيه « وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ... الحديث »

وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى السكال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمية ولا لصبي ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى السكال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله ومكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفة من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصرلجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها ، فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يسكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر ينهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لا لذة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ أى شيء هاجبك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شيء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شيء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفأك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوبا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركنهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشربان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه . وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا ، قال : ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف ، فقالت لرضوان : من هذا ؟ قال : معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين : بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبده حبا له وشوقا إليه وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبجبه لما هو أهل له : الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعباد الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) ، وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أقفل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب ؛ وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة ؛ أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا . فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قوة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحة الهوم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه إسكال نعيمه وبلوغ الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولت شعرك من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل ؟ وأي معنى لوعده الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم ؟ بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأيتك العين أهوائ
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودينائى
ولذلك قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط .

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره : وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألد من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا وأعلامها وأقواها كما قال تعالى ﴿ اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ﴾ الآية . ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة ؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون ﴿ إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ﴾ .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعباد الصالحين ما لا عين رأت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث ابن هريرة .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال ؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتولدة والمشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لا يدخل في الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً ، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم روى عند تمام الضوء ؛ فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى ، إلا في مزيد الانكشاف . فإذا الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجهة أو الصدر مثلاً أستحق أن يسمى رؤية .

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداها) أولى (والثانية) استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين التخييل والمرئي ، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية . وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والمرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غاب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول في سبب كونها حجاباً بطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ لن تراني ﴾ وقال تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أى في الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج ^(١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد - نعوذ بالله من ذلك - ومنها ما لم يثبت إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يجمع منه الخبث الذي هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين - كما وردت به الأخبار - سبعة آلاف سنة ^(٢) ولن ترتحل نفس عن

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيح ، هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ، في الصحيحين : أنها قالت من حديثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال « نوراني أراه » . وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد : ما زلت له منسكراً . وقال ابن خزيمة : في القلب من صحة إسناد شيء ، مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر « رأيته نورا أنى أراه » ورجال أساندها رجال الصحيح . (٢) حديث « أن أقصى المسكن في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة « إنما الشقاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي . . . الحديث » وفيه « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خفقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة » وإسناده ضعيف .

هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما ، وإن قلت ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكل الله تطهيرها وتركيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة - وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول - فعند ذلك يشتغل بصفاته ونقائه عن الكدورات حيث لا يرق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كان انكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية ، فإذا الرؤية حق ، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فتراه في الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كالالكشف والوضوح وتقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هي بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أنم لنا نورنا ﴾ إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرع ، ومن لانواة في أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لاحتالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ^(١) » ، فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لاحتالة بتجل انفرديه ، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ؛ وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع لعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إثارة لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ؛ وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ما تقولين في الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة . وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه

(١) حديث « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة » أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان للذهبي أن الدارقطني رواه عن الحامل عن علي بن عبدة وقال الدارقطني أن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموصوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به ؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي ، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به . فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته ؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها ؟ فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن اطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللمعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللبس باليد إلى لذة الوقاع .

ولإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول : لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكل لا محالة . (والثاني) كمال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته ووجهه . (والثالث) كمال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهمهم من المهمات .

فقدّر عاشقا ضعيفا العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناوير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على المفجأة حالة انهك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذبات وبقى سليما فارغا ومجتمعا عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها ، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزناوير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملائكة والنفات إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والتفاتة إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يسكاد القلب يتفطر لعظمته ، ولكن يكون ذلك

كالبرق الخاطف وقلبا يدوم ؛ بل يعرض من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساخل له ، فلا إحاطة بكنهه جلال الله محال ، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار ملكته وقوته ؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »^(١) ، لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زمانا لا محالة ، فن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالعالا إلى منتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لوعمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة . والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألد من سائر الذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى نقصان ، كما لم تكن الرياضة ألد من المطعومات عند الصبيان .

« فإن قلت : فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة ؟ فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تحلق في عينه أو جبهته ، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له ، والحق فيه أن القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع »^(٢) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخاق في العين ليسكون لفظ الرؤية والنظر ، وسائر الالفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره ، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادته لقائه ، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباده من

(١) حديث « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في صحبه ولأحد من حديث جابر « أن من سعادة المرم أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » والترمذي من حديث أبي بكر : أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم . (٢) حديث « رؤية الله في الآخرة حقيقة » متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ... الحديث » .

غير منفص ومكندر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع ^(١) إلا أن هذا التعميم على قدر قوة الحب فكما ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستمثار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء ﴿ ما جعل الله لرجل من قابلين في جوفه ﴾ وكال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ، ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة ^(٢) » ، ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدينا يجنح لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وهوته خلاص من السجن وقدم على المحبوب ، فاجال من ليس له إلا المحبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه غلى من السجن وممكن من المحبوب وروح بالامن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمنزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعزز لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويمد بالضرورة من المغرب بقدرة ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب زوجها ، فالدينا والآخرة ضرطان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء . فما ذكرناهما من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما . ثم ينتج ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام ، الطهور شطر الإيمان ^(٣) ، كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة .

(السبب الثاني) لقوة المحبة « قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال ﴿ ضرب الله مثلا كلمة

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » هدم . (٢) حديث « الطهور شطر الإيمان » أخرجه مسلم حديث أبي مالك من الأشعري وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ أى المعرفة ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالحامد وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جليلة الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبتعها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدلاً المزاج إذا أبصر الجليل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبتع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبتع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى (الأفوياء) ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . وإلى (الضعفاء) ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يتفوقون منها إلى الفاعل . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي ، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الآية ويقول عز وجل ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر غاسقاً وهو حسير ﴾ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب ، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ؛ وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس ، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكتبات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول :

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أفعالها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها ، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها - أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات - فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى

فلنكها الذى هى مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه وهى فى السماء الرابعة ، وهى صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرى حلكة فى فلاة ، والكرى فى العرش كذلك . فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المفادير ، وما أحق الأرض كلها بالإضافة إليها ! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ! فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض ^(١) ، ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء بحزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ، ثم النظر إلى الآدمى المخلوق من التراب - الذى هو جزء من الأرض - وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ! إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ؟ ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغذائية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب فى سائر الحيوانات ، هذا فى شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعزفه أن غذاه دم الإنسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الإنسان ! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ! وكيف هداه إلى مسام بشرية الإنسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ! ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ! وكيف علمه المص والتجرجع للدم ! وكيف خلق الخرطوم مع دقته بجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى إلى باطنه وينتشر فى سائر أجزائه ويفغذه ! ثم كيف عزفه أن الإنسان يقصده بيده فعله حيلة الحرب واستعداد آله ! وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ! ثم إذا سكنت اليد يعود ! ثم انظر كيف خلق له حذقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه

وانظر إلى أن حذقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حذقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمراة الحذقة عن الغذاء والغبار - خلق للبعوض والذباب يدين فتنتظر إلى الذباب فتراه على الدوام يسمح حذقتيه بيديه . وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحذقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحذقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حذقتين مصقلتين من غير أجفان وعليها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهى تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضىء ، فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمى فى الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرك أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك

(١) حديث « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض » لم أجده له أصلا .

هلا كما مؤبدا ، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش ! فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش (١) » ، فهذه لمعة عجيبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من المعائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته ، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملةا هو أكبرها شخصا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها - حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل موقع منها على نجاسة - لقضيت منها عجايب آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاته إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المستدس ، فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا خمسا بل مستدسا ، لخاصية في الشكل المستدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها : المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فتتق فارغة ، ثم لوبناها مستديرة لبقية خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المستدس ، وهذه خاصية هذه الشكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة فده لطفاه به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنأ بعيشه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علينا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تمال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا اشتراكهم في أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

(١) حديث « إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش » متفق عليه من حديث أبي هريرة « مثل ومثل أمي كمثل رجل استوفد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه » لفظ مسلم واتصرو البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتلون من يدي » .

والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقةها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ الآية . فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة فانضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول : أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي - رحمه الله - الفقهاء منهم والعمام ، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامي يعرف علمه بجملا والفقهاء يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أنهم وإعجابه به وحبه له أشد ، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاحالة ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعبته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة بجملة ويكون له بحسبه ميل بجملة ، والبصير إذا فتش عن التصنيف واطاع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاحالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويعتقده : وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض - مثلا - من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويتحير فيه له ويزداد بسببه لاحالة عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبحر هذه المعرفة - أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى - بحر لاساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له ، وما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعا عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة . والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمعنى لاتفهمه إلا بحال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخطي مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، لحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدر طولها واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات

لا نحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أقول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة - وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع مافي العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومديرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة السكائب وظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده ؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتته وجلاله ؟ إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنه نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد السكائب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانهبرت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه في نفسه وغوصه وذلك لا يخفى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخباء النهار واستتاره ولكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبطاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراف والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضده له عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على فسق واحد أشكل الأمر . ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويحول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراف لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعده ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور ، هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصور استقيام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ؟ فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك

والمالكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد . ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أوردت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله . وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف . وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدا لله ، فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وإنه فنى عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففينا عنا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك أخيرهم بما لا يعنيه . فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شهادة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم شهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال « سبحان الله » وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ، ولو فرض أنكه بلغ عاقلا ثم انقضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة خيف على عقله أن يظهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة . فهذا سر هذا الأمر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكبه لا يعرف القمر

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكرن العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيسكن في إثباته ماسق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشترك إليه في غيبته

لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشقاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب . ولكن بيباه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه ، فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشقاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه ولا يتصور أن يشقاق إليه ، وما أدرك بكامله لا يشقاق إليه ، وكما الإدراك بالرؤية فن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنعول مثلا : من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحي عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشقاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشقاق في وقت الرؤية ، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجهه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط .

والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما أتضح للعارفين من الأمور الإلهية — وإن كان في غاية الوضوح — فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح ، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للعارف ومنغصات ، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فأنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما أتضح اقتضاحا ما (الثاني) أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطي ذلك فقد أضربني القلق ، قال : قرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبته ، فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول ، فقال قل اللهم رضى بتضاءلك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك . فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة .

وأما الشوق الثاني فيشبهه : أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له . ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لئلا يظهر فيه ألم ولا بعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدا لا يباد ،

وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل : وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام . وقوله سبحانه وتعالى ﴿ نورهم يمشي بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ محتمل لهذا المعنى . وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما ترقى من الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ﴿ انظرونا نقبض من نوركم - قيل ارجعوا وراكم فالتمسوا نورا ﴾ يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم في هذا يرجع الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوفق به ، فأسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك » (١) ، وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرني عن أخص آية - يعني في التوراة - فقال : يقول الله تعالى ؛ طال شوق الأبرار إلى لقاء وإنني إلى لقاءهم لأشد شوقا . قال : ومكتوت إلى جانبها ؛ من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء : أشهد أني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال ياد داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ؛ فافرضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلمرا إلى كرامتى ومصاحبتي وبجالتى ، وائمسوا بى أوانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإني خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ومحمد صفى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادة من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم وبذكرونى وأذكروهم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم ممتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخللا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتملقوا إلى بلعائى فبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمى ما يشتكون من حبي ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه : ياد داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلى ،

(١) حديث : أنه كان يقول فى دعائه « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وهرم فى السموات .

قال : يارب من المشتاقين إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى الذين صفتهم من كل كدر ونهبتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سماءى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى ، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولستكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضىء فى سماءى للملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ، يادادو إنى خافت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محبثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : يادادو أئت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول ، فإذا أتيتهم فأقرتهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحباى وأصفياى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فاتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تبادرونى أسمع صرختكم وكلامكم فإنكم أحباى وأصفياى وأولياى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة ؟ قال : فحرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجرئ على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطمة خلقتنا ومنذت علينا بالتفكر فى عظمتك أفينجرئ على الكلام من هو مشغول بعظمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت السنننا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ؛ وفزعنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا لمنماهى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترئ العبد على سييده ؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك - فهب لنا نورا نرتدى به فى الطلمات من أطباق السموات وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شيء من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال دارد : يارب هم نالوا هذا منك ؟ قال : بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بمنى ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفزع قلبه لى واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادادود عمت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحبها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلق لا يرى غيري ولا أرى غيره ، فلو رأيته يادادود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتمشمت أعضاؤه وانحل قلبه إذا سمع بذكرى أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفاً وعبادة ، وعزتي وجلالي يادادود لا فعهده في الفردوس ولا شغفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضاً . قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم ، وما ضرركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ، وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التستم رضائي . وفي أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبا لا يجتمعان في قلب . يادادود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أماما استبان لك مما وابق محبتي فتمسك به ، وأماما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعنيك على الشدائد وإنني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته إلغاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإنني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إلى لا تضاد عمالك فتسكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت مني الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة مني حداً ، ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر إلى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فإنني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويق ، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يشنون عليها . يادادود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا ، ومن كتبته عندي جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادادود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادي من رحمتي ، أقطع شهواتك لي فإنما أبحث الشهوات الضعفة خلق ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي ، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإنني لم أرض الدنيا الحبيبي ونزهته عنها . يادادود لا تجعل بيدي وبيدك عالما يصحبك بسكره عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين ، استمعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإفطار فإن محبتي للصوم لإدمانه . يادادود تحجب إلى بهادة نفسك امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به وإنني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : يادادود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يادادود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقلبين على

يادادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عني ، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى ، فهذه الاخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والانس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك ، ولتقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ ^(١) ، ومعناه أنه إذا أحببه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضرك الكفر الماضي بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله ^(٣) ، وقال عليه السلام : قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ^(٤) ، الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ما شئت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر .

وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضاً ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الاسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غيره لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً ، حتى إن اسم وجود ، الذي هو أعم الاسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع . وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك القوس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلق ، وهذا التباعد في سائر الاسامي أظهر كالعلم والإرادة

(١) حديث أنس : إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشافعي الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة . (٢) حديث : إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب . الحديث . أخرجه الحاكم وصححه اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود . (٣) حديث : من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله : ومن أكثر . إلى آخره . ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث : قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الاسامى أو الالفاظ فإن الخلق أسبق إلى العقول والافهام من الخالق ، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل . والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائمتها ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتما ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلذذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال يمكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدد ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميمني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره ، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الالفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الآزل ، لحبه لمن أحبه أزل مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه .

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوة أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه ، فيقال : إن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائمة له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستعجار به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الاخلاق المرصية والحصول الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الحصول الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحجب نفسه إلى الملك . لحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشیاطين ، والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لا يزال في نعوت السكال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركاتهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر ، بل القرب في الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائما

في التفسير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه ، والاستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب ، فكما صار أكل صفة وأنتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقهر الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال ، فإنه لانهائية لكمال ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتنا لانهائية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فافد له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أخبه الحب البالغ اقتناه » قيل : وما اقتناه ؟ قال : « لم يترك له أهلا ولا مالا »^(١) ، فعلاقة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام : لم لا تشترى حمارا فتركيه ؟ فقال : « أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر » « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه وإن رضى اصطفاه »^(٢) وقال بعض العلماء : « إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصفيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشيء من المحبة ، فقال : يا بني هل ابتلاك بمحسوب سواء فآثرت عليه إياه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع فى المحبة فإنه لا يعطيكها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إذا أحب الله تعالى عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه بأمره ونهيه »^(٣) ، وقد قال : « إذا أراد الله تعالى بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه »^(٤) ، فأخص علاماته حبه لله تعالى فإن ذلك يدل على حب الله تعالى له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهه فيكون هو المشير عليه والمدير لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمستد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته . فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضا من علامات حب الله تعالى للعبد .

القول فى علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعىها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبس الشيطان

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبي هبة الخولاني وقد تقدم .
(٢) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولده فى مسنده ، (٣) حديث « إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ « إذا أراد الله بعبده خيرا » . (٤) حديث « إذا أراد الله بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف . (٤٢ - لحياء علوم الدين - ٤)

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفاضلة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار . وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولفاقه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقته بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فاز منه ، فإنَّ المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح الاتمام وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وآله وسلم : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ^(١) ، وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفlech من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد رط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله لنجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلوا أو يقتلون ﴾ وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرئى والباطل خفيف وهو مع خفته وبن . فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرلك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت وإن تعجزه . ويروي عن إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ نفلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال : يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاثلني ، ثم يأخذني فيجده أنفي وأذني ويقر بطني ، فإذا لقيت غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك ، فأقول : فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط ^(٢) قال سعد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان : لا يكره الموت إلا مريب . لأنَّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد : أنحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقاً لأحبيته ، وتلا قوله تعالى ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فقال الرجل : فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت ^(٣) ، فقال : إنما قاله لضر نزل به لأنَّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت : من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله ؟ فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا يناقض كمال حب الله تعالى لأنَّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإنَّ الناس متفاوتون في الحب . ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاها عاتبته قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحته لإياها

(١) حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة . (٢) حديث إسحق بن سعد ابن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ نفلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال : يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاثلني ويجده أنفي وأذني .. الحديث « أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية واسناده جيد . (٣) حديث « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

وإني لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهى أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم ^(١) » ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره مجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذى وصله الخبر بقدومه حبيبته عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق ، فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا ، وعلامته لدوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا مأحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه . وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال ﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ومن بقى مستقرا على متابعة الهوى فحُبُّه ما يهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلها نبيين ، فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندهما سكنت إليه . فإذا من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إثارة على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبيا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى : وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ . وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإلما عدوه نفسه وشهواته فلا يتخذ الله ولا يكله إلى هواه وشهواته .

(١) حديث أبي حذيفة بن عتبة : أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولا عاتبة قرين في ذلك . وفيه : فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم » لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر ، أن سالما يحب الله حقا من قلبه ، وفي رواية له « إن سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه » وفيه عبد الله بن هبة .

ولذلك قال تعالى ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ما روى أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجثده في معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوما لحده ، فلغنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله ^(١) ، فلم يخرج به بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي . وبالجملة في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أنتحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به ، فعلاقة حب الله ؛ حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محله . فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى ^(٢) ، وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال : فسمعت قائلا يقول في المنام ؛ إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي ، قال : فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي . وقال ابن مسعود : لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل - رحمه الله تعالى عليه - علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بفض الدنيا ، وعلامة بفض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغه إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التمجيد ويفتنم هذه الليل وصفاء . فبقى بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألد عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟

(١) حديث : أتى نعيمان يوما لحده فلغنه رجل قال : ما أكثر ما يؤتى به ؟ فقال : لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله « أخرجه البخاري وقد تقدم . (٢) حديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ... الحديث » تقدم .

فقال : من الانس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابى فأنقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ - وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام - أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : إن برعا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا ، قال : يارب وما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيبة دهر طويلا فنار إلى طائر وقد عشش فى شجرة بأوى إليها ويصفر عندها ، فقال : لو حوت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت أنس بصوت هذا الطائر قال : ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحظنك درجة لا تألها بشىء من عملك أبدا . فإذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الانس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالأذى يخاطب معشوقه ويناجيه ، وقد انتمت هذه الالة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم - بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الوهлан فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه . فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر : الحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فما أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصده ؟ فقال : إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضاً : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلعت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين : إن الله عابداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاماً ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم . وحق الحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبته ويستغل بالعتاب ، ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وممتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير الحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ .

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة . ثم تنعمت به

عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدهوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله ما اشتقى محب لله من طاعته ولو حلل بعظيم الوسائل . فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإن العاشق لا يستقل السعى في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين - وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء - ! ما كان سبب حالك هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك بقاى كله وأنت معرض عني بوجهك كله ! فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق على ؟ قال : ياسيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت : هذا خلق الخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيا بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب الله صارف ، وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشئ . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالشئ لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الأبرار ﴿ لنى نعيم ﴾ ثم قال ﴿ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومنزاجه من تسليم عينا يشرب بها المقربون ﴾ فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذى هو المقربون . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما في الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ﴿ إن كتاب الأبرار لنى عليين ﴾ ثم قال ﴿ يشهده المقربون ﴾ فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون ، وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقرينهم من المقربين ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم في الآخرة ﴿ ما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وكما قال تعالى ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أى وافق الجزاء أعمالهم فقبول الخالص بالصرف من الشراب وقبول المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في حبه وأعماله ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فمن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور : مكن من الجنة ليتبوا منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان ؛ فهناك تنزه لذته في الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهي نفسه وتلذذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلحاحه بالإخلاص والصدق : أنزل ﴿ فى مقعد

صدق عند ملك مقتدر ﴿ فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان . والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب »^(١) ، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ كما قال تعالى ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ .

ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين يخافون في مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين^(٢) إذ سمع قوله تعالى ﴿ ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتعم به ، لحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ، ولا يبكي لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإننا قد علمنا أن درحات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون »^(٣) ، وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة »^(٤) ، وإنما كان استغفاره من القدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثاني ، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روى أن الله تعالى يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذني مناجاتي . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحة وكان على الجبل : كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فالت فهب لنا ما فالت منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرات عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت .

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بالطلب جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجوعه . والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » أخرجه الألباز من حديث أنس بسند صحيح مقتصر على الشطر الأول ، وقد تقدم ، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه .

(٢) حديث « شيبني هود » أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة . (٤) حديث « من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » لأعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال ذلك بزيادة في آخره رواء البيهقي في الزهد . (٤) حديث « إنه ليغان على قلبي » متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلوك أوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان . ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحباجب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها . وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت - نعوذ بالله منه - وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاءش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه ، فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين ، وكان شرب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، وإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب . فقد روى في بعض الأخبار : أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرة بعضها ، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءاً من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبته فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتهم ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه بما أعطيتهم ! فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد	عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب	كان فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت	عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجري	له في كل يوم ألف عييد
والأحباب أفرح بعيد	ولا يحمد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله يثشد أحياناً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز لإظهاره . وهي هذه الآيات :

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم	خلوا بقرب المساجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل قدسه	تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى	ومصدرهم عنها لما هو أكمل

تروح بعز مفرد من صفاته وفي حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا مائدق صفاته وما كتبه أولى لديه وأعدل
سأكنم من على به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا ، فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لمهارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعاش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن الله تعالى فيها هو سر في الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحجوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبي وتتمجّل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتمل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يتدفع فيضانه . فالتقادر على الكتمان يقول :

وقالوا : قريب ، قلت : ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى ؟

فقال منه غير ذكر بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدري

والعاجز عنه يقول :

ينفى فيبدي الدمع أسرار ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضاً :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم ؟

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعداً أكثرهم إشارة به . كأنه أراد : من يكتر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه - ممن كان يذكر المحبة - فرآه مبتلى ببلاء فقال : لا يحبه من وجد ألم ضره ! فقال الرجل : لكننى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره ، فقال ذو النون : ولكننى أقول : لا يحبه من شعر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة تنتهى المقامات وإظهارها لإظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محدودة وظهورها محمود أيضاً وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق الحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغى أن يكون قصد الحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشارك في الحب

وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل : إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يحزبك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لتعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفًا السكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له محبوبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين ! فهذا الذى رأيته من مجانينهم . ومما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن الحب إن كان عارفا - وعرف أحوال الملائكة في جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في ملكوته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها : فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت : من أنتم فقالوا : نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره ، قال : فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ؛ كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طبيب حاذق . فأخذ قارورة مائة فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدي ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم قال : قاتله الله ما أبهره ! قلت : يا أستاذ وتبين المحبة في البول ! قال : نعم . وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول : ما ألبس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ! ثم غشى عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .

ومنها . الانس والرضا - كما سيأتى .

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يشعره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه للجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ، ولذلك قال الجنيد : الناس في محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتبالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بمعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه . وعقد الله إبليس - وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل - فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بفضاء الله في أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع لإنسان قال : يا دوست - أى يا حبيب - فقيل له : قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا : فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس : وقد

قال أبو تراب التخشي - في علامات المحبة - أبياناً :

لا تخدعن فللحييب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالنع منه عطية مقبولة	والفقر لإكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أى ترى من عزه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً	متحفظاً من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمراً	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى	من دار ذل والنعم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكياً	أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً	كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً	بملكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى	والقلب محزون كقلب الشاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً . وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقى في الإمكان من مزايا اللطاف .

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فضيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله ، بل كل

ما يعرق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كلفه ربه مكث دورا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه : يا من آلتنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقال الله عز وجل لناود عليه السلام : كن لى مشتاقا وبى متأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة : بى نلت هذه المنزلة ؟ قلت : بتركى ما لا يعينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له ياراهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، فقلت ياراهب ما أقل ما تجده فى الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت ياراهب متى يدوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع لهم فصارهما واحد فى الطاعة ، وقال بعض الحكماء : عجا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ؟ عجا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟ .

فإن قلت : فما علامة الانس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ويجمع فى خلوة ، وغريب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، غالى بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم : هم قوم عجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلنا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الانس بالله وهذه علامته وهذه شواهد .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الانس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدرجات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحد بن غالب ، يعرف بفلام الخليل أنكر هل الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

الانس بالله لا يحويه بطلال وليس يدركه بالحول محال
والانسون رجال كلهم نجب وكلهم صنفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الانس .

اعلم أن الانس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينفسه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكرا للصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل بمن أقيم فى مقام الانس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل ؛

بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكبرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرجنا فاستسقى لنا . فخرج فقال فى كلامه : ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك ؟ وما الذى بدالك أن نقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نهد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ أألمت كنت غمارا قبل خلق الخطامين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم ترى أنك تمتنع أم تخشى الفتور فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال : فارجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه : إن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات . وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص ، قال : فأتى بشيخ فقال : يا شيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال : إني أقسم على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون فى أمتى قوم شعثة رهوسهم ، دلسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » (١) ، قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار ، فقال : إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار ، قال : فاعزم على النار أن تطفأ ، قال : فمزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره فى الوقت ومز أبو حفص رحمه الله .

فهذا وأمثاله مجرى لذوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيدي أحوالهم بذلك . وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تأهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم فى عز ما تأهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يفض به على غيره مهما اختلفت مقامهما ، فى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الأسماء .

فأقول القصص . قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتناء والعصمة . أما إبليس فأبأس عن رحمة ، وقيل لأنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه (وعصى) آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى .

(١) حديث الحسن عن أبي موسى « يكون فى أمتى قوم رهوسهم دلسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان ، فقال ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنده تلهى ﴾ وقال في الآخر ﴿ أمان استغنى فأنت له تصدى ﴾ وكذلك أمره بالقيود مع طائفة ، فقال عز وجل ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ حتى قال ﴿ فلا تقعد بعد الذكري مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ .

فكذلك الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فن انبساط الألس قول موسى عليه السلام ﴿ إن هي إلا فتنتك تفضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وقوله في التعليل والاعتذار لما قيل له ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ فقال ﴿ ولهم على ذنب ﴾ وقوله ﴿ إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطق لساني ﴾ وقوله ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فحوقب بالسجن في بطن الحوت - في ظلمات ثلاث - ونودي عليه إلى يوم القيامة ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ . قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد قال ﴿ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالته ، فقال ﴿ وسلام عليه ﴾ .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين . خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع - فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل محي من ديوان النبوة ! وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتيك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتي وجلالي لأن أخذته عصفة من عصفاق عليه لا تركته مثله لمن معه ونكالا لمن بعده ، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كتيباً من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال : إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تنب علي وكيف أستعصم ؟ إن لم تعصمني لأعودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفي الخبر: إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشنى على الهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم . فهذه سنة الله تعالى في عبادته بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية .

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عبادته الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ وتارة يتعرف إليهم بأفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عبادته . ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث القرآن فقال : من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (١) ، لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور ؛ لا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ لم يلد ﴾ ولا يكون حاصله من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ ولم يولد ﴾ ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً ولا فرعاً من هو مثله . ودل عليه قوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وجملته تفصيل قول : لا إله إلا الله ، فهذه أسرار القرآن ولا تنهاى أمثال هذه الأسرار في القرآن ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : توراوا القرآن واتمسوا غرائبها ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار ، فكان حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستعجب معه العلوم المخزونة الخارجة عنه . فهذا ما أردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين ، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) ، فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ،

(١) حديث « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه . (٢) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ، متفق عليه دون قوله « وعلمه التأويل » ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكما أنّ مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك ^(١) » فسؤالهم الرضا بعد النظر بهاية التفصيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقتصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سأله الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما امرؤ بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أنّ الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال الله تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى ﴿ سلام قولاً من ربهم ﴾ والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما من الأخبار : فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : « مؤمنون » فقال « ما علامة إيمانكم » فقالوا : « نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء » فقال « مؤمنون ورب الكعبة ^(٢) » وفي خبر آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ^(٣) » وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل ^(٥) » وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتهاده فإن رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمّتي أجنحة فيطيطرون من قبورهم إلى

(١) حديث « إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه ابن وهب « فيتجلى لهم يقول أنا ألقى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامى فسألوني فيسألونه الرضا ... الحديث » ورواه أبو يعلى بلفظ « ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ... الحديث » ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث : سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : « مؤمنون فقال « ما علامة إيمانكم ... الحديث » تقدم .

(٣) حديث : أنه قال في حديث آخر « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » تقدم أيضاً . (٤) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به » أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ « وقع » وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » رواه في أمالي الخاطمي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق الخاطمي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزئتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أمتهم ؟ فيقولون : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ، فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » ^(٢) .

وفي أخبار مرسى عليه السلام : إن بنى إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى عليه السلام . إلهي قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أَرْضَى عنهم . ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فليُنظر ما لله عز وجل عنده ، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه » ^(٣) .

وفي أخبار داود عليه السلام : ما لأوليائي والهم بالدنيا ، إن الهم بذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، يا داود إن محبي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره ، قال : يارب دلني عليه ، قال : فإن رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام : أى رب أى خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سألنى ، قال . فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال « أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلأى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى » ^(٤) ، ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى ^(٥) ، وفى الخبر المشهور « يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقت له الشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف » ^(٦) .

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشرين سنين فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو ، هكذا كان بدوك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

(١) حديث « إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائف من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها » رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن على القيسى ساطع ماله والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة فى ورود وغيره . (٢) حديث « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » تقدم . (٣) حديث « من أحب أن يعلم ماله عند الله فليُنظر ماله عنده . . . الحديث » أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ « منزلته » و « منزلة الله » . (٤) حديث « قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلأى . . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبي هند الدارى مقتصر على قوله « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلأى فليتأسس برأسواى » وإسناده ضعيف . (٥) حديث « قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا . . . الحديث » لم أجده بهذا اللفظ ، ولطبرانى فى الأوسط من حديث أبي أمامة « خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبين . . . الحديث » وإسناده ضعيف . (٦) حديث « يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه . . . الحديث » أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف .

والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزتي وجلالى لأن تأجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأعونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون - يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا يطق ولا يرفع رأسه - فقال له بعض ولده : يا أبت ! أمارى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا ؟ فقال : يا بني إني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لأفعله ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصمتى غاصم من أهله يقول دعوه لو قضى شيء لكان (١) . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيته ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أنعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس جرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع . فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى صيني .

وروى فى الإسرائيليات : أن عابدا عبد الله دها طويلا فأرى فى المنام : فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت : ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره ، فلم يزل يقول : تذكرى ، حتى قالت : خصيلة واحدة هى فى ؛ إن كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال : أهذه خصيلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد .

وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه . ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عني ، فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال : أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فتى يكون العبد راضيا عن الله

(١) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الخوارى : قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت : وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط ^(١) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأنفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالآلم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بآلم ذلك لشغل قلبه . بل الذي يحجم أو يخلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به ، فإن كان منغول القلب بهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأسر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداها ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يعتزم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الآلم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الآلم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال ، فن ينكشف له شيء منه فقد يبهه بحث يدهش ويفشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في ذلك فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع !

(وأما الوجه الثاني) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه يريد له - أعني بقلبه - وإن كان كارها بطبعه ، كالذي يلتبس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقصد من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الآلم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان

(١) حديث « إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال « بدمطه » وقد تقدم .

يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عايه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاء لا معنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاء محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توافقه المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قدرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كبيرا ، ترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقريب جليلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لجماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعثرها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت ؟ حية عند الله فرحة برزقي الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم .

فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها ؟ وقال الجنيد : سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا ، قلت وإن ضرب بالسيف ؟ قال : نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة - ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لاني عاشق ، فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوق كان بحذاءي ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعت زعقة خز ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله تعالى - إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم ، فلما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ؟ إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت ؟ وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعشى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا إربا ما ازددت له إلا حبا ؟ قال بشر فلما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في بحان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجتي التي ترحل

ثم نقر بالمدينة بطنه وخز ميتا ، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلتى هل أعبد أهل الأرض ؟ ندله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب يبصره فسمعه وهو يقول إلهى متعتى بهما ما شئت أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشد

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فأت الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه ، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزين رحمة له ، فلما وقع أمر الله رضينا به . وقال مسروق . كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالدريك يوقفهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الدريك ، فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم ، قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات السكلاب والخير والديك ، فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا أى شيء من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال : يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبى من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك ، فمسأله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ! وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبده معه . وقطع عروة بن الزبير رجله - من ركبته - من أكلة خرجت بها ثم قال : الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وإني كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن سعة يقول : الفقر والغنى مطبتان ما أبالى أيتهما ركبت ؟ إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل . وقال أبو سليمان الداراني : قلت قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن الرضا قد نلته ، لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملأ بي جهنم - تحلة لقسمه وبدلا من خليقته - لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه . وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بق إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار . والمبلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله : الجلاء الدمشق : قول فلان : وددت أن جسدى قرص بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ؛ ما معناه ؟ فقال : يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإهانة والنصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشى عليه . وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد - قد نقب له في سريره من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته - فدخل عليه مطرف وأخوه الولاء فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة ! قال : لا تبك فإن أحبب إلى الله تعالى أحبه إلى أمي قال : أحدثك شيئا . لعل الله أن ينفعلك به ، واكتم على حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فأنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بمقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ! فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به ؟ قال : ودخلنا على سويد بن متعبه نعوذه ، فرأينا ثوبا ملقى فاظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهل

فداؤك ما نطعمك . ما تسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعما ولا أسبغ شربا منذ كذا ، فذكر أياما ، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة - وقد كان كف بصره - جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا - وكان يجاب الدعوة - قاله عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعزفت إليه فعرفني وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم . فذكر قصة قال في آخرها : فقلت له : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بعمر ك ! فتبسم وقال : يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر ، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعتراضى عاياه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة - وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب - فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشيء كان ، ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصدته فقال له : يا حيي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال أنست به ؟ قال : لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتكم خمسين سنة مدخولة ! ومعهما أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا محبرك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتتاربروا فقال ما بالكُم ادعيتُم محبتي إن صدقتُم فاصبروا على بلائي !

وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران ؟

وقال بعض عباد أهل الشام كلّم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بهائل ظل يواريها ؛ يعني بذلك أنّ الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل لأنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري ؛ احترق السوق وما احترق دكانك ! فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين ! فتأب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالآلام لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . (والثاني) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمز مراد الحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه . كما قيل :

* فما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وهذا يمكن مع الإحساس بالآلام ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الآلام ؛ فالقياس والتجربة والملاحظة

دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقد من نفسه ! لأنه إنما فقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .
وقد روى عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدي أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت : مت راشدا ! قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا التفاق الذي تظهر لي ؟ فقال : قد علم الله أني صادق فيما أوردته ، حتى لو قلت لي مت لمت ، فقال : إن كنت صادقا فت ، قال : فتحنى الرجل وغض عينيه فوجد ميتا . وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ! قال فدهش الرجل وسقطت المعلقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك - آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال : رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فذئبت هكذا لا خير في عشق بلا موت !

ثم رمى بنفسه إلى الارض ، فحملوه ميتا . وهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أو في من كل جمالي ، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنفحات الموزونة ، والذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسمي في إلزائها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا . وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام - على ما نقلناه في كتاب الدعوات ١: ١٣٠ عليه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى التمامات من الرضا . وقد أثبت الله تعالى على بعض عباده بقوله (ويدعوننا رغبا ورهبا) وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) وقال تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع على قلوبهم) وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله » (٢) ، وعن ابن مسعود إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان

(١) حديث « الدال على الشر كفاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا .

شريكا في قتله ^(١) ، وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوق الشرور فقال تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبذلها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق ^(٢) ، وفي لفظ آخر : ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتي هذا لفعلت مثل ما يفعل ،

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا ﴾ وفي الخبر : إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن ^(٣) ، وقال عليه السلام : المرء مع من أحب ^(٤) ، وقال : من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة ^(٥) ، وقال عليه السلام : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ^(٦) ، وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا نعيده .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ^(٧) فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فسكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضاه من وجه ؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه ، فتكرهه من حيث إنه مات عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه بمقتوا عند الله وبغضه عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بنال :

(١) حديث « لو أن رجلا قتل بالمعصية ورضى بقتله آخر في المنزب كان شريكا في قتله » لم أجده أصلا بهذا اللفظ ولا ابن عدي من حديث أبي هريرة « من حضر معصية فسكراهها فكأبما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأبما حضرها » وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف . (٢) حديث « لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) حديث « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ... الحديث » لم أجده أصلا . (٤) حديث « المرء مع من أحب » تقدم . (٥) حديث « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم » أخرجه الطبراني من حديث أبي قريصة وابن عدي من حديث جابر « من أحب قوما على أعمالهم حشر في زميرتهم » زاد ابن عدي « يوم القيامة » وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف .

(٦) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة . (٧) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص « من ساءد ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « أرض بما قسم الله لك تسكن أغنى الناس » وحديث « إن الله يقسطه جعل الروح والروح في الرضا » وتقدم في حديث الاستخارة « وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضى به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل وحديث « أصالك الرضا بالقضاء ... الحديث » وغير ذلك .

فلنفرض محبوا من الخلق قال بين يدي محبيه . إني أريد أن أمير بين من يحبني ويبغضني ، وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربة يضطره ذلك إلى الشتم لي . حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لي ، فنكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوي ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة - فأنا محب له وواض به فإنه رأيتك وتدبيرك وفعلك وإرادتك ! وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه ؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للقتل ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصا في تدبيرك وتعويقا في مرادك ، وأنا كاره لغوات مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لامن حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حياء ولعدوه عدوا . وأما بغضه لك فإن أراض من حيث إنك أردت أن يبتغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك ، فهو بمقوت عندي لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث أنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى . وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه ، وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لا تحصى .

فإذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجزه ذلك إلى حب المعصية ويجزه الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ؛ ليجزه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره ، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده - أعني تسليط دواعي المعصية عليه - يدل على أنه سبق مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويمادى من أبغضه الله عن حضرته - وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته - فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغضا إلى جميع المحبين - موافقة للمحجوب بإظهار الغضب على من أظهر المحجوب الغضب عليه بإبعاده .

بهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر - الذي لارخصة في إفشائه - وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به . فن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنها جميعا منه - من غير افتراق في الرضا والكره - فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب

الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم : « القدر سر الله فلا تفشوه »^(١) ، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش ، وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبته مسبب الأسباب فكذا ذلك الدعاء سبب رتبته الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل - واستقصيناه في كتاب التوكل - فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار - أي في معرض الشكوى - وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال ودم الأظفحة وغيبتها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى . وقول القائل : الفقر بلاء وسخة والعيال هم وتعب والاحتراف كذ ومشفة ، كل ذلك قاذح في الرضا ، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فإني لأعزى أيهما خير لي .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم أن الضمير قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهدين لهم فبهلكون هزالا وضرا ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف^(٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف - وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل - وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها - لأجل التنفير عن المعصية - ليست مذمومة . فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد ! قيل : وكيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : ما رأيت بها إلا شريطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ! ولا ينبغي أن تظن أن ذلك

(١) حديث « القدر سر الله فلا تفشوه » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى في الكامل من حديث عائشة وكلاما ضعيف .

(٢) حديث : النهي عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم في آداب السفر . (٣) حديث : لأنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من الغيبة ؛ لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة - وقد كان مقامه ببغداد - يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراق جماعة : كعمرو بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ؟ بلغني أن مامن أحد يسكن العراق إلا قبض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشروفيه انداء العضال . وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشرة بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند القتييل بن عياض فجاءه صوفي متدبر بعبادة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : ببغداد ؛ فأعرض عنه وقال : يا أئيبنا أحدهم في زي الرهبان فإذا سألاه أين تسكن قال في عش الظلمة ؟ وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول : لا تقتدروا بي في المقام بها ؛ من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي ؛ قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهد زاهد وشريرم شرير .

فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها ، بل يلغى أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزوع القلب منها قائما على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذا لم يكن في شيء من أسباب نقص الدين ألبته رضا مطلق إلا من حبت لإضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت ، فقال له يوسف لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكنت لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحبة متعوب . وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة ؟ فقال أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيت مني فقد رأيت أربعين بدلا ، قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام ؟ فتبسم وقال ليس العجب بمن يرى الخضر ولكن العجب بمن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه ؛ وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك ! قيل لحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى . فقال وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل لحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك ، فقال نعم ، دعوت نفسي إلى الله لمجحت على فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد - في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر - مستوفزاً على صدور قدميه رافعاً أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضارباً ببقته على صدره شاخصاً بعينه لا يطفرف ، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى في الهواء فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، حتى عدت نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآني فقال : يحيى ! قلت : نعم ياسيدي ، فقال : مذ متى أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقالت : ياسيدي حدثني بشيء فقال : أحدثك بما يصلح لك ، أدخلني في الملك الأسفل فدورني في الملكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوى فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، أوقفني بين يديه فقال : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت : ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ! فقال : أنت عبيد حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفعلن بك ولا فعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت : ياسيدي لم لاسألتك المعرفة به ؟ وقد قال لك ملك الملوك - سلني ما شئت ، قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت ويلك ! غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواء . وحكى أن أبا تراب التخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجهته فقال له أبو تراب يوما لورأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد ، هاج وجد المرید فقال : ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثنى عن أبي يزيد ؟ قال أبو تراب : فهاج طبعي ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة ! قال : فهبت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ما قلت ، فقال : احماني إليه ، فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا دلي تل نلتظره ليخرج إلينا من الغيضة - وكان يأوي إلى غيضة فيها سبع - قال : فزبنا وقد قلب فروة على ظهوره فقلت للفتى : هذا أبو يزيد فأنظر إليه ! فنظر إليه الفتى فصدم ، فركناه فإذا هو ميت ، فتعاوننا على دفنه فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رأانا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله ، لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن لله عبادة في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ؛ ولكن لا يفعلون ، قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها ، حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها . وهذه أمور ممكنة في أنفسها لم يحظ بشيء منها ، فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عظيم وعجائب الملك والملكوت

كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضغاف مضاعفة ، فإن شئت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الامثل فالامثل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتن يتسعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي : انظر إليهن ، قال : فسجدت وغمضت عيني في سجدتي لئلا أنظر إليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك الا حاجة لي بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني .

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيسل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول : فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الاتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كورة الالتفات إلى الخلق بفيض عليه نور اليقين ويتكشف له مبادئ الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرأة ، فنظر المنكر إلى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدا والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرقى فيها عند ظهور جواهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم رائحة المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق ، كما قيل لبشر : بأى شيء بلغت هذه المنزلة ؟ قال : كنت أكاظم الله تعالى حالي . معناه : أسأله أن يكتم علي ويخفي أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لي ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت زدني ، قال وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال ألقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليملئني شيئا كان أهم الأشياء علي ، قال فرأيت ما غلب على همي ولا همي إلا أن قلت له يا أبا العباس علني شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخلق فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل اللهم أسبل علي كثيف سترك وحط علي سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واجهني عن قلوب خلقتك ، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك ، فزات أقول هذه الكلمات في كل يوم ، لحكي أنه صار بحيث كان يستدل ويمتن - حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به - فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيايسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة - وغيره الله تعالى على أوليائه تآني للإخفاء كما قال تعالى أوليائي تحت قباني لا يعرفهم غيري . وقال صلى الله عليه وسلم : رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (١) .

(١) حديث « رب أشعث أغبر ذي طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته . فقل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله ، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فمسي أن يحشر مع من أحب . ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لني لإسرائيل أين ينبت الزرع ؟ قالوا في الثراب ، فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحبة إلا في ثراب مثل الثراب . ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يردده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المزة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة السكب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال نزلت في سحابة فعرفت فيها بالصالح ، فقتلت على قلبي ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعة فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا . فلحقوني فزغوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجدوني ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق بجاس أبي يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلاثمائة سنة وقت ليها ما وجدت من هذا ذرة ! قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال فلماذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل لي حتى أعمله ، قال : لا تقبله ، قال : فاذكره لي حتى أعمل ، قال : اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحياتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك بخلا مملوء جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صنعني صفقة أعطيته جرة ، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لي مثل هذا ! فقال أبو يزيد : قولك « سبحان الله » شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك عظمت نفسك فسبحت وما سبحت ربك ! فقال : هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره ! فقال : ابتدي بهذا قبل كل شيء . فقال : لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لا تقبل ؟ . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فن لا يطبق الدواء فلا ينبغي أن يتكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا . فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا .

وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعتد بنفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله

عليه وآله وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف ^(١) » ، وقد قال عليه السلام « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ولا يراى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا ^(٢) » ، وقال عليه السلام « لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يدخله رضاء في باطل ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له ^(٣) » ، وفي حديث آخر « ثلاث من أوتيها فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية ^(٤) » ، فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأولى الإيمان فالمعجب من يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يحدد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراه الإيمان ؛ وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما اتخذ الخلق من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون لهم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقى وإن - ق بالذات لم يحد لحرق النار وجعا وإن قطع بالمنشير لم يحد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوتها في الزيادة والنقصان لا حصر له . ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله تعالى عنه « إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم ^(٥) » ، وفي حديث آخر « إن الله تعالى ثلثاته خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله هل في منها خلق فقال « كلها فيك يا أبا بكر وحبا إلى الله تعالى السخاء ^(٦) » ، وقال عليه السلام « رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضع أمتى في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجىء بأمتى فوضعت في كفة فرجح بهم ^(٧) » ، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلقة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى ^(٨) » يعنى نفسه .

(١) « حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف » ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة ، وعلى هذا فهو معضل فعلى بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده أصلاً . (٢) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان وإسم أبيه عبد الواحد . (٣) حديث « لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، ... الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير بلفظ « ثلاث من أخلاق الإيمان » وإسناده ضعيف . (٤) حديث « ثلاث من أوتيها فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية » وذكره ابن بطون وقد تقدم . (٥) حديث : « إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى . » الحديث « أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقدم وتأخير والحارث ضعيف . (٦) حديث « إن الله تعالى ثلثاته خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أسمر بن مناة عن أبيه « خلقت بضعة عشر وثلثاته خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة » ومن حديث ابن عباس « الإسلام ثلثاته شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المنيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ « الإيمان والبراز من حديث عثمان بن عفان » إن الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ... الحديث » وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة .

(٧) حديث « رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضع أمتى في كفة فرجحت بهم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٨) حديث « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة يفتتح بها

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره إظهار المحبوب وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتع اللسان عن عبارته . وقال الجنيد : حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله : صف لنا العارف والمحبة ؛ فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحبة إن سكنت هلك ، وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مربى عليم
عجبت لمن يقول ذكرت إني وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمني وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفذ الشرب وما رويت ؟
فليت خياله نصب لعيني ! فإن قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما : من بدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجده فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليت به بحفظي . وقيل : تكلم سمعون يوما في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن آدم : إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآستيتي بذكرك وفرغتني للتفكير في عظمتك ، وقال السري رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، واللاحق بغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال : الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة : إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك ، وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الحواص : المحبة نحو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات . وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للراد منه . وقيل معاملة المحب على أربع منازل : على المحبة والهبة والحياء والتعظيم ، وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين بقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحصره في الدنيا وتروجه في الآخرة : وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول - وهي باكية والدموع على خدها جارية - والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لا اشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه ، قال

فقلبي لها ؛ فعلى ثقة أنت من عملي لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أقترأ يعذبني وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين على فكيف إرادتي في المقبلين علي ، يا داود أخرج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعدي إذا أدير عني وأجل ما يكون بعدي إذا رجع إلى : وقال أبو خالد الصفار ثقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له ؛ أنكم معاصر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين ، وجهتي للمطيعين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله من أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره . وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أقعد ، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا مني إليك . وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنيمتى والعجز نفارى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حبي والجهاد خلقي وقرة عيني فى الصلاة (١) ، وقال ذو النون سبجان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الفاسقين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات ، فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا ، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والأنس ، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق .

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، وننطق بوحدانيته لإقرار الصادقين ، وأنشهد أن لا إله

(١) حديث على : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني ... الحديث » ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أحده له إسنادا .

إلا الله رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ فإله لا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكت إلا العاملون ؛ والعاملون كلهم هلكت إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للتناقض كفء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً ﴿ وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) في حقيقة النية ومعناها .

(الباب الثاني) في الإخلاص وحقيقته .

(الباب الثالث) في الصدق وحقيقته .

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيراً من العمل ، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ والمراد بذلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيته ^(٢) ، وقال تعالى ﴿ إن يريدوا إصلاً بوفى الله بينهما ﴾ لجعل النية سبب التوفيق . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ^(٣) ، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية : وقال صلى الله عليه وسلم : إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد الملائكة في صحف تحتمل فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات ... الحديث » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيته » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة . (٣) حديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ... الحديث » أخرجه مهمل من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ^(٢) ، ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسب عمله ومساويه . وكذلك في حديث أنس بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال : إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موطننا يغيب الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا نخصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة ١ قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال ، حبسهم العذر فشرکوا بحسن النية ^(٣) ، وفي حديث ابن مسعود : من هاجر يبتغي شيئا فهو له ، فهاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس ^(٤) ، وكذلك جاء في الخبر : إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ^(٥) ، لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته . وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم : من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى ^(٦) ، وقال أبي : استعنت رجلا يغزو معي فقال : لا حتى تجعل لي جملا ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له ^(٧) ، وروى في الإسرائيليات ، أن رجلا مربكبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدق به ، وقد ورد في أخبار كثيرة : من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ^(٨) ، وفي حديث عبد الله بن عمرو : من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهى ما يكون فيها ^(٩) ، وفي حديث أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم المكروه والأجير فقال : يحشرون على نياتهم ^(١٠) وقال عمر رضي الله

(١) حديث « إن العبد يعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن
(٢) حديث « الناس أربعة : رجل آتاه الله علما ومالا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنباري بإسناد جيد باللفظ « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحديث » وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه « وإنما الدنيا لأربعة نفر ... الحديث » وقال حسن صحيح .

(٣) حديث أنس « إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ... الحديث » أخرجه البخاري مختصرا وأبو داود . (٤) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغي شيئا فهو له » هاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس : أخرجه الطبراني بإسناد جيد . (٥) حديث « إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار » لم أجد له أصلا في الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحق الفراء في السنن من وجه سرسل . (٦) حديث « من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى » أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة ، (٧) حديث أبي : استعنت رجلا يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له » أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي سمي » . (٨) حديث « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » متفق عليه وقد تقدم . (٩) حديث عبد الله بن عمرو « من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله « وفارقها أرغب ما يكون فيها » ودون قوله « وفارقها أزهى ما يكون فيها » وفيه زيادة ولم أجد من حديث عبد الله بن عمرو . (١٠) حديث أم سلمة : في الجيش الذي يخسف بهم « يحشرون على نياتهم » أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم .

عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما يقتل المقتولون على النيات »^(١) ، وقال عليه السلام : « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على سراتهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألافلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^(٢) ، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يبحث كل عبد على ما مات عليه »^(٣) ، وفي حديث الأحنف عن أبي بكر : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار ، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه »^(٤) ، وفي حديث أبي هريرة : « من تزوج امرأة حلى صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أثنى من الجيفة »^(٦) .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : « اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير . وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فأني لأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، فقل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف وإن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولانهم بمعصية وانتهت إلى غير لثم . وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿ ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ يبكي ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتك أستارنا . وقال الحسن إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير ، وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد إن العبد ليقول قول مؤمن فلا بدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم بدعه الله حتى ينظر في ورعه ، فإن تورع لم بدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك

(١) حديث « إنما يقتل المقتولون على النيات » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ « إنما يبحث » ورويناه في فوائد تمام بلفظ « إنما يبحث المسلمون على النيات » ولابن ماجه من حديث أبي هريرة « إنما يبحث الناس على نياتهم » وفيه ليث بن أبي سالم مختلف فيه .

(٢) حديث « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على سراتهم : فلان يقاتل الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوعاً في الصحيحين من حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، (٣) حديث جابر « يبحث كل عبد على ما مات عليه » رواه مسلم . (٤) حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقاتل والمقتول في النار » متفق عليه . (٥) حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان » أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين ، دون ذكر : الصداق . (٦) حديث « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك » ... الحديث » أخرجه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلاً .

فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل أغنى كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلتزم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جاب الملتمس الموافق إلى نفسه ودفع الضار المناق عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشئ المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة - وليس ذلك من غرضنا - ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفي ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه - شهوة له باعثة عليه ، إذا المريد يرى الغذاء ويدلم أنه موافق ولا يمكنه تناول لعدم الرغبة والميل ولغقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة - وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجهها في قلبه إليه - ثم ذلك لا يكفي فكم من شاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو فن يقوى في نفسه كون الشئ موافقا له ، فإذا جازمت المعرفة بأن الشئ موافق ولا بد وأن يفعل ، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء - رة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل . فالمحرك الأقوى هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي ، والانبعث هو القصد والنية ، وانتهضت القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انتهضت القدرة للعمل قد يكون باعث واحد وقد يكون باعثن اجتماع في فعل واحد ، وإذا كان باعثن فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ؟ وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاوننا . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام : فلتذكر لكل واحد مثالا واسما .

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجود ، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكله وآه قام من موضعه ، فلا مرجع له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعث ، فيقال : نيته للفراغ من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها « إخلاصا » ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته .

وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شئ بمقدار من القوة كان كافيا في الحل لو انفرد . ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيقضيها الفقير وقربته ، وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لا قربته لكان يقضيها بمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب ، في قضاء حاجته ، وفقير أجني فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ، ولو لا الحية لكان يتركه لاجل أنه يوم عرفة ، وقد اجتمعا جميعا أقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول . فلنسم هذا « مرافقة للبواعث » ، والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكل قوى بمجرعهما على إلهاض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا يتفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجني الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده قريب الفقير فيعطيه ، فيسكن انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشناء ، ويسكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب . ولنسم هذا الجنس « مشاركة » ،

والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل . ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ، ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضري وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه ، فهو شوب تطرق إلى النية . ولنسم هذا الجنس « المعاونة » ،

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسندكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل « إنما الأعمال بالنيات » ، لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للشبوع :

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله »^(١) ،

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل . وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد ؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر ، وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدرم وهو ضعيف ، لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية ، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرد خيرا ؛ وظاهر الترجيح للمشركين في أصل الخير ، بل المعنى أن كل طاعة تلتزم بذية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خيرا من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل ،

(١) حديث « نية المؤمن خير من عمله » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمان ، وكلاما ضعيف ،

فغناه : نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ؛ فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقته ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار ببعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فن قال : الخبز خير من الفاكهة ، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة ، وسعادتها وتنعيمها بقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط ، ولن يتنعم بقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه وإن يأنس بربه إلا من طال ذكره له . فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوط بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعل بأن سلامته فيهما . وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الالم والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لملك الصفة حتى ترشح الصفة وتقوى بسببها . فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، وإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكده ميله ورسخ وعسر عليه الزرع ، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبع لا ضعيفا ، لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على الزرع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والابتداء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبرا ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع ويندمج . وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشروط كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الآخروية والنصرافها عن الدنيوية هو الذي نفعها للذكر والفكر ، وإن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعله بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون ، لأن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد »^(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية »^(٢) ، وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى ﴿ إن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

(١) حديث « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد » متفق عليه من حديث الثمان بن بشير وقد تقدم .

(٢) حديث « اللهم أصلح الراعي والرعية » تقدم ولم أجده .

منكم ﴿ وهي صفة القلب . فن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له .
وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصلة إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع .

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه يحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بتلبه أو ظان أنه يمسخ ثوبا - لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول بالهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساء وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا ، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قدها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا . فهذا وجه كون النية خير من العمل .

وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات ، وإنما الإتمام بالعمل يزيد بها تأكيدا ، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها لإثارة لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلهذا ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴿ والتقوى ههنا صفة القلب ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا - كما تقدم ذكره - لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد وإنما فارقوم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات . وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فأعرضنا عنها لئلا ينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاءه واستقصاؤه - فهي ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .

(القسم الأول) المعاصي ، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لا تؤثر في إخراجها عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية . بل قصده الخير بالشر - على خلاف مقتضى الشرع - شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خير ؟ هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ؛ فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ! قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال ، لأن الجهل بالجهل يستد بالكلية باب التعلم ، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم ، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه ﴿ فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يندر الجاهل على الجهل ، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه » (١) .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، وانتفض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجري الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألني سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثم العجب من جهله حيث يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم العلم يحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه : وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجليلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه

(١) حديث « لا يندر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله » . الحديث « أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله « لا يندر الجاهل على الجهل » وقال « لا يبنى » بدل « ولا يحل » وقد تقدم في العلم .

بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ^(١) ، فأيت شعري لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لأن يئده بغيره ؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى ! فن لا يزال مؤثرا لدنياء على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهوته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلورأوا منه تقصيرا في نقل من النوافل أنكروه وتركوا لإكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام مجرؤه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل ، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد ويجره وصار لا يكلمه ، فلم يزل يسأله عن تفسيره عليه وهو لا يذكره ، حتى قال . بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أئمة من شوارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم . وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالة والآكام الواسعة وأصحاب الآسنة الطويالة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها ، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران .

فإذن قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي ؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد ، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

(القسم الثاني) الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل : فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها ^(٢) ، كما ورد به الخبر .

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقرين (أولها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره ^(٣) ، (وثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ﴿ وربطوا ﴾ (وثالثها) الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف - وهو في معنى

(١) حديث « إن لله ثلثمائة خلق من تهرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء » تقدم في كتاب المحبة والفوق .

(٢) حديث : تضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، تقدم . (٣) حديث « من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسوا بإسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة .

الصوم - وهو نوع تروهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رهبانية أمتي القعود في المساجد »^(١) ، (ورابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للسكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وخامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر « من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالجاهد في سبيل الله تعالى »^(٢) ، (وسادسها) أن يقصد إفاضة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أيا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة ، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدام الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أيا مستفادا في الله ، أو راحة مستنزاة ، أو علما مستظرفا ، أو كلفة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردى ، أو يترك الذنوب خشية أو حياء .

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكر فيه . فهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات .

(القسم الثالث) المباحات : وما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى الهائم المهمة عن سهو وغفلة ، ولا ينبغي أن يستحق العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عقاب »^(٣) ، وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فئات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه »^(٤) ، وفي خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أثن من الجيفة » فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية .

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله ؟ فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الاوقات يتصور أن يقصد التمتع بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الاجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأموار أخرى لا تحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية فذلك يكون أثن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعيم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ، ومن

(١) حديث « رهبانية أمتي القعود في المساجد » لم أجده أصلا . (٢) حديث « من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالجاهد في سبيل الله تعالى » هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق واطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجه » وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح » . (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » تقدم . (٤) حديث معاذ « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فئات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » لم أجده لإسناده .

نوقش الحساب عذب . ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستمتع بما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ^(١) ، وينوى بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم

وقال الله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصده معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله . فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالباً على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها ففقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنى أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل وشرب ونوحى ودخول إلى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعاً بأكله ونكاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله ، وإذا بلغه اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيجعل سيئاته وستقل إلى ديوانه حسناته ، وينوى ذلك بسكوته عن الجواب . ففي الخبر : إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيستعجب ويقول : يارب هذه أعمال ما عملتها قط ؟ فيقال : هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك ^(٢) ، وفي الخبر : إن العبد ليؤاقي القيامة بحسنات أمثال الخبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشم هذا وضرب هذا فيقتصص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة . فتقول الملائكة : قد فقيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من

(١) حديث « إن ليس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث « ولأن داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام « ما علم أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته » وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين : أن عمر رأى حلة صبياء عند باب المسجد فقال لرسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث « (٢) حديث « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه « هذه أعمال الذين اغتابوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي مختصراً « إن العبد ليلقى كتابة يوم القيامة منتقرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تنصر » وفيه ابن الهيثم ،

سيأتهم ثم صكوا له صكا إلى النار^(١) ، وبالجمله فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تتحرز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت : تراب وما تراب ! فتربته فتهتف بي هاتف : سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقي غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الهجري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فقد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله ! فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنه من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي !

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا تقصد ، وما الذي تسال به من الدنيا ، وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتارار

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدّموا له رغيفا - إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده - فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إلى الرغيف لا تنقوى به على عملهم ، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفى وضعفت عن عملهم فالصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع القرائض وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فساكنني حتى لعق أصابعه ثم قال : لولا أني أخذته بدين لاحتجت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثنائي تعريضه أخاه لما يكره لوعله . فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية توقّف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخله تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو أكل لله . ويظن ذلك نية وهيئات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضا إما عاجلا وإما آجلا . والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبان : نويت أن أشتى الطعام وأعيل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقنبي ، فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب

(١) حديث « ان العبد ليوفى القيامة بمحسنت أمثال الجبال » وفيه « ويأتى قد ظلم هذا وشم هذا ... الحديث » يخدم مع اختلاف

صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك بما قدم يقدر عليه وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل لإجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنياً لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح ^(١) اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضائلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية . نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أولاً إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنغرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركت تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد ، فإذا انتفضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً ، فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية ، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس تحضرني نية . ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري ، فقالت : أجيء بالمرأة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرأة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى . ومات حماد بن سليمان - وكان أحد علماء أهل الكوفة - فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته ؟ فقال : لو كان لي نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول : إن رزقني الله تعالى نية فعلت . وكان لطاوس لا يتحدث إلا بنية ، وكان يسئل أن يتحدث فلا يتحدث ، ولا يسئل فيبتدئ ! فقيل له في ذلك قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرته نية فعلت . وحكى أن داود بن الحبر لما صنف : كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت ، قال أحمد : فرده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال : جزاك الله خيراً فقد انتفعت به . وقيل لطاوس : ادع لنا ! فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعبادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال : ليس من نيتي .

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية ، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تيسر في بعض

(١) حديث « ان النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » تقدم في آداب النكاح .

الأوقات وقد تتعذر في بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيتته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاما ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها . ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله لإجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل لإجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتمظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعد في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه - كالأجير السوء - ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجلاله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم في الجنة فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ! بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجهه الله الكريم يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعنى أكثر القلوب عن إبطار جمال الله وجلاله يضاهى عنى الخنفساء عن إدراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنن عقل من يلتفت اليهن ﴿ ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم ﴾ . حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له : كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني ، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وأعمالك إلى . وروى الشبلي بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائي .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء : فإننا نقول : من حضرته له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له . بل لو مل العبادة

لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال على كرم الله وجهه : رَوَّحُوا القلوب فإنها إذا أكرهت عمت . وهذه دقائق لا يدركها إلا سيطرة العلاء دون الحشوية منهم ، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوقا قوته ليحتمل المعالجة بالضد ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه . وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قريبه ويولي دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكثر عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على اطائف من الحيل يستبدها الضعفاء ، فلا ينبغي للريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته ومالا يفهمه من أحوالها يسلمها إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتتهما ومن الله حسن التوفيق .

الباب الثاني : في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته .

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وقال تعالى ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمده عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم لإخلاص العمل لله ^(١) » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم ^(٢) » وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي ^(٣) » وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يحزك منه القليل ^(٤) » وقال عليه السلام « ما من عبد يخلص لله العمل أرهين يوماً بما لا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٥) »

الباب الثاني في الإخلاص

- (١) حديث « ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم : إخلاص العمل لله » أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير .
- (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه : أنه طس أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم » رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ « هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم » .
- (٣) حديث الحسن سرسلاً « يقوله الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي » ورواه في جزء من مسلمات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواه : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيني عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وما من الزهاد ورواه أبو القاسم الفشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضيف .
- (٤) حديث أنه قال لمعاذ « أخلص العمل يحزك منه القليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع .
- (٥) حديث « ما من عبد يخلص لله أربعين يوماً » أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وثله تقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام : أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول : يارب كنت أقوم آتاه الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فإذا صنعت فيقول : يارب كنت أتصدق به آتاه الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول : يارب أسرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك ، قال أبو هريرة ، ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب وقال : يا أبا هريرة أرتلك أول خلق تسمر نار جهنم بهم يوم القيامة (١) ، فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزحف ثم قال : صدق الله إذ قال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الآية

وفي الإسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرًا طويلا لجأه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة ، قال : وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتترغى لنير ذلك ؟ فقال : إن هذا من عبادتي ، قال : فإني لا أتركك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس : أطلقني حتى أكللك ، فقام عنه فقال إبليس : يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبد بها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ، فقال العابد لا بد لي من قطعها ، فتابذه للقتال فقلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فمعجز إبليس فقال له : هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع ؟ قال : وما هو ؟ قال : أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعملونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتسمع وتستغنى عن الناس ؟ قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللسلدين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها ؟ فتفكر العابد فيما قال وقال : صدق الشيخ ! لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا . فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها ، قال : فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال : هيات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالصفيور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال : لتفتن عن هذا الأمر أو لأذبحنك ؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به ، قال : يا هذا غلبتني غل عنى وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن ؟ فقال : لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك ، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

(١) حديث « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ... الحديث » قد تقدم .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السخيتاني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صني له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لفطنها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيها في كفة الحسنات ، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيته له ثوبا فقلت : موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها ؟ فقيل لي : إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك : قدماء ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لا على ولا لي . قال سفيان - لما سمع هذا - ما أحسن حاله ؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتميز اللبن من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه جمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فتر به بعض إخوانه من الأبدال فساؤه بشيء فقال أبو عبيد : لا ، فتر كالسحاب يسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال : سألى أن أحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهل فعلت ؟ قال : ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججبت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنى أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . ويروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر ففرض بعضنا مخلاة ، فقلت أشتريها فأتبغع بها في غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعثت فربحت فيها ، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة ، فأملى عليه ، خرج فلان متنزها وفلان مرأيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ، ثم نظر إلى وقال : اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله في أمري ما خرجت أنجر وما معى تجارة أنجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت : لا تكسبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى ؟ فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليبيع فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سري السقطي رحمه الله تعالى : لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خيرا لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعائة بعلو وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاه الأبد ولكن الإخلاص عزيز . ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا ، أعطاه محبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه

الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسي : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إن لله عبادة عقلوا فلهما عملوا فلهما عملوا فأستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزي : الأمر كله يرجع إلى أصليين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل . فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ، ويسمى الفعل المصفي المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص بضادته الإشراف ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص في التوحيد يضادته التشريك في الإلهية . والشرك - منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصد والنيات . وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك . ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات . وأفل أموره ماورد في الخبر من « إن المرأى يدعى يوم القيامة بأربع أسام : يامرأى ياخذاع يا مشرك يا كافر (١) » .

ولما نتكلم الآن فيمن اتبعه لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم ليتنفع بالحياة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبد ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده ، أو يهرب عن عدو له في منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما . أو ليفوز ويمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهية العساكر وجرحها . أو يصلى بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعلم عن الأطماع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث . أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمة وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا في الدنيا . أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء . أو تواضعا ليتنظف أو يتبرد . أو اغتسل لتطيب رائحته . أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن . أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى

(١) حديث : « ان المرأى يدعى يوم القيامة : يامرأى ياخذاع . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السج والإخلاص وقد تقدم .

ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، وبالجمله ، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب . قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه . والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته فلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجما . وذلك لعزة الإخلاص وعسر تقيية القاب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الامر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون فى رتبة الموافقة أو فى رتبة المشاركة أو فى رتبة المعاونة - كما سبق فى النية - وبالجمله ؛ فيما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر - كما سذكره - وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء . وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرهته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبله ، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لو كنى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى . فكل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ؛ فالذى يغلب على نفسه : الدنيا والماق والرياسة - وبالجمله غير الله - فقد اكتمت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا . فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجوز للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذا ذلك يتيسر الإخلاص . وكما من أعمال يتعمب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول لآنى تأخرت يوما لعذر فضليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى ، فعرفت أن نظره الناس إلى فى الصف الأول كان مسرقى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر . وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل هل ننسبكم بالآخرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة المثلوه ، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترى الواعظ يمن عن الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ،

وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أفرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو آتوا بقولك لكنت أنت الماثب واغنيامك لغوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده . وايت شمري لو اغتم عمر رضى الله عنه بتهدى أبي بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمدا أو مذهبوما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما . لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر . فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخباؤه بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس . وطال اشتغاله بامتحانها ، فعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الغد وهو المستثنى في قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر .

بيان أقوال الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد روية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج لإخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشاره إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعريض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالغرض ، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صادق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل : أى شئ أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا . والعابد لأجل التمتع بالشهوات في الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعدّه الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه ؛ فحركاتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان روية

الحلق بدوام النظر إلى الخالق فقط . وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيمكثبه ؛ فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق . وهذا أجمع المقاصد . وقال المحاسب : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء . وكذلك قول الخواص - : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمد عليه أحد . وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها . وهذا هو البيان الكامل والآفويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال : أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت ^(١) ، أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا .

فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا في صلاته ؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ؛ فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ؛ وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان . فيأتيه في معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنتم وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه فعماء يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ؛ وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ؟ فهذا محض التلبس ، بل المقتدى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه

(١) حديث : سئل عن الإخلاص فقال : أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت . لم أره بهذا اللفظ والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت : يارسل الله حدثنى بأمر أعظم به قال : قل ربى الله ثم استقم . وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم .

فأما هذا فحض النفاق والتلبيس ، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما من فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به .

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها ؛ أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتذبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ، ويصلى في الملاء أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفات في الخلوة والملاء إلى الخلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يروى بأن تستوى صلاته في الخلا والملاء وهيات ! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملاء جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملاء والخلا جميعا ، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه قد تغلب لذلك فيقول له الشيطان : تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه . انتهى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والبداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص بحضورها بحاجة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألوه في الخلوة كما يألوه في الملاء ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فإدام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديبب الغلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) ، كما ورد في الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم المنتسرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب ، فإن هذه سنن في أوقات مخصصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، ومالا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتعكف في مسجد معمور لظيف حسن العبارة يأنس إليه الخلق فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف ، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأناس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها ما يظلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه . ومنها ما يبدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغضض من ذلك وأدق كثيرا .

(١) حديث « الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديبب الغلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة » تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

ولهذا قيل : ركنتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، فإنَّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادى إلى حرمة الدينار الموقو واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه ، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبي . فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم . ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليمتنع بما ذكرناه مثالا ، والفتن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أنَّ العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنَّ ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب العقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب ، وظاهر الأخبار تدل على أنه لأثواب له ^(١) ، وليس تخلوا الأخبار عن تعارض فيه . والذى ينقدح لمسا فيه - والعلم عند الله - أن ينظر إلى قدر قوة الباعث . فإن كان الباعث الدينى مساريا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وحار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بتافع وهو مع ذلك مضر ومفرض للعقاب . نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجوز للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب . وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴿ ولقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد . وكشف الغطاء عن هذا أنَّ الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وقته . وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها . فإذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته ، فيسكون بعد تناولها كآبه لم يتناولها ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفعك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو لإبعاده ، وإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لأثواب له قال : وليس تخلوا الأخبار عن تعارض رواء أبو داود من حديث أبي هريرة : أن رجلا قال لرسول الله رجل يبتلى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتلى مرضا من مرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأجر له ... الحديث » وللناس من حديث أبي أمامة بإسناد حسن : رأيت رجلا غزا ياتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال « لا شيء له » فأعادهما - ثلاث مرات - يقول « لا شيء له » ثم قال « لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتلى به وجهه » ولترمذى وقال غريب وابن جبان من حديث أبي هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء .

فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : أتبع السيئة الحسنة تمحها ^(١) ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقبيه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، إنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمدين والتابع فلا ينفعك نفس السفر عن ثواب ما . وعندى : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين حجة لا غنيمة فيها ، وبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي والمزيج القوي هو لإعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب . نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب ، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بصطع المعروف - أو قال يتصدق - فيجب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت (فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) ^(٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أدنى الرياء شرك ^(٣) ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره من عمله له ^(٤) ، وروى عن عبادة : أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيره ودعت نصيبى لشريكى ، وروى أبو موسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(٥) ، وقال عمر رضي الله عنه : تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له ^(٦) ، ٩ فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله : من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا ، وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها ، وأما لفظ الشركه حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له

(١) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » تقدم في رياضة النفس وفي التوبة . (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بصطع المعروف - أو قال يتصدق - فيجب أن يحمد ويؤجر فنزلت (فن كان يرجو لقاء ربه) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسل وقد تقدم في ذم الجاه والرياء ، (٣) حديث معاذ « أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم . (٤) حديث أبي هريرة « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره من عمله له » تقدم فيه من حديث محمود بن أبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة « من عمل عملا أشرك به معي غيره تركته وشريكه » وفي رواية مالك في الموطأ « فهو له كله » . (٥) حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » تقدم فيه . (٦) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له » تقدم في الباب الذي قبله .

ولاعليه ، فلا ينبغي أن يرحى عليه ثواب . ثم إن الإنسان عند الشركة أبنا في خطر فإيه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التسايط ، ويحوز أن يقال أيضاً : منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص فى الغزو . وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث ترجحه إلى مجرد الغزو - وإن لم يكن غنيمة - وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداها غنية والآخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء - لإعلاء كلمة الله وللغنيمة - لاثواب له على غزوه البتة ، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الدور ، فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله وبكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقظه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وباله أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لأعتد بما ظهر من عملي . وقال عبد العزيز بن أبي رقاد . جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ، ليته لالى ولا على . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويحرق فى أعماله فتسكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما - يريد إخلاص الحركات - فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة وبطالته بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سعيد : لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك .

الباب الثالث : فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »^(١) ، ويكنى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال

الباب الثالث فى الصدق

(١) حديث « إن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح : الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر . وقال بشر ابن الحارث : من عامل الله بالصدق استرحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : السدنى وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل للحكيم : ما رأيت صادقا ! فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد بن علي الكتاني قال : وجدنا بين الله تعالى مبهيا على ثلاثة أركان : على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود من صدقتني في سريرة صدقتني عند المخلوقين في علانيته . وصاح رجل في مجلس الشبلي وري نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيها كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة - ولا يتم بعضها إلا ببعض - الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها : لا كثر أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخشى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشق من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لذى النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التق والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السكال فقال « قول الحق والعمل بالصدق ^(١) » ، وعن الجنيد في قوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ،

(١) حديث ابن عباس : سئل عن السكال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ ،

وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صادق لأنه مبالغة في الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان :

(أحدهما) الاحتراز عن المعارض ؛ فقد قيل : في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجرام وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع يلزم أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره ^(١) ، وذلك كي لا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا ^(٢) » ، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فهما ح . قصده وصدقت نيته وتجزدت للخير إرادته صار صادقا وصدقا كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكى عن بعضهم ، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته : خطى بأصبعك دائرة وضعى الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا ، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار . فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة (والكمال الثاني) أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجى بها ربه كقوله ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ﴾ فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب . وكقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ وقوله : أنا عبد الله ، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقا ، ولو طواب يوم القيامة بالصدق في قوله : أنا عبد الله ، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله . وكل ما تقيد العبد به فهو عبده كما قال عيسى عليه السلام : يا عبید الدنيا ! وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « تس عبد الدينار تس عبد الدرهم وعبدا لخلعة وعبدا لخنيسة ^(٣) » ، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له .

وإنما العبد الحق - لله عز وجل - من أعنت أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا ، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لخلعت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبه وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

(١) حديث : كان إذا أراد سفرا ورى بغيره : متفق عليه من حديث كعب بن مالك . (٢) حديث « ليس بكاذب من أصلح بين الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم . (٣) حديث « تس عبد الدينار ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يمتق أيضا عن إرادته الله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا . وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركة تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتمس واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا : فهذا هو معنى الصدق فى القول .

(الصدق الثانى) فى النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا . كما روينا فى فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) - فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد . وكذلك قول الله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق لسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر . وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يمتد ما يقول فكذب فى دلالاته بقرينة الحال على ما فى قلبه ، فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص - فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم ؛ فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه . إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه - أو بشطره ، أو إن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهمالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هو الذى تصادف عزمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد : بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أعدم فتضرب عتقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر - رضى الله عنه - فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورايه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبى بكر الصديق .

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم

(١) « حديث الثلاثة : حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ... الحديث » تقدم .

والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراي الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ! قال : فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال : وإها لريح الجنة ! إن أحد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بذت النضر : ما عرفت أخى إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١) ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير - وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر ﴾ (٢) وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا وورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته - قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة (٣) ، وقال بجاهد : رجلا نخرجنا على ملا من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى ما لا نتصدق فبخلوا به فنزلت ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبتهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا . وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن الناس قد تسخروا بالعزم ثم تكسب عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن لاني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم . وقال أبو سعيد الخزاز : رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لى : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

(الصدق الخامس) فى الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تبدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن

(١) حديث أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول ﴿ رجال صدقوا ﴾ الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والسائق فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر . (٢) حديث : وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية . أخرجه أبو أمامة فى الحلية من رواية عبيد بن عمير حرسلا . (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب : الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ... الحديث « أخرجه الترمذى وقال حسن .

المرائى هو الذى يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إغرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الاعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا لإياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلائية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة (١) ، وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى فقد عزّ فى الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار فى السوق نافق ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال عطية بن عبدالغافر : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن نورة : من يدلى على بكاء بالليل بسام بالهار . وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشئ كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له . ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلائية منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة . ويبيكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية .

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهو والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه ، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هى الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرا هذه الآية فقيل له : سألتك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرا هذه الآية (٢) .

ولنضرب للخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ،

(١) حديث « اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى » . الحديث « تقدم ولم أحده . (٢) حديث أبى ذر : سأته عن الإيمان فقرا قوله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ رواه محمد بن نصر المروزي فى تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده له إسنادا .

ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذا خاف ، سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنقص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لا يبتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المخذور . ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها »^(١) ، فالحقيقة في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقا فيه . فعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك » فقال لا تطيق ذلك قال : « بل أرى » فوأعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق - يعنى جوانب السماء - فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مفشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا » قال : وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعل كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوضع^(٢) يعنى كالصفيور الصغير ، فانظر ما الذى يغتاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد ؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى »^(٣) . يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما : إن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حق في دين الله . وقال مطرف : ما من الناس أحد إلا وهو أحق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير^(٤) ، فالصادق إذن فى جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لانهية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف : ماصليت صلاة منذ أسلمت لخذت نفسى حتى أفرغ منها ، ولا شيعت جنازة لخذت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا أعلمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبي عليه السلام . فهذا صدق فى هذه الأمور ، وكل قوم من جلة الصحابة قد ادوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ؟ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه . والكتابات المسأورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم

(١) حديث « لم أر مثل النار نام هاربها الحديث » تقدم . (٢) حديث : قال لجبريل « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك » فقال : لا تطيق ذلك ... الحديث . تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أخضر من هذا ، والذى ثبت فى الصحيح أن رأى جبريل فى صورته مرتين . (٣) حديث « مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيدى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل . (٤) حديث « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير » لم أجده أصلا فى حديث مرفوع .

والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض - وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام - وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى ﴿ هو اجتباكم ﴾ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي . فإذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب - على كل جارحة : ما اجتريحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن من معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لحابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فينفحات فضله أَسَمَت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلى عن القلوب ظلمات الجهول وانقشعت ، وبتأيدته ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندمعت ، وبلطف عنايته تترجع كفة الحسنات إذا فقلت ، وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت ، فنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الاتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه وبهولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجمد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ فمعرفة أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقدشون (٥٠ - إحياء علوم الدين - ٤)

في الحساب ويطالبون بمناقبيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الاخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الانفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقذ ، سيمااته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ فربطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة . ثم بالمعاقبة . فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفصيلتها وتفصيل الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمجاهدة . فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المراقبة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلوبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالاعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستنصرها فيما يركبها كما يستعين التاجر بشريكه وغلामه الذي يتجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يرم منها إلا الحياة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوق وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعم العقبى ، ثم كيفما كانت فصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تبين عنه صاحبه انتقالا

لحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها . فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل . فإذا أصبح العبد وفرغ من فرضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهاني الله فيه وأنسا في أجلى وأنعم على به ولو توفاني لكنت أمتنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبى

أنك قد توفيت ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأناس جوهر لا قيمة لها واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسنة التي عملها في تلك الساعة فينالها من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لادهمهم ذلك الفرح عن الإحساس بآلم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها ريح غمامة وهي الساعة التي عصي فيها فينالها من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه ^(١) ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الرجح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته ، وناهيك به حسرة وغنا . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانتي ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميل إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرتة لا يطاق وإن كان دون آلم النار . وقد قال بعضهم : هب أن المسىء قد عني عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يوم يحصمكم ليوم الجمع ذلك عزم التغابن ﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليأس والرجل ، وتسليمها إليها فليها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلائنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنابته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتركبة النفس ومذمة الخلق والاطمعة واللعن والدعاء على الأعداء والمهارة في الكلام وغير ذلك . مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله . مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصمته فكرة و ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال

كتاب المحاسبة والمراقبة

(١) حديث « ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسنة ... » الحديث بطوله لم أجده أصلا .

واجتناب الشهوات ، ويمتنع من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة . ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها . هكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تستكثر عليه في اليوم والليلة ، ثم التوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطواعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، ولكن لا يحاوكل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يحلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذر ما يغيب الإهمال ويعظمها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد : فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما أنتم تعملون ﴾ وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيقنوا ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ ذكر ذلك تحذيرا وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت : أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه ، إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانتبه عنه ^(١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والجاهل من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) . دان نفسه : أي حاسبها . ويوم الدين : يوم الحساب . وقوله ﴿ أمثال لمدنيون ﴾ أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيشوا للعرض الأكبر : وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله ؟ قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاء بالدرّة وقال : إلا من حاسب نفسه ، فقال لكعب : يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

المراقبة الثانية : المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظاتها

(١) حديث عبادة بن الصامت « إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ... الحديث » تقدم .

(٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » تقدم .

بالعين الكائلة فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولندكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه »^(١) ، وقال عليه السلام : « عبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) ، وقد قال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وقال الله تعالى ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى ؛ فسأله عن تفسيره فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبنى على أصلين ؛ أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص ، إذا جلست للناس فكن واضظا لنفسك وقلبك ولا يغترنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه : كتب تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعا لا يراى فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك أن تكرم . وحكى أن زليخا لما سمعت يمسح عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف : مالك ؟ أنتسحين من مراقبة حماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ؛ وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال : ممن أستحي وما يراى إلا الكواكب ؟ قالت : فأين مكوكبها ؟ وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن دهر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل . وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة ، قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني ، والذين أثبتت أصلابهم من خشيتي ، وعزني وجلالي إلى لا هم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الله تعالى . وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة وانفظة . ويروى أن الله تعالى قال للملائكة : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي أجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ فقال معناه . ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وترقّد لمعاده . وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب

(١) حديث : سأل جبريل عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « عبد الله كأنك تراه » . الحديث « تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه ينيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناسطين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي : عطي ، فقال : لئن كنت إذ أعصيت الله خالما ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة من لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء من يملك الوفاء . وعليك بالحدز من يملك العقوبة وقال فرقد السنجي إن المفايق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فمررنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال لى ملوك ، فقال قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال فأين الله ؟ قال فبكي عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا غدا الكرامة وأرجو أن أعتقك في الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب والصراف الهم إليه ، غن احتراز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى هذه المراقبة حالة للقلب يشعرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أفعالا في الجوارح وفي القلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته لهما ، وانصرافه إليه . وأما المعرفة التي يشعر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الصائر عالم بالمراثر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشارة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا - أعنى أننا خلت عن الشك - ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ؛ فرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعالم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة سائر الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقفون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، فراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين ؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فإنها تتعطل عن الالتفات إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد . بل يستد الرعية من ملك كعبة الراعى ، والقلب هو الراعى ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عيذه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يتر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بهضم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي لمركنى . ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة للملوك الأرض ، حتى إن خدام الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بهم من مهمات الدنيا فيغوص

الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده ويفسى الشغل الذي نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة ! فسا كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عبته ؟ فقال من موضع كذا - وكان طريقه على السوق - فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام : أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يتراهم وواحد جالس بعيدا منهم . فتقدمت إليه فأردت أن أكله فقال : ذكر الله تعالى أشهى ! فقلت وحدك ؟ فقال : معي ربى وملكاى ! فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وفام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبي الحسين النوري ، وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذبارى فقال لي عيسى بن يونس المصرى - المعروف بالزاهد - ان في عصور شاما وكهلا قد اجتماعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما لظنرت لعلك تستفيد منهما ؟ فدخلت صرنا وأنا جامع عطشان وفي وسطى خرقة وليس على كتفى شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسندت عليهما فما أجباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما على السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقول شغلك حتى تنفزع إلى لقائنا ؟ قال : فأخذ بكليتي ثم طأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صليتا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى ، فلما كان وقت العصر قلت : عطشى ! فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة ، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا ، فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لعل أن أنتفع بهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبتة على قلبك ، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله ، والسلام ؛ قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب اليقين ؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم وعلى قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا معالما عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضر بك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء ، فإن

مشاهدته وإن كانت لاتدهشك ولا تستغفرك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغفرك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه . فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى .

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظرقبل العمل ، ونظر في العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن مظهره وتحركه بفعله خاطره أهو الله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استجيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه ، فإن في الخبر : إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث : لمن ؟ ^(١) ومعنى لم ، أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملكت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ، فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره وروفته وصفته إلا بعلم فيقال له : كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له : لمن عملت أوجه الله خالصا وفاء بقولك « لا إله إلا الله » فيكون أجرك على الله ؟ أو لمرامة خلق مثلك فخذ أجرك منه ؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك ؟ وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبدا لي تأكل رزقي وترفقه بنعمتي ثم نعمل لغيري أما سمعتني أقول (إيا الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) ويحك أما سمعتني أقول (ألا لله الدين الخالص) فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليسكن الأجواب صوابا ، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أئمة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ « إن الرجل ليستل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه ^(٢) » وقال الحسن ، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر . وقال في حديث سعد حين أوصاه سليمان « اتق الله عند همك إذا هممت ^(٣) » وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل . فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فحق لم يعرف نفسه وربّه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهيمته وفكرته وسكونه وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة . بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسنون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيات ! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم

(١) حديث « ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثاني كيف . والثالث لمن » لم أتف له على أصل .

(٢) حديث : قال لمعاذ « إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه . . . الحديث » تقدم في الذي قبله . (٣) حديث سعد حين أوصاه سليمان أن : اتق الله عند همك إذا هممت » أخرجه أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم .

أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتق ذلك ، والجاهل لا يعرفه فكيف يحتز منه ؟ فلا يزال الجاهل في تدب والشيطان منه في فرح وشماتة ، فنعدو بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران . لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه الله تعالى فيمضيه أو هو طوى النفس فيتقيه ويرجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما دراهم يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيفتكر في ذلك بنور العلم ويستعين بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى ، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستغنى بنور علماء الدين ، وليفتقر من العلماء المضلين المقلبين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبت أولئك قطاع الطريق على عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستغنى بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا ؟ فلتكن همه المريد أولا في أحكام العلم ، أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والمقل السكامل عند هجوم الشهوات (١) ، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات . ولذلك قال عليه السلام : من قارف ذنبا فارق عقل لا يعود إليه أبدا (٢) ، فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعتمد إلى محوه ومحقة بمقارفة الذنوب ، ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست في هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصرات النائرة في اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجزؤوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر : أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المنتبذ (٣) ، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض في شبهه بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (٤) وقوله عليه السلام : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث (٥) ، وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . والصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه : اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتابع الهوى وقال عيسى عليه

(١) حديث « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر الدقني ضعفه الجمهور . (٢) حديث « من قارف ذنبا فارق عقل لا يعود إليه أبدا » هدم ولم أجده . (٣) حديث « أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المنتبذ » لم أجده . (٤) حديث « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ... الحديث » تقدم . (٥) حديث « إياكم والظن ... الحديث » تقدم .

السلام . الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه ^(١) ، وقد كان من دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم ^(٢) » ، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وأراد به العلم وقال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن علينا للهدى ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وطافعة الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدملك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرا القوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه وزرق يطلبك فإن لم تأته أنك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب بما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تشكركن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهملك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة » ، فإذا نظر الأول للرقاب نظره في الهم والحركة أمى الله أم للهوى ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يرائي بشيء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدين والآخرة والثاني للآخرة على الدنيا ^(٣) » ، وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ^(٤) » .

النظر الثاني للرقبة عند الشروع في العمل ، وذلك بتفقد كينية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه وبكامل صورته ويتعاطاه على أكل ما يمكنه ، وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم « خير المجالس ما مستقبل به القبلة ^(٥) » ولا يجلس متربعا إذ لا مجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه ، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام . فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة - مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها - فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فراعاه لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذا نخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .

(٢) حديث « قال عيسى الأمور ثلاثة ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم » لم أجده . (٣) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » تقدم . (٥) حديث « خير المجالس ما مستقبل به القبلة » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير .

وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليسة لابتدأ له من الصبر عليها ونعمة لابتدأ له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لا يتعد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما تقضت في مشقة أو رفاهية . وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلهذا آخر أنفاسه وهو لا يدري ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدرك الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم (١) » ، وما روى عنه أيضاً في معناه « وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للطعم والمشرب (٢) » ، فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباسطة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه - كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر - وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مهوورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون في الصنعة الصانع ويرفون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ الحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى

(١) حديث أبي ذر « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ... الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه
١ سئل الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم . (٢) حديث « وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي ربه .. الحديث » وهي بحجة حديث أبي ذر الذي قبله .

الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملوك وذلك عزيز جدا .
 وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جلته ،
 ويذمون منه ما لا يوافق هوامهم ويعيبونه ويذمون قاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطيبخ
 والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي
 صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر (١) ، فهذه المراقبة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام
 والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

المراقبة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولندكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقةتها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ وهذه إشارة إلى
 المحاسبة على ماضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل
 أن توزنوا ، وفي الخبر : أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى فقال : « أمستوص أنت ؟ » فقال
 نعم ، قال : « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانتبه عنه ، وفي الخبر وينبئ للعاقل أن
 يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾
 والثوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب
 إليه في اليوم مائة مرة (٢) » وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾
 وعن عمر رضى الله عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرّة إذا جنّه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم ؟ وعن ميمون
 ابن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريك أن يتحاسبان بعد
 العمل . وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس
 أحب إلى من عمر ، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز على من عمر . فانظر كيف
 نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته - فتدبر
 ذلك - فجعل حائله صدقة لله تعالى ، ندما ورجاء للعوض بما فاته (٣) .

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بئيك وغلطانك ما يكفونك هذا ،
 فقال أردت أن أجرب نفسي هل تتكره ؟ وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله ، وإنما خف الحساب
 على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .
 ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيئات
 حيل بيني وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا ؟
 والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله ! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى
 عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعتة يقول - وبينى وبينه جدار - وهو في الحائط : عمر

(١) حديث « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « إني لأستغفر الله
 وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » هدم غير مرة . (٣) حديث أبي طلحة : حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حائله صدقة .
 هدم غير مرة .

ابن الخطاب أمير المؤمنين بن يخ ١ والله لتتقين الله أو لبعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ قال : لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ؛ ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكثي ؟ ماذا أردت بشرتي ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه ؛ ألسنت صاحبة كذا ، ألسنت صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألومها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد عاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح . وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعاني أبنائها . ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأطالج سلاسلها وأغلها ، فقلت لنفسي يا نفس أى شيء تريدن ؟ فقلت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت : فأنت في الآمنية فاعمل . وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحاسب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكاني . وحكى صاحب للأخف ابن قيس قال : كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يحىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : يا خفيف ماحلك على ما صنعت يوم كذا ؟ ماحلك على ما صنعت يوم كذا ؟ .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها - كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواتها . ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركة في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، ورجحه النوافل والتهنئات ، وخسرانه المعاصي . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمانة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط - كما يصنع التاجر بشريكه - وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغيب في شيء منها فينبغي أن يتق غيبنة النفس ومكرها فلا يخذاعه ملبسة مكارة ، فليطالها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدنى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليه وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها : فبالفراصة والضمان ، وبعضها : برد عينه . وبعضها

بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة . كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسبا لنفسه ؛ لحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، لحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ؛ ولورمى العبد بكل معصية حجرا في داره لا مثلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملل كان يحفظان عليه ذلك ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ .

المرابطة الرابعة

في معاينة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذه ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فكسك كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيات هيات ! رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود في صومعته لا يكون والله ذلك أبدا ! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والتلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ؛ فشكر الله له ذلك وأذن في بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكربي يقول : أصابني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فخذتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأتخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسي فقلت : واعجبا أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ! وآليت أن لا أزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس ، ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحاظلة إلى ما يضرك . ونظر بعضهم نظرة واحدة امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينفص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عمالا يعنيك ؟ لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا : إنه نائم ، فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولنا وقلنا له : ألا نوقظه لك ! فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أفأتك وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء ! وما يدريك أن هذا ليس وقت

نوم ؟ تسكمين بما لا تعدلين ؟ أما إن الله على عهدا لا أنقضه أبدا ! لا أوسدك الأرض لنوم حول إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سوأة لك أما تستحين ! كم توبخين ؟ وعن غيكة لاتنئين ؟ قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى ، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها بتهجد ؛ فقام سنة لم يمت فيها ، عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوق ! ونار جهنم أشد حرا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتني نفسى ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ، ثم قال لأصحابه : تزودوا من أخيك ، لجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لى ! يا فلان ادع لى فقال ! النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . لجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم سدد ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأبهم ^(١) وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض لى منها فكيف أعطيها شهواتها ؟ ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات - وهو فى يذته على التراب - فقال : يا داود سبحنت نفسك قبل أن تسجن وعدبت نفسك قبل أن تعذب ، فالיום ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه : أن رجلا تعبد زما ، ثم بدت له لى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت لإحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع لى نفسه وقال : منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك ! فنزل لى ملك وقال : يا ابن آدم ؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا فى غزاة لنا فخطر العدو ، فصيح فى الناس فقاموا لى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لا عرضنك اليوم على الله أنخذك أو تركك ! فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته لحمل الناس على عدوم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حل على الناس فأنكشفوا فكان فى موضعه ، حتى أنكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل ، فو الله ما زال ذاك دأبه حتى رأيت صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة : لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرّة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم ؟ وعن يجمع : أنه رفع رأسه لى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه لى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه : ويحك ! إنما أريد بك الخير . ورأى محمد بن بشر داود الطائى ، وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ! فقال له : لو أكلته بملح ! فقال : إن نفسى لتدعونى لى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا .

فكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدتك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل

(١) حديث طلحة : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا . . . الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى محاسن النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا يتطوع أو سهو ، ولا أدري من طلحة هذا .

نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك ، وضرك من طغيانها أعظم من ضرك من طغيان أهلك ، فإن غابهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنقص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المراقبة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فيذبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتدارك لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعرق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعرق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبار من فضل المجتهدين ^(١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله يجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد ، وقد انقضى نعيمهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدره ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى ومأمم مرضى ^(٢) » ، قال الحسن : « أجهدتهم العبادة » قال الله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ويحافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ^(٣) » ، ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة : « ما بال عبادى مجتهدين » ، فيقولون : « لها خوفتهم شيئا يخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه » فيقول الله تبارك وتعالى : « فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا » ، وقال الحسن : « أدركت أقواما وصحت

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » وله وللسانى وابن ماجه من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح « رحم الله رجلا قام من الليل فعلى وأيقظ امرأته » ولترمذى من حديث بلال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ... الحديث » وقال هريث ولا يصح وقد تقدم فى الأوراد مع غيره من الأخبار فى ذلك .

(٢) حديث « رحم الله أقواما تحسبهم مرضى ومأمم مرضى » لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع لاسكن رواه أحمد فى الزهد موقوفا على علي فى كلام له قال فيه : ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض . (٣) حديث « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « عن » وهو مدلس ولترمذى من حديث أبى بكر « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن . صحيح وقد تقدم

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهم كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تغطونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليمش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم ، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحك أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يمدونه في مرضه ، وإذا فيهم شاب نازل الجسم ، فقال عمر له : يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمرض ، فقال : سألتك بالله إلا صدقتني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فرجدها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عند ذهبيها وحجرها ، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم : كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال : يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما أنظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ا فقيل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظلمة لله بالهواجر ، والسجود لله في خوف الليل ، وبجاسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر وكان الأسود بن يزيد يمتد في العبادة ويصوم في الحز حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا ؟ فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة ، حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتجى ثم قال : عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخلقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ! وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فأذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري أمت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الحارث بن سعد : من قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملافة الأحوال وهم غافلون ، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ؟ فبكى القوم عن آخرهم . وعن أبي محمد المغازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ، فمعب عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له : يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعاني على ظاهري ، فأطرق الكتاني ومشى مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتى الموصلي فرأيت قدمه كفيه

يبكى - حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه - فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة ! فقلت : ولم بالله يفتح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لي الدموع ؟ قال : فرأيت بعد موته في المنام فقلت : ماصنع الله بك ؟ قال : غفر لي . فقلت له : فإذا صنع في دموعك ؟ فقال : قزبي ربي عز وجل وقال لي : يفتح الدمع على ماذا ؟ قلت : يارب على تخلفي عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا ؟ فقلت على دموعي أن لا تصح لي ، فقال لي يفتح ما أردت بهذا كله ، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك مافيا خطيئة . وقيل إن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق ، فأنهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد ، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن النهار إن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غذا عند ليسكهم ؟ فقال على نياتهم ، فقالوا أوصنا ، فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما يبلغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبي فناديته الثانية فلم يجبي فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمته في كبريائه وصبره على بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذلل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فنكأ عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزيلتها لأنها محل المعاصي والذنوب ، والعاقلة من رعى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة ، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل كله في سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك ! قال الرفق أطلب ! دعني أنعب قليلا وأنعم طويلا . وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وكان سفيان الثوري يقول عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الغمام يحمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يسلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قوى يا مأوى كل شر ! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبيى ويقول ذهب نصف عملي . وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له يا أبت ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهرة نادته يا بني لعلك قتلت قتيلا ! قال نعم يا أمه ، قالت : فمن هو حتى نطاب أهله فيعفو عنه ؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحوك وعفوا عنه ، فيقول : يا أمه هي نفسي . وعن عمر - ابن أخت بشر بن الحارث - قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي ، يا أختي جوفى وخواصرى تضرب على ، فقالت له أمي يا أخى أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ! فقال لها ويحك ! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري ليش

أقول له . فسكت أوى وبكى معهما وبكى معهم . قال عمر : ورأت أوى ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أوى : يا أخى ليت أملك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدى بما أرى بك ! فسمعتة يقول لها وأنا فليت أوى لم تلدنى ولإذ ولدتنى لم يدر نديها على . قال عمر وكانت أوى تبنى عليه الليل والنهار . وقال الربيع . أتيت أويساً فوجدته جالساً حتى صلى الفجر ، ثم جلس فجلس فقلت لأشغله عن التسبيح فكثت مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلته عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نؤامة ومن بطن لا تشبع ! فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبدالله ما لي أراك كأنك مريض ؟ فقال وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساء أتيت لإبراهيم ابن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً خالك ذلك في صدرى فقلت له رحمة الله قد نمت الليل كله مصطجعاً ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني أدركت رجلاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فكثت عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة . وعن أبي بكر المطوعى قال كان وردى في شبيبتي كل يوم ليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة - شك الراوى ، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منه خفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لاتسكت لعلك يابنى أصبت نفساً لعلك قذات قتيلاً ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبدالله كيف صبرك على سهر الليل وظماً الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال من يخاف أدب وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كتابة فكثت حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين - يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لأمنى فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أبطن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحهم عليه زحاما

حتى يعملوا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سالم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب إقائى . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها أسلم عليها ، فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ ﴿ فَمَنْ لَّهُ عَلَيْنا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ وتبكي وتدعو وتردد الآية ، ففقت حتى ملكت وهى كما هى ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن ابن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل . وقال على بن أبى طالب كثرتم الله وجهه : سبأ الصالحين صفرة الألوان من السرور وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين ، وقيل للحسن : ما بال المنهجين أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى ، وتميتنى ولا تعلمنى ، وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ، ثم قلت لى : استمسك ، إلهى كيف استمسك إن لم تمسكنى ؟ إلهى فى الدنيا الهموم والاحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح ؟ وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : لحدثت به بعض البصريين فقال . لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح ! وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال : كان زمعة نازلا عندنا بالحصب . وكان له أهل وبنت . وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا دأع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم ففروهم ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوايبت للعظمة وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملوك وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفا أن يعصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم الظاهر مناديل ، مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكاف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ مبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تهيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَعْمَلْتِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ قال جلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرم مشيا عليه ، فقلت : وا أسفاه هذا لشقائى . ثم انتظرت لإفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين وإليك

فزعت آمال المقصرين وأعظمته ذلت قلوب العارفين ، ثم نفهض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا وما لى ؟ عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك ! إلى محبيك فاذهبي ! وإياهم فاخذعي ! ثم قال : أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة ، فى التراب يملون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديت به : يا عبد الله أنا منذ اليوم خلقتك أنتظر خراغتك ! فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ؟ وبقيت آثامه ؟ ثم قال : أنت لها واسكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخز مغشيا عليه ! فقلت : قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ، ما خطرى ؟ هب لي إسماعى من فضلك ! وجلانى بترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك ! فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك ! وتثق به إلا كلفتى ! فقال : عليك بسكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى فلم يجد عوناً على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ؟ فإليك عنى ياخذوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى ! وأنا أعرض بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيدنى من سخطه ويتفضل على برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا ! فأنصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعتنه وهو يقول ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ اللهم بارك لى فى الموت ، فقلت : وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه عنت الوجوه يبص زحمر بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذلك التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحن لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حبلك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينسبط فيما عندك أهلى ، ثم مضى وتركنى . وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات	يكتر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته : أغثنى يا عمادى
فأنت بما الأقيس عليم	كثير الصفح عن زلل العباد
ألد من التلذذ بالفوانى	إذا أقبلن فى حال حسان
منذ فتر من أهل ومال	يسمح إلى مكان من مكان
ليحمل ذكره ويعيش فردا	ويظهر فى العبادة بالآمان
تلذذه التلاوة أين ولى	وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مررات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقليل له : قد أجهدت نفسك ! فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقليل سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقليل : خمسون ألف سنة ، فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ؟ يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت

سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان رجلك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا ، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها ؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مراعاة النفس ومراقبتها . فهما تمتدنت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عجز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن لبل فمعزى د وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زميرهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحق وتفتن بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء .

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس رجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ! ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات ؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقام بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما بقيتني ، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لماوقع في نفسي من جودك وكرمك . ويروى عن عجرة أنها كانت تحبي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون : إيليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخرس واحدة فيسمع لها رجة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك ، قال فأتينا فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد ؟ قال فبككت ثم قالت والله لو ددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جراحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى بالبكاء . فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء ، حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في منامى كآني أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها ! فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء من أهل الألبكة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختي والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجبية تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت : يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ؟ قالت فتبسمت إلي وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عنى اثنتين ألزى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها ، فقامت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ساغفرت لي ذنوبي ، فقلت لها لا تقول بحبك لي ولكن قولي بحبي لك ، فقالت : يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريفة فنزلت في بعض

ديارنا ، قال : فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لي : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع قال : فأشرف عليها فما رأها تصنع شيئا غير أنها لا تترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوئب على معاصيك فلتة بعد فلتة أراها تظن أنك لا ترى فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فرقة مني ، فقلت : رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الذي أبكاك ؟ فقلت : قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاهه ، قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت لا ، قلت ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيرة لحجبتنا فلازنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك من جاء يشغلني عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا ، فقالت جعل الله قراءكم في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة فخرمغشيا عليه فأصابه فتق في بطنه ، فباليات عفيرة إذ رفعت رأسها لم تعص ! والبيتها إذا عصت لم تعد ! وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحني حتى أنصرف إليك ، قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع ، فانصرفت إلى منزلي ، وأما شديد الغضب عليها ، فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تبجل على إنك أجلسني في موضع لم أرفيه ذا كرا لله تعالى تخفت أن يخسف بذلك الموضع ! فعبجت لقولها وقلت لها أنت حرة . فقالت : ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران ، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما . وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة ، لعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف ، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكيت ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعددا في كثرة البكاء فإن دخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت ! قالت أصبحت أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لما ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسينيدهما بكاء أطول من هذا ؟ ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فبهي والله في شيء غير مانحن فيه وكانت معاودة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح : وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا . وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقاءك وأعظم رجائي لجرائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهي إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنوب وسائل صلي : فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جربت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي

ولقد رجوت من تولاتي في حياتي يا حسانه أن يسعني عند مماتي بغفرانه ، إلهي كيف أياس من حسن انظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي ، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتى لك قد أجارتني فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله ، إلهي لو أردت إهانتى لما هديتني ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فتعنى بماله هديتني وأدم لي مابه سترتى ، إلهي ما أظنك تردنى في حاجة أفديت فيها عمرى ، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك ، وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى سميت وصلت حتى أقعدت - وكانت تصلى فاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر ، قال : فشبهت ثم قالت : على بنفسى قرح فوادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئاً مذكورا ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبث نشاطك ويريد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن طمع أكثر من في الأرض يضلوك على سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم والمصيبة إذا عمت طابت - وإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتتخدد بتزويرها ، وقل لها : أرايت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى في سفينة تتخلصين بها من الفرق فهل يختلج في نفسك : أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرهم مما دهاك ، فإذا كنت تركين موافقتهم خوفاً من الفرق وعذاب الفرق لا يمتد إلا ساعة فكيف لانهرين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولاهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) فعليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبته وتوبيخها وتعرفها سوء نظرها لنفسها فاعساها تنزجر عن طغيانها .

المربطة السادسة : في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمانة بالسوء ميالة إلى الشر فزارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل الفهر إلى عبادة ربها وعالقتها ومنعها عن شهواتها وغطائها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاينة والعذل والملازمة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تعير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفل ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظم نفسك فإن أعطت فعض الناس إلا فاستحي منى ، وقال تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغياوتها وأنها أبدأت تمزق بغطتها ومدايتها ، ويشد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة

والذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسم وعساك اليوم تحتطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريباً ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فلن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لا تستمدين الموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم يحدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على مصيبة الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفنتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ! جزي نفسك ! إن أهلك البطر عن ألم عذابه فاحتبسى ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تعترين بكرم الله وفضله واستغائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تسكينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، وكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها أعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يانفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ! أنحسبين أنك تتركين سدى ! ألم تكوني نطفة من منى ؟ ثم كنت علقة خلقت فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتي ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك ! أما تتفكرين أنه بما ذا خلقت ؟ من نطفة خلقت فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأفبرك أفتكذبيته في قوله . ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرک ولو أن يهوديا أخبرك في ألد أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأميرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة

(٥٣ - إحياء علوم الدين - ٤)

الاولياء اقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء ! أم صار حر جهنم وأغلاها وأنكأها وزقورها ومقامها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسین بألمها إلا يوماً أو أقل منه ! ما هذه أفعال العقلاء ! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعل يخطفك من غير مهلة فجاءا أمنت استعجال الاجل ؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفترظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكون من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطعم فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى فلعل اليوم آخر عمرك فلم تستغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المسالنج من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفترظنين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده ، أما تتأملين مذكم آدمين نفسك وتقولين : غدا غدا ؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته ؟ أما عدت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لابل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالغ ضعفاً ووهناً ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب . هل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه حماقة ؟ .

ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات . وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك المساء البارد ثلاثة أيام ليصبح ويهناً بشربة طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة لثلاثة أيام وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طال مدته . وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكفر الخفي ؛ فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي ؛ فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واستدراج واستغنائك عن عبادتك - مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أوجبة من المال أو كلمة واحدة تسمعنيها

من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل - وبهذا الجهل تستحين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان » .

ويحك يانفس لا ينبغي أن تفترق الحياة الدنيا ولا يفترق بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لمغيرك ولا نصيحي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاعتمنى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي الآخرة على قدر بقائك فيها ، يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ، ولا تتكفين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وخطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك ، أفنتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة ؟ أفنتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيأت ! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبرد الماء إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذاك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الخطب والجبة مما يستغني عنه خالفك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين . ويحك يانفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك (فاخلقكم ولا يعشكم إلا كنفس واحدة) و (كما بدأنا أول خلق نعيده) و (كما بدأكم تعودون) وسنة الله تعالى لا تجددين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وألست بها فمسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكد في نفسك مؤدتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر قد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر للاحالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الخلق ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنه مفارقه وأعمل ما شئت فإنه مجزى به وعش ما شئت فإنه ميت » . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه وإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترى كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنّون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون : يبني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعبر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا . أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الخلق على حماقتهم ، واحسبي أنك لست ذات بهيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحب من من أحببت فإنه مفارقه ... الحديث » تقدم في العلم وغيره .

والحكاه بعقل هؤلاء المنسكين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقد في نفسك العقل والذكاء . يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجبا لك كيف تعين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض يحبك لك وأطاعك . أفأ تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من على وجه الأرض من عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فـ ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فكيف تبعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي ؟ هذا إن كنت ملصكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك لأسباب كيف وأبى إدمارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فإلك لا تتركينها ترفعان خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنايتها وتوقيا من سرعة فنائها ؟ أم مالك لا زهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساءت فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويريدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من البهين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدن لتكوني في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقرب الموت وورد التنذير فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن تجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بقيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفرع الأكبر بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان المخلطة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخذا فيرها لا شتره لو قدروا عليه وأنت تضعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظام أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أأمرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيدهم بلاء إلا بشؤمك ! ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقعك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المماص ! ويحك كم تعدين فتفضين ويحك كم تعهدن فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعارة دينك كأنك غير

مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيئات هيئات ساء ما تتوهمين ! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبسو رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكم من مستقبل يوما لا يستكمل وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟ فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقة وجليله سره وعلا نيته فانظري يا نفس بأى بدن تقفين بين يدي الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، اعلمي قبل أن لا تعملى اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر ، فاعطى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعنى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللفظ بالإيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطئ نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك - فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت - فستقى الدمع من بحر الرحمة - فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعنى بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك وبغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع واخشعى في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة

المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمة محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تجع فيك العظائم ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به بزره وف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقول يا أرحم الراحمين يا رحيم يا حلیم يا عظیم يا كريم أنا المذنب المصير أنا الجرم الذي لا أقلع أنا المتماهى الذى لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الخفير والهالك الغريق فجعل لإغاثي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين . اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترفاً له دمة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ما هذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يا رب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك سخطى، ألم أخلقك يدي ونفخت فيك من روحي وأجعدت لك ملائكتي فعصيت أمرى ونسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزتي وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أأالذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعييدها خطيئة لم تبلى وصاحبها فى طلب أخرى واعييدها إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ! واعييدها إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ! واعييدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أورد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سوات لى نفسى وأعانى على ذلك شقوتي وغرنى سترك المرخى على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى؛ فمن عذابك الآن من يستغنى أو بجبل من اعتصم إن قطعت جبلك عني ؟ واسواتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمتقين حطوا أم مع المخفين أجوز أم مع المتقين أحط ؟ وبلى كلما كبرت سننى كثرت ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فألى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما أن لى أن أستحي من ربى ! .

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترخاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترخاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياء ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام
تم كلاب الحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكير

وهو للكتاب التاسع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاه عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراق أقدام الاوهام ومرمى سهام الافهام إلى حمى عظمتهم مجرى ، بل ترك قلوب الطلبة في بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطالوبها ردتها سباحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى في ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالى عليك ترى ، وجتدى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأملى في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا وفسرا ، وإيمانا وكفرا ، وعرفانا ونكرا ، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إمرا ، وخاطرت بنفسك بمجازة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانتكست على أعقابها اضطرابا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته نفرا ، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »^(١) ، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته لكن جهلوا حقيقة ثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفية ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذى يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه ؟ فإن كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا ؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير . ثم حقيقة التفكير وثمرته . ثم مجرى الفكر ومسارحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التفكير

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تفكروا في

كتاب الفكر

(١) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان في كتاب المغطمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أس بلفظ « ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » .

خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم إن تقدروا قدره ^(١) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل قال : فكذلك فافعلوا ، تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفه عين ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال : ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا : من ولد آدم ؟ قال : لا يدرون خلق آدم أم لا ^(٢) ، وعن عطاء قال : انطلقت يوماً وأنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غبا تردد حبا » قال ابن عمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكت وقالت كل أمره كان عجبا ، أنا في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال : ذريني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلي فـ... حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ^(٣) ، فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر - بعد موت أبي ذر - فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم : يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فإنه مثلي . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لغو ، وفي قوله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال أئمن قلوبهم التفكر في أمرى . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه ^(٤) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو

(١) حديث ابن عباس : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال الله صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم إن تقدروا قدره . أخرجه أبو نعيم في الحلية بالرفع عنه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الزايع بن نافع متروك . (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تتكلمون ، فقالوا : نتفكر في خلق الله ... الحديث . (٣) الحديث : روينا في جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٤) حديث عطاء : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث ... قال ابن عمير : فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث في نزول ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ وقال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، تقدم في الصبر والفكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء . (٤) حديث أبي سعيد الخدري : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان : لأن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي وآه ساكتا متفكرا أين بلغت ! قال : الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل ، وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبيننا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب ، وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به ، والدم على الشر يدعو إلى تركه . ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء ، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جاره ، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال ، من ذا الذي طرحك من السطح ؟ قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلامها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتذم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما أله طوبى لمن رزقه . وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم : والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع (إحداها) الحكمة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها في الشهوة . (والثالثة) القوة وقوامها في الغضب . (والرابعة) العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وإراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان (أحدهما) أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله ، وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . (والطريق الثاني) أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى . فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا (٤ - ٥ - إحياء علوم الدين - ٤)

وتأمل وتدبر . أما التدبر والتأمل والتفكير : فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة . وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحد ؛ كما أن اسم : الصارم ، والمهند ، والسيف ؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد .

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر بهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التذكر ، لا اسم : الاعتبار . وأما النظر والتفكير : فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكير تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمنحى عن القلب . وفائدة التفكير : تكثيرة العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتبادى النتاج ويتبادى العلوم ويتبادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تسند طريق زيادة المعارف بالموت . وأوبالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم ، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استثمارها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستثمار والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . وذلك عزيز جدا . وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الأبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر : فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة . العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذى يكشف لك فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذا ن التفكير أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذى ينقل من المحاربه إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال تعالى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أو يحدث لهم ذكرا ﴿ وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فتأله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رسيخت هذه المعرفة يقينا

في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال ، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فههنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب . (وثانيتهما) التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . (والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة وامتدادها في القلب . (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال .

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتذتهد الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه . ثم تذتهد الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما يذتهد العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره . فإذا نمت الفكر : العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مرشد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جليسيا فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة . فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

بيان مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين ، وإلما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى ؛ لجميع أفكار العبد : إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد : إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى ، أو فيما هو مكروه ، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى : إما أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون في أفعاله وملكوته وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر في معشوقه ؛ فلما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإلما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضاعفا للذة ومقويا لمحبته .

وإن تفكر في نفسه ؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو في الصفات التي تقربه منه وتحبه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره . فحجب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً . فلنبداً بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليعز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصي . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التي عملها القلب . وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والمنجيات .

والمعاصي : تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكروهات التفكير في ثلاثة أمور (الأول) التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر (والثاني) التفكير في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات . فلنذكر في كل نوع مثلاً ليقس به المرید سائرهما وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(النوع الأول : المعاصي) ينبغى أن يفحص الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والمأزحة والخوض فيما لا يعنى ، إلى غير ذلك من المكروهات ، فيقرر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه . ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له : فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز .

ويتفكر في سمعه يصفى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المذكر ؛

فهما كان ذلك فيتفكر في بطنه ؛ أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فإن ذلك مكروه عند الله ومقوى للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام ^(١) كما ورد الخبر به . فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء . فهما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة التوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً :

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذنوبه عن معصيته فلم لا أفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني تادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فألي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعني لأشكره ؟ فألي أكر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟ وكذلك يتفكر في اللسان ، يقول : إني قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة .

وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أنصدق بالمال الفلاني فأني مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيتار أخرج مني إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلبيه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنيط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغب في البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

(وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه في ربيع المهلكات : وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات : فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف ، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق ، كما كان الأولون يجرّبون به أنفسهم . وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يتأله من غيره ثم يجرّبها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات . وهذا تفكر في أنة هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ذكرناها

(١) حديث « إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثوبه درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

في ربيع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبيث الدخلة .

كألو رأى في نفسه عجباً بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عمل يدي وجارحتي وبقدرتي وإرادتي ، وكل ذلك ليس مني ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على ، فهو الذي خلقتي وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي ، وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي ؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت ، وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكمن مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة ؟

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كالسكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ، ولما اتصف به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد . وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ، ثم يتفكر في طريق العلاج ، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب . فمن يريد أن يتسع له طريق الفسك فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب .

• (وأما النوع الرابع : وهو المنجيات) فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف ، والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص ، والصدق في الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له . وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته . فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى ؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفعال . فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم : فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه . ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينبعث له حال الندم . وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرماله جميل ستره عليه . على ما شرعنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك . وإذا أراد حلل المحبة والشوق : فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبرياته وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبذائع صنعه . كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفسك . وإذا أراد حال الخوف : فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر في الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ، ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم في المناقشة في الحساب في التقير والقطمير ، ثم في الصراط ودقته وحدته ، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أمهال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا ، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها . وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء : فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكمها الدائم .

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر ، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه ما يجر عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولومائة مرة ! فقراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم ، فليتوقف في التأمل فيها ولوليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بتدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به » ^(٢) ، فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغفرتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية .

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الرغب في هذه الأهكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقيين والتمتع بالفكر في لال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرقا لهم بالمحجوب ؛ كالعاشق المستغرق عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل ينسى كالمجهول الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمار ، الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فتي يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فليقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصليح حالي في التوكل ، فقال الحسين : أفنيت عمرك في عمران باطنك فإن الفناء في التوحيد ؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصائفين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهية المرأة وجهها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرها ، في تهيئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغي أن تفهم طريقة الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإلغاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوم آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديندك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مرید فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم . تقدم .

(٢) حديث : « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم غير مرة .

جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة - فإنه إن سلم منها سلم من غيرها - وهي : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدّة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف الرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة ؛ عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أنّ ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالأتصاف بالمنجيات ؛ فإذا أتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشمر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يشبهوا في جرائمهم المعاصي الظاهرة ؛ كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والقيمة والمراء والثناء على النفس ، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاتة الأواباء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها لا في معاصهم بمنزل عنها . مثاله : العالم الورع ، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالعظ ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ؛ وذلك من المهلكات . وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفه وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو رد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستسكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإبراد ، حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكاف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله . فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإلما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون الموفق له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلفظه أشد فرحا واستبشاراً بمن يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاتة ، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغايير النساء ، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه ينتفع بغيره ومستفيد منه في دينه . وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ، وإلما ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له في سلامة العوام .

فمن أحسن في نفسه هذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخول والمدافعة للفتاوى مهما سئل .

فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى . وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتق شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ؛ فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الخاق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى ، فإنه قد كان معمورا قبل وكذلك يكون بعدى ، ولو لم لاتهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى ، وأما أنا فليست مستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعاق يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة . بل ينتهز للذم العلم أقوام لانصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »^(١) ، و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »^(٢) ، فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يترى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم : « حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت المساء البقل »^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ذنبان ضاربان أرسلتا فى زريبة غم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم »^(٤) ، ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والمهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه فى قلوبهم .

فليكن فكر العالم فى التفطن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتق . فأما أمثاله فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو أننا السلف الصالحون لقالوا قطعا : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ! فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه : وقد علمنا أن الحرب من النار بترك الشهات والحرام وبترك المعاصى ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقهرون فى الفرائض منها . فلم يحصل لنا من فمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال : لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا مات معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا . فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التذكر فى جلال الله وعظمته والتنعيم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المملكات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكذرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتتغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له فى كمال التنعيم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » تقدم . (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .
تقدم أيضاً فى العلم . (٣) حديث « حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب » . الحديث « تقدم .
(٤) حديث « ما ذنبان جائعان أرسلتا فى زريبة غم ... الحديث » تقدم .
(٥) — إحياء علوم الدين — (٤)

لدخ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكرهه عنه ربه تعالى .

(القسم الثانى) الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه . وفيه مقامان : المقام الاعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله ، وذلك لأن العقول تتعير فيه فلا يطيق مد البصر إليه - إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه ألبته ، بل يختنق نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظيره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذى يرح به بعض العلماء وهو : أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الآقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هر متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاضم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويدوعين وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم . وأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض المتقي من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء . وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله - تعالى وتقدس - حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالق ناقص منى ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالق ومصورى ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلم كفر ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادى بصفاى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون .

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه ، لكننا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر في أفعاله ومجارى قدره ومجائب صنعته وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته . فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإننا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أننا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته - تعالى وتقدس - إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام

نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يفيض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى .

بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى

اسلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشره . ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عده .

فنعول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ وقال ﴿ وننشئكم فيها لا تعلمون ﴾ وإلى (ما يعرف أصلها وجلتها ، ولا يعرف تفصيلها) فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك . ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغض . فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجلق مدرك بغيرها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هي الاجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياتة ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولانبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلالة وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية التفكير في بعض الآيات .

(فن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة - وأقرب شيء إليك نفسك - وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنه . فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسهره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ وقال تعالى

﴿ ألم يكن نطفة من ممي يعني ثم كان علقة تخلق فسوى ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ الآية .

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه ، فانظر الآن إلى النطفة - وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت - كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والثرائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟ .

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مذي اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؟ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص ومهمة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من المعجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فنه صغير وكبير وطويل ومستدير وجوف ومصمت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بحملة بدنه و ببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتمدر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس - كما تراه - فنه ستة نخع القحف ، وأربعة عشر للحي الأعلى ، واثنا عشر للأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات

وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض - ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا تطول بذكر عدد ذلك . وبمجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقذارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قله ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة - والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية - وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها واندهاباتها أعجب من هذا كله - وشرحه يطول - فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة ، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغايرها ؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنذك عن حكمة وحكم بل هي أحكم حلما وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغشش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصباً أو جلدا أو شعرا هل يقدرון على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنهه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأتق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر لـ (يا) : كأنه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة . وشيء من ذلك ليس من

فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما انتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيسكنر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القدرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والثرائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالة ناطقة . وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصلها وتدفع الألفاء عنها ؛ ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكتافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحولها بصدقة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بديب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريكات وأعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويعاين طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخرية وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجما وممربا عما في القلب . وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رموسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتتطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الخنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في غارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه بالحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالاهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإزالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكبد . فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها . والكبد يخدمها يجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل ؛ والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولها لتمتد إلى المقاصد . وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضمما غير تام كانت مفرقة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رموسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي

لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لوعده الإنسان وظهر به حكمة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ولم يقم أحد مقامه فى حرك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحكة حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحكة إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا آلهة فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ؟ ثم لما كان بدنه سخيلاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرت والدم سائفاً خالفاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح فى حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافق اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثة اللينة ؟ ثم حزن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل ، فصار مرافقاً شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ؛ إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تهريك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب من يرى خطأ حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكير فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعتته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صالعه ومصوره فلا تدهشه عظمتة ولا يحيره جلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببدنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فينام ، وتشتهي فتجتمع ، وتغضب فتقاتل . والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التى حجب البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الأفاق والأنفس ؛ إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير ،

إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

ولذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا لجأجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى يحجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ﴾ وقال تعالى ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للاموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ﴾ .

فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبثت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشواخض الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها فجعل العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب السكر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شيء حيا ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرابع ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ فتي كان في النواة نخلة مطوقة لعناقيد الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبل مائة . ثم انظر إلى أرض البوادي وفقش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابهة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبثت من كل زوج بهيج الوانا مختلفة ونباتات متشابهة وغير متشابهة ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر . فالنظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟ فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل لإيهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحل دما وهذا يفرح وهذا ينقم وهذا يقوى وهذا يضعف ! فلم تنبت من الأرض ورقة ولا ثمرة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كلها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنخل تؤر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز واللؤلؤ وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الآواني والآلات والنقود والحلى منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والفار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجورها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر ، فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطيبا لعلعالمك إذا أكلته فيتبها عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذى ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ .

(ومن آياته) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى . وانقسام ما يمشى : إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الإلهية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت - وهي من صغار الخيوانات - في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إزالتها أروجها وفي ادخارها لنفسها وفي حديقها في هندسة بيتها وفي عدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيوط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلقي للعباب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد تانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا ، حتى إذا أحكم معاهد القمط ورب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على سوضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله . وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم ؟ أفيتشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكال قدرته وحكمته ما تنحير فيه الأبواب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها . ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقها وأكادنا لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأفدامهم وجعل

ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه لإياها فسبحان من الأمور مكتشفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف ربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورافته

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض »^(١) ، فالنسب اصطبلًا إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فرمما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان . وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر : وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله الثاؤد ودوره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، ويختر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عزف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها . ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطره الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الاجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سربيع القبول للقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها ! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بأسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنفاتها قائمة لكل ذى لب ، أما تراني وترى صورتي وتركيبى

(١) حديث « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض » تقدم ولم أجده .

وصفاً ومنافعاً واختلاف حالاتٍ وكثرة فوائدٍ ؟ أظنُّ أني كَوْنْتُ نفسي أُوخِّلُني أحد من جنسي ؟ أو مانستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مرید متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط . ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون : توهمني في ظلمة الأحشاء مغسوة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي ، فينفش النقاش حدقي وأجفاني وجبتي وخدي وشفتي ، فترى التكوين يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجها ، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم ! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهراً النطفة وباطناً وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لامن داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع - فبين الفاعلين من المبينة والتباعد ما بين الفاعلين - فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل والطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض : يدرك بحس اللبس عند هبوب الريح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشرايين يدي رحمته كما قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خلقيته كما قال تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء ، فالزق المنفوخ يتحمل عليه الرجل القوى ليغمسه في الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف ، كالذي يقع في بحر فيتعلق بذيل رجل قوى تمتع عن الهوى في البحر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتع من الهوى والغوص في الماء ! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى ﴿ وما خلقتنا السموات والأرض

وما بينهما لا عين) وهذا هو الذى بينهما . وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) وحيث تعرض للرد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالهيمه تشاركك فى هذه المعرفة ! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملائكة على فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكرفيه إذ لا مطمع فى استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوصاف لاكدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل الماء الثقيل وممسك له فى جور السماء إلى أن يأذن الله فى إرسال الماء وتقطيع القشرات . كل قطرة بالقدر الذى أراد الله تعالى وعلى الشكل الذى شاء فنرى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخرون ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددا ينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عيذت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب ، ومكتوب على تلك القطرة بخط لاهى لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل إليها عند عطشها فى الوقف الفلانى ! هذا مع ما فى انعقاد الرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته ، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : ما معنى الطبع وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الانبجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويمجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار - فكان الكبير نهر وما الشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة - فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينمىها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملاكوت فلم لا يحال عليه من أول الامر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب : وهو الامر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فاما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع ، وكمن قسم فى القرآن بها كقوله تعالى (والسماء ذات البروج - والسماء والطارق - والسماء

ذات الحبك - والسماء وما بناها) وكقوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) وكقوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وقوله تعالى (والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون - وما أقسم الله بها - فإظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) وأثنى على المفكرين فيه فقال (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ^(١) ، أى تجاوزها من غير فكير . وذم المعرضين عنها فقال (وجعلنا السماء سةفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) وقال سبحانه (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) وقال (أأنتم أشد خلقا أم السماء بما رفع سمكها فسواها) فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت . ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فتري زرقه السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشئ من علمه إلا بما شاء ، وهو (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول » .

فأجل أيها العاقل فكر - في الملكوت فعمى . يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أفطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا كرن إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شئ إليك نفسك ، ثم الأرض التى هى مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهى معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول : قد عرفته وعرفت خلقه فبماذا أتفكر إلى ماذا أنطلق ؟

فأرفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام - من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها ، بل تجرى جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب - وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس في فللكها في مدة سنة ، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب

(١) حديث « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أخرجه قوله تعالى (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) تقدم .

بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولا طبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . ومجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإنما هذا تمثيله على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ثم في وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي بجانبه وبعده . وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه . وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناطقون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها ^(١) ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثمان مرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض . وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ؛ إذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رفع سمكها فسواها) .

وفي الأخبار : أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام ^(٢) فإذا كان مقدرا كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب . ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها . ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه . وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم ، فقال « كيف تقول لا ... نعم ، فقال . من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام ^(٣) فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكتافها في حدة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فتري جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارتها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد وترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمراء الله لأهلك ما على الأرض » ولطعاني في السكبر من حديث أبي أمامة « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقت » .

(٢) حديث « بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام » أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب ، قاله ويروى من أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي بصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي بصرة سماع من أبي ذر . (٣) حديث : أنه قال لجبريل « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم ، فقال : كيف تقول لا ... نعم ؟ فقال : من حين قلت : لا ، إلى أن قلت : نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام . لم أجد له أصلا .

كبيت واحد والسماء سقفه فالمعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقاً بالصبيح، وزها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ! وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلفت بقلبك إليه ! فإما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقضون بألسنتهم بين يدك ، ويضمرّون خباياك الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والمالك . وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرت فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها . فأما حال القصر والمالك الذى فى القصر فهى بمنزل عنه وعن التفكير فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلات أوصاف سكانه ، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة سرقة ، إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه . ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استمتعينا أعمار أطويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب . فسبحان من عزّ عباده ما عزّ ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

فهذا بيان معاهد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لاحتالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم . وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيد محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك . فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر ما رزق . فلهذا تقتصر على ما ذكرناه ولننصف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإننا نظرننا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا . وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرننا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن أنظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته وامتدنى به ، ومن أنظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شق وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا منزلة أقدام الجبال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

تم الكتاب التاسع من ربيع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه ، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده ، وبه كل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق وأرداهم في الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التترغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضيغ الوثير إلى المصراع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فسيحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت خلاصا للأتقياء وموعدا في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد . لجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقبره وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده ، واللجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعرج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يمد نفسه من الموتى ويراهي في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكيس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت ^(١) ، وإن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه . ونحن نذكر من أسرار الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة واللجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ اقرب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

الشطرن الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأول) في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثاني) في ذكر طول الأمل وقصره . (الباب الثالث) في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند الموت . (الباب الرابع) في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدين من بعده . (الباب الخامس) في كلام المحضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . (الباب السادس) في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموق بالمكاشفة في المنام .

الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المسكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ثم الناس : إما منهمك ، وإما تائب مبتدئ ، أو عارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فينبئ بهام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ^(٢) ، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقاءه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعده لقاؤه لحبيبه ، والمحج لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الأمر يستبطن بحب الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) حديث « السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » تقدم غير مرة .
الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب فيه

(٢) حديث « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أَنَّ الْفَقْرَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الْغِنَى وَالسَّقَمَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الصَّحَّةِ وَالْمَوْتَ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الْعَيْشِ فَسَهِّلْ عَلَى الْمَوْتِ حَتَّى أَلْقَاكَ فَإِذَا التَّائِبُ مَعْذُورٌ فِي كِرَامَةِ الْمَوْتِ ، وَهَذَا مَعْذُورٌ فِي حُبِّ الْمَوْتِ وَتَمَنِيهِ ، وَأَعْلَى مِنْهُمَا رَتَبَةٌ مِنْ فَوْضِ أَمْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَصَارَ لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً ، بَلْ يَكُونُ أَحَبُّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ أَحِبُّهَا إِلَى مَوْلَاهُ . فَهَذَا قَدْ انْتَهَى بِفَرَطِ الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ إِلَى مَقَامِ التَّسْلِيمِ وَالرَّضَا وَهُوَ الْغَايَةُ وَالْمُنْتَهَى . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ثَوَابٌ وَفَضْلٌ ، فَإِنَّ الْمُنْهَمَكَ أَيْضًا يَسْتَفِيدُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ التَّجَانِي عَنْ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ يَنْغُصُ عَلَيْهِ نَعِيمَهُ وَيَكْدُرُ عَلَيْهِ صَفْوَلُوتُهُ . وَكُلُّ مَا يَكْدُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتُ فَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ النِّجَاةِ .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ ^(١) ، وَمَعْنَاهُ نَعَصُوا بِذِكْرِهِ اللَّذَاتِ حَتَّى يَنْقَطِعَ رُكُونُكُمْ إِلَيْهَا فَتَقْبَلُوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَعَلَّمَ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلَتْ مِنْهَا سَمِينًا ^(٢) ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَارَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَحْشُرُ مَعَ الشَّهَدَاءِ أَحَدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ مِنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً ^(٣) ، وَإِنَّمَا سَبَبُ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ كُلُّهَا أَنَّ ذِكْرَ الْمَوْتِ يُوجِبُ التَّجَانِي عَنْ دَارِ الْفُرُورِ وَيَتَقاضَى الْإِسْتِعْدَادُ لِلْآخِرَةِ ، وَالْفُغْلَةُ عَنْ الْمَوْتِ تَدْعُو إِلَى الْإِنْهَمَاكِ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ ^(٤) ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الدُّنْيَا سَجَنُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِيهَا فِي عَنَاءٍ مِنْ مَقَاسَاةِ نَفْسِهِ وَرِيَاضَةِ شَهَوَاتِهِ وَمُدَافَعَةِ شَيْطَانِهِ ، فَالْمَوْتُ لِإِطْلَاقِهِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ ، وَالْإِطْلَاقُ تَحْفَةٌ فِي حَقِّهِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ^(٥) ، وَأَرَادَ بِهَذَا : الْمُسْلِمُ حَقًّا الْمُؤْمِنُ صَدَقًا الَّذِي يَسْلِمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدُهُ وَيَتَحَقَّقُ فِيهِ أَخْلَاقُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَتَدَنَّسْ مِنَ الْمَعَاصِي إِلَّا بِالْأَلَمِ وَالصَّغَاثِ ، فَالْمَوْتُ يَطْهَرُهَا مِنْهَا وَيَكْفُرُهَا بَعْدَ اجْتِنَابِهَا الْكِبَائِرَ وَإِقَامَتِهِ الْفَرَائِضَ : قَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجْلِسٍ قَدْ اسْتَعْلَى فِيهِ الضُّحُكُ فَقَالَ : شَوْبُوا بِمَجْلِسِكُمْ بِذِكْرِ مَكْدَرِ اللَّذَاتِ ، قَالُوا : وَمَا مَكْدَرُ اللَّذَاتِ ؟ قَالَ : الْمَوْتُ ^(٦) ، وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يَمْحُصُ الذُّنُوبَ وَيَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا ^(٧) ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُنْ بِالْمَوْتِ مَفْرَقًا ^(٨) ، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُنْ بِالْمَوْتِ وَاعِظًا ^(٩) ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا قَوْمٌ يَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ ، فَقَالَ : أَذْكُرُوا الْمَوْتَ أَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ

(١) حديث « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ » أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَكَانَ يَتَقَدَّمُ . (٢) حديث « لَوْ تَعَلَّمَ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلَتْ مِنْهَا سَمِينًا » أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ حَبِيبَةَ الْجُهَنِيَّةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ . (٣) حديث . قَالَتْ عَائِشَةُ هَلْ يَحْشُرُ مَعَ الشَّهَدَاءِ أَحَدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ مِنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً . (٤) حديث « تَحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْمَوْتِ وَالطَّائِبِينَ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مَرْسَلًا بِسَنَدٍ حَسَنٍ .

(٥) حديث « الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ وَالْخَطِيبُ فِي التَّارِخِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ أَنَّهُ حَسَنٌ مُصَحِّحٌ وَضَعْفُهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ وَقَدْ جُمِعَتْ طَرَفُهُ فِي جُزْءٍ . (٦) حديث عطاء الخراساني : « مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجْلِسٍ قَدْ اسْتَعْلَى فِيهِ الضُّحُكُ فَقَالَ : شَوْبُوا بِمَجْلِسِكُمْ بِذِكْرِ مَكْدَرِ اللَّذَاتِ ... الْحَدِيثُ » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْمَوْتِ مَكْذُومًا مَرْسَلًا وَرَوَاهُ فِي أَمَالِ الْجَلَالِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَلَا يَصِحُّ . (٧) حديث أَنَسٍ « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يَمْحُصُ الذُّنُوبَ وَيَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا » أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْمَوْتِ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ جَدًّا . (٨) حديث « كُنْ بِالْمَوْتِ مَفْرَقًا » أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ ابْنُ أَبِي أَسَامَةَ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَهَرَاكُ بْنُ مَالِكٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْبُرُوقِ وَالصَّلَاةِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَلِّيِّ مَرْسَلًا . (٩) حديث « كُنْ بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » أَخْرَجَهُ الطَّائِبِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ مِنْ حَدِيثِ عُمَارِ بْنِ يَاسِرٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ وَهُوَ مَشْهُورٌ مِنْ قَوْلِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الزَّهَدِ .

ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (١) ، وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم الموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ! قال : فإن صاحبكم ليس هنالك (٢) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكرس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدّهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة (٣) .

أما الآثار ؛ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا . وقال الربيع بن خثيم . ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربّي سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تنفى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبسكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي : شيثان قطعنا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول - في وسط مسجد البصرة - قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراه إلا والهين . وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها لجأته تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمي ؛ فقال : لست أول خليفة تموت ؟ قال : زدى ، قال : ليس من آبائكم أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نفص على أهل النعيم ليعلمهم فاطلبوا نعيمًا لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنيسة : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الناري : قلت لأم هرون ، أنحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكريهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل

(١) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتعذّون ويضحكون فقال « اذكروا الموت ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ، (١) حديث : ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن منول فذكره بلاغا بزيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكرس الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله بإسناد جيد .

شيء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرجه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف يحا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتعوا أولادهم وضيعوا أموالهم . وحلت منهم مساجدهم وجمالهم ، وانقطعت آثارهم ، فهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله ، وكيفية موته وبرم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت واتخاذاه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع . وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهمت رجلاه ومفاصله . وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه . وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه . إلى عمر سنين . في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، فأنكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كما فبتهم .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه . إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو راءحاً إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الاحجاب وقطع الأسباب .

فلازمة هذه الافكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجتذ ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستبدله ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتفكير ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال ، أنه لا بد له من مفارقتة . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته .

الباب الثانى

في طول الامل وفضيلة قصر الامل ، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الامل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا (١) . وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان . اتباع الهوى وطول الامل فأما اتباع الهوى فإنه يصتد عن الحق ، وأما طول الامل فإنه الحب للدنيا ، ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويمنعها ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ، ألا إن الدين أبناء وللدينا أبناء فكفونا من أبناء الدين ولا تكونوا

الباب الثانى في طول الامل

(١) حديث : قال لعبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء . . . الحديث « أخرجه ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر في آخر حديث « كن في الدنيا كأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة : ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل ^(١) ، وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال « أيها الناس أما تستحون من الله ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون مالا تاكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تسكنون ^(٢) » ، وقال أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أبيض ، ولا لفت لقمه إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ، ثم قال « يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسى بيده » (إن ماتوا عدون لآت وما أتم بمعجزين) ^(٣) » ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول « ما يدري لعل لا أبلغه ^(٤) » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال « هل تدرؤن ما هذا ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال « هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل ^(٥) » ، وقال عليه السلام « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته الدنيا وقع في الهرم » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الختوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الختوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه فإن أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل . قال عبادة خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط وسطه خطاً ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط ، وخط خطاً خارجاً وقال « أندرون ما هذا ؟ ، قلنا الله ورسوله أعلم ، قال « هذا الإنسان - للخط الذى فى الوسط - وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض - للخطوط التى حوله - تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل - يعنى الخط الخارج ^(٦) » ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل ^(٧) » ، وفى رواية « ونشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث على « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث » بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاماً ضعيف . (٢) حديث أم المنذر « أيها الناس أما تستحون من الله تعالى » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « تجمعون مالا تاكلون ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أنس : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا تعجبون من أسامة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مستند الشاميين وأبو يعلى فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول « ما يدري لعل لا أبلغه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والبخارى بسند ضعيف .

(٥) حديث : أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه .. الحديث . أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي فى الأمثال من رواية أبي التوكل الناجى عن أنس بن سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي التوكل مرسلاً . (٦) حديث : مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن . (٧) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً وخط وسطه خطاً ... الحديث » رواه البخارى . (٨) حديث أنس : يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان : الحرص والأمل . وفى رواية « ونشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر » ورواه مسلم بلفظ الثنائى وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح .

« نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وملك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل »^(١) ، وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم ارفع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ! فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي : والله لا بد لك من عيش ما بقيت ، فقدت إلى مـحاجي . وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال « قصرُوا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء »^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل »^(٣)

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى الخشيت على ذهاب عقلي ؟ ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتوا بعين ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحق ولولا ذلك لم ينهأ العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها ، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه . ثلاث أعجبتني حتى أضحت كتي ، مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك مل فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني ، فراق الأحبة - محمد وحزبه - وغول المطاع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت : أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب ، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب ، وقيل للحسن : يا أبا سعيد ألا تنسل قيصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم . وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لو أملت أن أعيش شهرا لرايتني قد أنيت عظيما ، وكيف أو مل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني - وفي طرف كسائه شيء مـهـرور - فقال له أستاذة : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفعها إلى أخ لي وقال : أحب أن تفطر عليها ، فقال ياشقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلتلك أبدا ، قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكـم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من

(١) حديث « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وملك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) حديث الحسن « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال « قصرُوا من الأمل ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في هكذا من حديث الحسن مرسلا . (٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه ابن أبي الدنيا في من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي أسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب .

وفق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن أمركم بما لا أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازن فيه منصوبة ، لقد غنيت بأمر لو غنيت به النجوم لانكدت ولو غنيت به الجبال لذابت ولو غنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما . وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام . وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه ديب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام - قبل أن يخطئ - أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل أجله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميح : سمعت أبى يقول ، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عتة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ماقد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية ترحون ، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل زول الموت ، وقال أبو زكريا التيمى : بيننا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك واتصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلك أملك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسنتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة ، فبكى سليمان بكاء شديدا ، وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ، سلام عليك فأثنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فأثنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فإيا تيك منكر ونكير فيقعدانك ويذترانك فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تباعك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخللاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحث الأسرار وأسمرت النار ووضعت الموازين وجرى بالذبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم ، فباليست شعرى ما حالى وحالك يومئذ فى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائم وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، وإنما نحن به وله والسلام وخطب عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شيء وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بكم الباقيون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون فاديا ورائعنا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا مهد ،

قد خلع الأسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب ، وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يبكي حتى بات دموعه لحيته وماعاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء . وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أتاني هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ، ولا لي على أحد شيء ولا لاحد عندي شيء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن ، لجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هوات قريب واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك من ربك فهو عليك مشغوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندّم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون ، وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم ، فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تسلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عامر موثق عما قليل يغرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النقلة وترقّدوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا يتنافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماء بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر لأنها تسر قليلا وتخزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته : أين الوضوء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحضرها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعض بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الواحدا الواحدا ثم النجا !

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها ويشهواتها ولذاتها وعلاقتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنع نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قرب ، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعده نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يستوف ويؤخر ، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر ، وهكذا على التدريج

يؤخر يوما بعد يوم ويفضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه المنية في وقت لا يحتسب ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزنناه من سوف . والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيئات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها .
فما قضى أحد منها لبائته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قالوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت لجأته ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فأرض لجأة غير بعيد ، وكل مرض فائئما يقع لجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار أعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل به الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يتقنر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر . وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبن الذي يغطى به لحاه قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسوية جهل محض .
وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ؛ ولعلاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكتر منقص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا . فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لأمحالة ؟ وكيف تتفتت عظامها ؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بمجدقته النبيي أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

(١) حديث « أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم غير مرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون ؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده وراه وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقواته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأمم ^(١) ، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه ويجودا في عام قابل ، ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف . فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح . ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على المساء قبل معنى ساعة ويقول : امل لا أبلغه ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطرت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى ^(٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل : ما هذا ؟ قال : أنظر ملك الموت من أي جهة يأتي .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فـ ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة ، فيبدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وأدخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سرب يحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتاما لكل نفس أمهلت فيه .

(١) حديث : الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقواته من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل مأمم . لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : قلب الشيخ شاب على حب التين طول الحياة وحب المال . (٢) حديث سؤال لماذ من حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى . أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أس وهو خط .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ويبتظر قدوم أحدهما في غد ويبتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى ، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغبا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر ^(١) » ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرحل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ^(٣) » ، أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالها ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . إلا أن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها وجاء الموت مباهية ^(٥) » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة ^(٦) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير ، والموت المفير ، والساعة الموعدة ^(٧) » ، وقال ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع ^(٩) » وقال جابر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول . صبحتكم ومسيئتكم ، بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه - ^(١٠) » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال « إن التور إذا دخل الصدر انفسح ، فليل يارسل الله هل لذلك من علامة تعرف؟

(١) حديث « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغبا أو فقرا منسيا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة بلفظ « هل ينتظرون إلا غناء ... الحديث » وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم . (٢) حديث ابن عباس « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسل . (٣) حديث « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٤) حديث « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن . (٥) حديث « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبي بن كعب . (٦) حديث « كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل . (٧) حديث أبي هريرة « أنا النذير ، والموت المفير ، والساعة الموعدة » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البنوي بإسناد فيه ابن .

(٨) حديث ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقى من يومنا هذا في مثل ما مضى منه » أخرجه ابن أبي الدنيا في بإسناد حسن والترمذى نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٩) حديث « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في من حديث أنس ولا يصح (١٠) حديث جابر : كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ... الحديث » أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له .

قال : نعم التجاني عن دار الغرور والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد الموت قبل نزوله ^(١) ، وقال السدي (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا . وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومنادى ينادى : أيها الناس الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إنما لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) في الموت . وقال سحيم - مولى بني تميم - جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل على فقال : أرحنى بحاجتك فأني أبادر ، قلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحلك الله ، قال : فقمعت عنه وقام إلى صلاته . ومرو داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني إنما أبادر خروج نفسي : قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للأخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمع ولا يراني . وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم الله اسرا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ، ثم قرأ هذه الآية (إنما نعتهم عذابا) يعني الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك . واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامراته : شدي رحلك فليس على جهنم معبرة . وقال بعض الخلفاء على منبره : عاذ الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحب بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا الموت فقد أظلمكم وترحلوا فقد جدد بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتمدها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يجتد به الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الآوبة ، وإن قادما يعل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشیطان موكل به يمينه التوبة ليسوقها ويرين إليه المصيبة ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيألفها حسرة على ذى غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله . مصيبة ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سمح الدعاء وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى (فتذم أنفسكم) قال بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال بالنوبة (واربتهم) قال شككنم (حتى جاء أمر الله) قال الموت (وغرکم بالله الغرور) قال الشيطان وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام فلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة . وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال رجبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمتكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رأى غاديا

(١) حديث ابن مسعود : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فقال من النور إذا دخل المقعب انفسح . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في ميسر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

ورأى أن يضع ابنة على ابنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمس إليه الرجا النجا النجا علام ترجون أنتم ورب الكعبة كأنكم والامر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشاً واحدا فأكل كسرة وليس خلقا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك (١) . وقال عاصم الأحول : قال لي فضيل الرقاشي - وأنا سائله - يا هذا لا يشغل بك كثرة الناس عن نفسك فإن الامر يخص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فيقطع عنك النهار في لا شيء ، فإن الامر محفوظ عليك ولم تر شيئا قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنوب قديم .

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما ، لكان جديراً بأن يتنفس عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعدادده ، لاسيما وهو في كل نفس يصده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يفشاك . وقفاً لقبحان لابنه . يا بني أمر لا تدرى متى يلقاك استعداد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جردى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو في كل نفس يصده أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزوع . وعنه غافل ، فاللهذا سبب الإلجاء والغرور واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذوقها فإنما يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإنما الاستدلال بأحوال الناس في النزوع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذي يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالدرك للألم هو الروح ، فهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فيتدبر ما يسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم ينفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فمما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشرة أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تفوص في سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة : فإنما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزوع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربته وأنه ، حتى قالوا : إن الموت لا شدة من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المقاول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه ، وبلغ كل

(١) حديث أبي هبيرة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحباً بكم ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في نصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغانة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصرير والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر فى داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعلى موضعهما ، وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ! ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم غدهاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها وينلق دونه باب الثوبة وتحيط به الحسرة والندامة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقبل توبة العبد ما لم يغرغ » (١) ، وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ قال : إذا عين الرسل فبعد ذلك تبدر له صفحة وجه ملائكة الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكرهه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » (٢) ، والناس إنما لا يستحيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفا من الموت على الموت ، وروى أن نفرا من إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لودعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال : يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ماسكت مرارة الموت من قلبى . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعنى على الموت وهونه على » (٣) ، وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف » (٤) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدة فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف » (٥) ، ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إني أعلم ما يلقى مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته » (٦) ، وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول :

(١) حديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغ » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر .
(٢) حديث كان يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » تقدم . (٣) حديث كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعبة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات . (٥) حديث : سئل عن الموت وشدة فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا . (٦) حديث : دخل على مريض فقال « إني أعلم ما يلقى مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من حديث سلمان بنسند ضعيف ورواه فى المرض والسكرات من رواية عبيد بن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات .

إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسى بيده لآلف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الأوزاعي :
 بلغنا أن الميت يحد ألم الموت ما لم يبعث من قبره . وقال شتاد بن أوس : الموت أظنع هول في الدنيا والآخرة على
 المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى في القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا
 بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم
 يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليلبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة ، وإذا كان الكافر معروف لم يجز به
 هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف
 تمهدون الموت ؟ فلبسوا مرض قيل له : فأنت كيف تمهد ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى
 يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم : موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر ^(١) ، وروى عن
 مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض
 لما تواروا يا ذن الله تعالى لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات ^(٢) ، وروى : لو أن قطرة من ألم
 الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت ^(٣) ، وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف
 وجدت الموت يا خليلي قال : كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك . وروى عن
 موسى عليه السلام أنه لما حارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ، قال : وجدت
 نفسى كالمصفور حين نقل سلى القلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة
 حية تسليخ بيد القصاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل
 يده في الماء ثم يمسح به وجهه ويقول : اللهم هون على سكرات الموت ^(٤) ، وفاطمة رضى الله عنها تقول :
 واكرهه لكرهه يا ابتاه ! وهو يقول : لا كرب على أميك بعد اليوم ^(٥) ، وقال عمر رضى الله عنه لكعب
 الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت : قال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كفصن كثير الشوك أدخل في جوف
 رجل وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما بقى وقال النبي صلى الله عليه
 وسلم : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام
 تفارقنى وأظفرك إلى يوم القيامة ^(٦) .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه . ثم حالتنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتوالى علينا مع سكرات الموت
 بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث :

(الأولى) شدة النزاع كما ذكرناه .

(١) حديث « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال « وأخذت أسف
 ولأبي داود من حديث خالد السلمي « موت الفجأة أخذه أسف » (٢) حديث مكحول « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت
 على أهل السموات والأرض لما تواروا ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رحمه وفيه « لو أن ألم
 شعرة وزاد » وإن في يوم القيامة لتسعين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف ، وأبو ميسرة هو
 عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث « لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت »
 لم أجده أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فإنه قال : وروى ، (٤) حديث : إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ،
 فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح به وجهه ويقول « اللهم هون على سكرات الموت » متفق عليه من حديث عائشة .
 (٥) حديث : إن فاطمة قالت واكرهه لكرهه يا ابتاه . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث أنس بالقطر : واكرهه
 ابتاه ، وفي رواية لابن خزيمة : واكرهه . (٦) حديث « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت ولن مفاصله ليسلم
 بعضها على بعض . . . الحديث » رويناه في الأربعين لأبي مديحة إبراهيم بن مديحة عن أنس وأبو مديحة سالم .

(الداهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب ؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطبق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عني فأعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود للثياب ، يخرج من فيه ومناخيره طيب النار والدخان ؛ فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه : وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خوج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقي منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه ^(١) . وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضر بها برجله فقال : تكلمى بإذن الله فقالت : يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بنينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي ، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسي إليه ، فباليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ؛ وباليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ؛ فهذه ذاهية يلقيها العصاة ويكفأها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجزء سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآها في مقامه لياة لتفص عليه بقية عمره ؛ فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فجمع ذات يوم فإذا برجل في جهوف البيت فقال : من أدخلك داري ؟ فقال : أدخلنيها ربها ؛ فقال : أنا ربها ، فقال : أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

ومنها مشاهدة الملكين المحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراعى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعا قالاه : جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجرا قالاه : لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شحوص بصير الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين : إما أبشر يا عبد الله بالنار ، أو أبشر يا ولي الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الآلأباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : أن داود كان رجلا غيورا . . الحديث : أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وإن أمي الدنيا في كتاب الموت بأفعله
(٢) حديث : لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا : لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار ، وفي =

« من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله كره لقاء الله » فقالوا : كلنا نكره الموت قال : ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاء الله ^(١) ، وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود - وهو لما به من آخر الليل : قم فانظر أى ساعة هي ؟ فقال ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد طلعت الحمراء فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى الدار ، ودخل مروان على أبي هريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشد ! ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر لأحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار . وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه ، حسبى من عمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب ؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارته صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال فيقول له جنوده : مالك يا سيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فكان معصوما ^(٢) ، وقال الحسن : لراحة المؤمن إلا لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيرم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد - عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ! فرفع طرفه إليه ثم قال : يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع - عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام ! إلى النار أو يغفر الله وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . نخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نطول بذكره وإعادته .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ! ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .
(أما الصورة) فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جينته ودمعت عيناه وبهت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيته المخنوق واحترلونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به ^(٣) » .
(وأما الإطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه

« رواية » حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار » وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يمهّد لذلك « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ... الحديث » . (١) حديث « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت . (٢) حديث « إن الله إذا رضى على عبده قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح « إذا حضر الميت أتمته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان ... الحديث » . (٣) حديث « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جينته وذرفت عيناه ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح .

وسلم « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله »^(١) ، وفي رواية حذيفة « فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا »^(٢) ، وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة »^(٣) ، وقال عبيد الله « وهو يشهد ، وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه « لا إله إلا الله » ، فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوه : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكته يقول : لا إله إلا الله ، ففكر له بكلمة الإخلاص »^(٤) .

وينبغي للملقن أن لا يلج في التلقين ولكن يتلطف ، وربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استئفاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

ولأن معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشغولاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيئة ، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظن) فهو مستحب في هذا الوقت - وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء - وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله . دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي ! فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمعما في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف »^(٥) ، وقال ثابت البناني . كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له . يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له : يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً ، فقال : يا أمه إن لي رباً كثيراً المعروف وإن لا أرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهيق فاحتضر ، فقالت له أمه : يا بني توصي بشيء ؟ قال : نعم ، خاتمي لا تسلبينيهِ فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني ، فلما دفن رؤى في المنام فقال : أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعني وأن الله قد غفر لي . ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت ، فقال : أين يذهب بي ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يا معتمر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

(١) حديث « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله » تقدم . (٢) حديث حذيفة : فإنها تهدم ما قبلها : تقدم . (٣) حديث : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة . تقدم . (٤) حديث أبي هريرة : حضر ملك الموت رجلاً يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وأسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلاً لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف . (٥) حديث : دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ وفيه « يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعاً . (٦) حديث : دخل على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . الحديث « تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت - واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه - فقال : يا ملك الموت ما تصنع . إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعوا الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين ، وقال : قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء ، قال ودو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك ! إنما هي صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه - بعد مرات - وكذلك طلب دابة فأقبحها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفض في منخره نفخة ففأله كبرا . ثم سار وسارت معه الحيتول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمر عظيم ! قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن ، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها ! قال ، هو سر ، فأدنى له رأسه فسأره وقال ، أنا ملك الموت ! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم ، قال لا والله لا نرى أهلك وثقلك أبدا ! فقبض روحه فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقى عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال مات فسأره وقال أنا ملك الموت ! فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك ! فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها ، فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إني أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أنوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموال ؟ فأتى بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أبنا بخرج من منزلك حتى أفترق بين روحك وبدنك ! قال فالمهلة حتى أفرقه قال مهيات انقطعت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه . وروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلبانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريرته ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس أنعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه غلالة يتشبه بالمساكين ، ففرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفرعه وهو على فراشه ، فوثب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى ملك يخرج مولانا ؟ قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم ، ففرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أتى ملك الموت ، فلما سمعوه أتى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع ، فقال قولوا له قولنا وقولوا له تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع ، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال ! أنت شغلتنى عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي ، فأطلق

الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تسبح المنتعجات بي ،
وتجلس مجالس الملوك بي وتنقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك ؟ خلقت يابن آدم
من تراب فنطلق ببر ومنطلق بإثم ، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت
روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت
روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيها وقد ولدت مولودا فرحمها لغربتها ورحمت ولدها
لصغره وكونه في فلاة لا متهمد له بها . فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته
فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء ! قال عطاء بن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت
صحيفة فيقال أقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن العبد ليغرس الغراس وينسكح الأزواج ويبني البنيان
وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك اليوم يتصفح كل بيت ثلاث مرات
فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك
الموت بمضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لي فيكم
لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم
ولبكوا على أنفسهم ، وقال يزيد الرقاشي بيننا جبار من الجبابرة من بنى لإسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض
أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فرعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري ؟
فقال أما الذي أدخلني الدار فرها ، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستاذن على الملوك ولا أخاف صولة
المتسلطين ولا يتمتع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مربد ؟ قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على
وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت ! قال أما هو ، قال فهل أنت مهمل
حتى أحدث عهدا ؟ قال هيئات ! انقطعت مذكرك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل !
قال فإلى أين تذهب بي ؟ قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته ، قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم
أمهد بيتا حسنا ، قال فإني لظي نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فن بين صارخ وباك . قال
يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء المقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الأعمش عن خيشمة قال دخل ملك الموت
على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلمسا خرج قال الرجل من
هذا ؟ قال هذا ملك الموت ، قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصني منه
فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ! ففعلت الريح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيته
تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال نعم كنت أتعجب منه لاني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة
قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك ! .

الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة - حيا وميتا وفعلا وقولا - وجميع أحواله عبرة للناظرين

وتبصرة المستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحيه ونبيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، لجذوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك في النزاع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا ، هيأت له ما كان به مأمورا واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تذيق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لاعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات ! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحيب رب العالمين ، لعنا نظن أننا مخلدون ، أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيئات الهيئات ! بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين ، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال : مرحبا بكم حياكم الله ، وآواكم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصي بكم الله ، إني ألكم منه نذير مبين ، ألا تعلموا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الآوى ، فانرموا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله ^(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته : من لأمى بعدى ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبي أنى لا أخذه في أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : الآن قرأت عيسى ^(٢) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا

الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ابن مسعود : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق . . الحديث ، رواه البزار وقال : هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة ، قال : وعبد الرحمن الأصماني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو ممن أخبره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود . وروناه في مبدعة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما متطعمان وضعيفان ، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط . (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته : من لأمى بعدى ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لا أخذه في أمته . . الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه : من لأمى المصطفاة من بعدى ، قال : أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال : الآن طابت نفسي ، وإسناده ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال : أما بعد : يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الانصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم ، وإن الانصار عيبت التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئتهم ، ثم قال : إن عبدا خيرا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه ووطن أنه يريد نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا أبا بكر سددوا هذه الابواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإنني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر ^(١) ، قالت عائشة رضى الله عنها : فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي وفي يومى وبين سحري ونحري وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت ، فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فنارلته إياه فأدخله فيه فاشتد عليه فقلت : أليته لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فليفته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول : لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ، ثم نصب يده يقول : الرفيق الأعلى . . الرفيق الأعلى ، فقلت : إذن والله لا يتخارتنا ^(٢) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الانصار أن النبي صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضى الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله ، فدّ يده وقال : ها ، فتناولوه ، فقال : ماتقولون ! ، قالوا : نقول : نخشى أن تموت ، وتصاح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ ، فنار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه لحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت ، وما تتكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؟ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال : (والمصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) - إلى آخرها - وإن الامور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم) وأرصدكم بالانصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم أن يحسنوا لاليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ، ألاولا تستأثروا عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدهم الخوض ، حوضي أعرض بما بين بصري الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبدا ، حصاؤه اللؤلؤ ويطحاه المسك ، من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ، ألا فن أحب أن يرده على غدا فليكشف لسانه ويده إلا مما ينبغي ، فقال العباس : يا نبي الله أوص بقريش فقال : إنما أوصى بهذا الامر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبتل القسم ، فإذا بر الناس برهم أمتهم وإذا فجر الناس عقومهم قال الله تعالى (وكذلك نولي

(١) حديث عائشة : أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد . . الحديث « أخرجه الدارقطني مسنده وفيه إبراهيم بن الحنتر مختلف فيه من محمد بن إسحق وهو مدلس وقد رواه بالعملة .

(٢) حديث عائشة : قبض في بيتي وفي يومى وبين سحري ونحري وجمع الله بين ربي وربيته عند الموت . . الحديث « متفق عليه

بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) ^(١) ، وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضى الله عنه « سل يا أبا بكر ، فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل وتدل ، فقال ليتهلك يا نبي الله ما عند الله ! فليت شعري عن منقلبنا ، فقال « إلى الله وإلى سدره المنتهى ثم إلى جنة المسأوى والفردوس الأعلى والكأس الآوى والأرفق الأعلى والحظ والعيش المهنا ، فقال يا نبي الله من يلى غسلك ؟ قال « رجال من أهل بيتي الآدى فالآدى ، قال فقيم نفسك ؟ فقال « فى ثيابي هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر ، فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى ثم قال « مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا غسلتمونى وكفتمونى فضعونى على سربرى فى بيتي هذا على شفيرى قبرى ، ثم أخرجوا عنى ساعة ، فأبى أول من يصلى على الله عز وجل (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على ، فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلوا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الآدى فالآدى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان ، قال فمن يدلك القبر ؟ قال « زمر من أهل بيتي الآدى فالآدى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى ^(٢) ، وقال عبد الله بن زمة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا أبابكر يصلى بالناس ، فخرجت فلم أربح ضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبوبكر ، فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال « أين أبوبكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، قالها ثلاث مرات « مروا أبابكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إن أبابكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء ! فقال « إنك صويحبات يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس ، قال فصلى أبوبكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمة - بعد ذلك - ويحك ماذا صنعت بي ! والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله لى لم أر أحدا أولى بذلك منك ! قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى أبدا إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذا الأمر أمر الله والقضاء قضاءه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين ^(٣) وقالت عائشة رضى الله عنها فلما

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس فأعلمهم بمكانهم وإشفاقهم فذكر ... الحديث فى خروجه متوكئا مصوبا الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل رفعة من المنبر . فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن خرازمي الأزور تميمي . روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه - سعيد ليس بالقوى . (٢) حديث ابن مسعود : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر « سل يا أبا بكر » فقال . يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل ... الحديث » فى سؤالهم له : من يلى غسلك وفيهم - فكفنتك ؟ وكيف الصلاة عليه « روى ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمرو وهو الواقدي بأسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن زمة : جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مروا أبابكر فليصل بالناس » فخرجت فلم أربح ضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبوبكر ... الحديث ، أخرجه أبو داود بأسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله « فقالت عائشة إن أبابكر رجل رقيق ... إلى آخره » ولم يقل : فى أول ربيع الأول ، وقال « مروا من يصلى بالناس » وقال « يأبى الله ذلك والمؤمنون » مرتين وفى روايته فقال « لا لا لا .. يصل الناس ابن أبي قحافة » بقول ذلك =

كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوادثهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينما نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخرجن عني ! هذا الملك يستأذن علي ، فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجرى فجلس وتنحيت في جانب البيت فنادى الملك طويلا ، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجرى وقال للنسوة : ادخلن ، فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال : إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت ، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فاذا أمرك ؟ فقلت : اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل ، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجئنا وكأنا ضربنا بصخرة ما نحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت لإعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت ، وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : كيف تجددك وهو أعلم بالذي تجد منك ، ولكن أراد أن يربذك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال : « أجدني وجعا » فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال : « يا جبريل إن ملك الموت استأذن علي ، وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك ؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال : « فلا تبرح إذن حتى يحى » ، وأذن للنساء فقال : « يا فاطمة ادنى ، فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال : ادنى مني رأسك ، فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذي رأينا منها عجبا ، فسألنا بعد ذلك فقالت أخبرني وقال : « إني ميت اليوم ، فبكيت ثم قال : « إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يحمدك معي ، فضحكت ، وأذنت ابنها منه فشمهما قالت . وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك : « ما تأمرنا يا محمد ؟ قال : « الحق بربى الآن ، فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا » طوى الروح وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ، ومالي فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلبة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقممت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أصعب رأسه بين يدي وأمسكت بصدري ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجهه ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له - إذا أفاق - بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى حبهتك من الرشح ؟ فقال : « يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذقيه كنفس الحمار ، فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهد أخى ، بعثه إلى أبى ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحى أحد ، وإنما صدم الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغشى عليه قال : « بل الرفيق الأعلى » ، كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال : « الصلاة الصلاة إنكم لاتزالون متماسكين ما صليتم جميعا ، الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو

= منضيا ، وأما ما في آخره من قول عائشة في الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبابكر رجل رقيق إذا قام فنام لم يسمع الناس من البكاء ! فقال : « لنسكن صواحبات يوسف مروا أبابكر فيصلى بالناس » .

يقول : الصلاة الصلاة ^(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين ^(٢) قالت فاطمة رضي الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم - يوم أصيب على كثرتم الله وجهه بالكوفة - مثلها : ما لقيت من يوم الاثنين ، مات فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه قتل علي ؛ وفيه قتل أبي ، ما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بشوبه - فاختلجوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخطب آخرون فلا ثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ، وليرجعه الله عز وجل ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم ^(٣) وفي رواية أنه قال : بأيتها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يميت ، والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيني هذا . وأما على فإنه أقعد فلا يبرح البيت . وأما عثمان لجعل لا يكلم أحدا - يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به - ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد ، وإن كان الناس لم يعرفوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال : والله لذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إنك ميت ولم يميتون ثم لأنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواشيهم مستبشرين وأحلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فيمنها نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجني عنى ، هذا ملك يستأذن على ... الحديث » بطوله في مجرى ملك الموت ثم ذهابه ثم مجى جبريل ثم مجى ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن احبط إلى حبيبي وصفيى محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه . وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال « يا ملك الموت أين خلقت حبيبي جبريل » قال خلته في سماء الدنيا والملائكة يزورنه فيك ، فساكر بأسرع أن آتاه جبريل فقص عند رأسه وذكر بشاره جبريل له بما أعد الله له ، وفيه ادن ياء ملك الموت فأنته إلى ما أمرت به ... الحديث . وفيه : فدنا ملك الموت يمالح قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كرهه فذلك ، إلى أن قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منسكرك ، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوه لأدريس أيضاً مقروك قاله الدارقطني ، ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي : أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربك كيف تمجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله « امض لما أمرت به » وهو منسكرك أيضاً فيه عبد الله بن ميمون الغداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في مجى ملك الموت أولاً واستئذانه وقوله . لأزربك بقرئك السلام فقال « أين جبريل » فقال هو قريب منى الآن يأتي نخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل . الحديث وفيه الخناب بن نافع منسكرك الحديث .

(٢) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين . رواه ابن عبد البر

(٣) حديث عائشة : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بشوبه - فاختلجوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخطب آخرون ومعه عقولهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الخطاب من كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يميت ... الحديث إلى قوله (عند ربكم تختصمون) لم أجده إلا أصلاً وهو منسكرك . (٦٠ - إحياء علوم الدين -)

ثم أكب عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيبك الموت مرتين ، فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمداً فإنه حي لا يموت قال الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الآية ﴾ (١) ، فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهللان وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجلدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكذلك كادنا نلجأ إلى يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلو لا ما خلفت من السكينة لم يبق أحد لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبينا وأهلكنا واحفظه فينا (٢) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى على أهل البيت عجيجاً سمعه أهل المصلى ، كلما ذكر شيئاً ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ الآية إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة ، فآله تعالى فارجوا وبه فتقوا . فاستمعوا له وأنصتوا وقطعوا البكاء ، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلح أحدهم فلم ير أحداً . ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته : يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة وبخوضا من كل رغبة ، فآله فاطمعو وأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٣) واستوفى الققعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس

(١) حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن المرحرج جاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيبك الموت مرتين . . . الحديث . إلى آخر قوله : وكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فارس من مسكنه بالسج حتى نزل ودخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منفي بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي وأمي أنت ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد تمتها . ولها من حديث ابن عباس : أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس . . . الحديث . وفيه : والله لسكان الناس لم يسمعوا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخاري فيها .

(٢) حديث : إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهللان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه . . . الحديث ، إلى قوله : واحفظه فينا ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضيف : جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجون فكشف الثوب عن وجهه . . . الحديث إلى آخره . (٣) حديث ابن عمر في سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم : إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فآله فارجوا وبه فتقوا . ثم سمعوا آخر بعده : إن في الله عزاء من كل مصيبة وبخوضا من كل رغبة فآله فاطمعو وأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع . لم أجد فيه ذكر « اليسع » وأما ذكر « الخضر » في التعزية فأنكر النووي وحده في كتب الحديث وقال : إنما ذكره الأصحاب . قلت : بل قد رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون قد دخل عليهم رجل طويل شعر المنسكين في لزار ورداه بتخبط أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذته من خلفه باب البيت فبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل .

خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فله الحمد وحده وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كاشع وأن الدين كاشع وأن الحديث كاحداث وأن القول كإقال وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبتك وخيرتك رصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المنقنين محمد قائم الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قوب زلفته وعظم رهايه وكرم مقامه وابعثه مقام محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، أيها الناس إله من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا ندعوه جزعاً ، وإن الله عز وجل قد اختار أنبييه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عدكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ فقال : والله لكأنني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبي بكر .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندري كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى مابق منهم رجل إلا ووضعه لحيته على صدره قائماً قال قائل - لا يدري من هو - غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيصه . حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قيصه فنودينا لا نتعلموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه . فأقررناه فغسلناه في قيصه كما نغسل موتانا مستلقياً ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نضرع منه ، وإن معنا لحفيفاً في البيت كالريح الرحاء ويصوت بنا أرفعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون . فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك

= على أصحابه فقال : إن في الله هزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنبوا ونظروا إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب . ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : على الرجل ، فنظروا يمينا وشمالاً فلم يروا أحداً ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخو نينا عليه السلام جاء يزيبا . ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف حدوا رواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت لسمع حسه ولا يرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضاً من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال علي : تدرون من هذا ؟ هو الخضر . وفيه عمد بن جعفر الصادق تسكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسلان غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم

بوليس فيه ذكر « الخضر » .

سبدا ولا لبدا إلا دفن معه . قال أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس بقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها في أكمانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قسبة على قسبة ^(١) في وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

وفاة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :
 لعمرك ما يغنى الثراء عن الفنى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر
 فكشف عن وجهه وقال : ايس كذا ولكن قولى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) انظروا
 ثوبى هذين فاغسلوهما وكنوني فيهما فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها
 عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه رييح اليتامى عصمة الأرامل
 فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعراك طيبنا ينظر إليك؟ قال قد نظر
 إلى طيبى وقال : لى فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه بعوده فقال : يا أبا بكر
 أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله
 فلا تخزن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك .

ولما نقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس
 له : استخلفت عينا فظا غليظا فإذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر
 رضى الله عنه فجاء فقال : لى موصيك بوصية ؟ اعلم أن الله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأن الله حقا فى الليل لا يقبله
 فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى
 الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع
 الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز
 عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء ؛ فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم
 صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب لىكون المؤمن راغبا
 راهبا ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب
 إليك من الموت ولا بذالك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذالك منه ،
 ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم زدنا فإننا نراك لما بك . فقالوا أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى
 الأفق المبين ، قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، ينشاه كل يوم مائة

(١) حديث أبى جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قسبة
 على قسبة . أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضعه القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط
 كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى فى حياته فقد تقدم أيضاً .

رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان ، اللهم إني ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير ، اللهم إني خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغنياً ورشيداً ، فلا تشقني بمعاصيك . اللهم إني علمت ما تكسب كل نفس قل أن تخلقها فلا يحصى لها ما علمت ، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم إن أحد الأيضاء حتى تشاء ، فاجعل شيتك أن أشاء ما يقربني إليك اللهم إني قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إني خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به ، فاجعلني من خير القسمين . اللهم إني خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً ، فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إني أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم ، فأشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي ، اللهم إني دبرت الأمور وجعلت مخرجها إليك . فأحيني بعد الموت حياة طيبة وفزني إليك زلني . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت تفتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال أبو بكر : هذا كله في كتاب الله عز وجل :

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائماً غداة أصيب عمر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصنفين مام بيدهما ، فإذا رأى خلافاً قال : استويا ، حتى إذا لم يرفيهما خلافاً تقدم فكبر . قال : وربما قرأ سورة يوسف أو النحل - أو نحو ذلك - في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول : قتلى - أو أكلنى - السكب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، وطار العليج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، فمات منهم تسعة - وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس انظر من قتلى ! قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبه ، فقال عمر رضي الله عنه : قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل ميثقي بيد رجل مسلم ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ! وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال ابن عباس : إن شئت فعلت ؛ أي إن شئت قتلناهم ، قال : بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال : وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ! قال : فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لأبأس . فأني بنيت فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بإشيري من الله عز وجل ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وابتعدت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفاً لآعلى ولآلى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض ، فقال : ردوا على الغلام ، فقال : يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتق ثوبك وأتق لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما على من الدين ؟ لحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوهم ، فقال : إن وفي به مال آل عمر فأداه من أموالهم ؛ وإلا فسل في بني عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدم إلى غيرهم ، وأدعني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل :

عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تغل أمير المؤمنين فأني لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولا وثرنه اليوم على نفسى ! فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه فقال : مالديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال : الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك ! فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر ! فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلًا فسمعت بكاء ما من داخل . فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين واستخلف ، فقال : ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر ، فأني لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال أوصي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئتهم ، وأوصيه بأهل الامصار خيرا فإنهم ردة الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم ، وأوصيه بالاعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم . قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت أدخلوه ، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال لي جبريل عليه السلام ليبيك الإسلام على موت عمر^(١) ، وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكفاه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحد أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ! وإيم الله إن كنت لأظن لي جعلتك الله مع صاحبك وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر^(٢) ، فأني كنت - لأرجو أن لاظن - أن يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى ! رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة - وهي خوخة في البيت - فقال : يا عثمان حصروك ؟ قلت نعم ، قال : عطشوك ، قلت نعم ، فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت - حتى

(١) حديث : قال لي جبريل عليه السلام ليبيك الإسلام على موت عمر ، أخرجه أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جداً وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

(٢) حديث ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكفاه الناس يدعون ويصلون ، فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر . الحديث « معني عليه » .

إني لأجد برده بين يدي وبين كتي - وقال لي : إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ، فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم - ثلاثا - قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال اثنوني بصاحبكم اللذين ألباكم على أن لا تجيء بهما كأنهما هما حملان أو حماران ، فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة ، يحمل دلوه مع دلاء المسلمين ، بخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي ، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم ، أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم ؛ قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارتة بالحضيض قال فركضه برجله وقال : اسكن ثبير فسا عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد (١) .

وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصمغ الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

أشدد حيازيمك للبر ت فإن الموت لا فيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فلما بلغ الباب الصغير شدد عليه ابن ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالي ولصلاة الغداة ! قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة ؛ وقتل أبي صلاة الغداة . وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة . وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما ثقل الحسن بن علي رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لاى شيء تجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ! قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا ! الحمد لله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ! وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدبر

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ... الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن والسناني

معروفها ، وانتشرت حتى لم يبق منها إلا كصباية الإناث ، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، لا يرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرمًا .

الباب الخامس : في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أقعدوني ، فأقعد لجلع يسبح الله تعالى ويذكره سم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ، وبكى حتى علا بكأوه وقال : يا رب أرحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بمهلك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش : أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غصونا ، لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بحدتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فإلبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإنى وليتكم وإن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى ! ويا يزيد إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا ليلىا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل وليجهرب التكبير ، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ، ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين ؛ وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أَل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما بيوم ، لم أَل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجددك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى ﴿ ولقد جئتنا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان - امرأة عمر بن عبد العزيز - كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده لحاسيت فى بيت آخر - بين وبينه باب وهو فى قبة له - فسمعتة يقول ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له : انظر أناائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت . وقيل له لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : أحذركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه . وروى أنه لما نقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك ، قال : ربى خير مذهب إليه ، والله لو علمت أن شفائى عند شجرة أدنى

مارفعت يدي إلى أذني فتناولته . اللهم خر لعمر في لقائك ؛ فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال : أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لحفت على نفسي أن لا تقوم محبتها بين يدي الله إلا أن يلقها الله حاجتها ؛ فكيف بكثير مما ضيعنا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات : ولما قرب وقت موته قال : اجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقهرت ونهيتني فمضيت - ثلاث مرات - ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحدث النظر فقيل له في ذلك فقال : إني لأرى خضرة ؛ ما هم يأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتفى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول (ما أغنى عنى ماله ملك عنى سلطانيه) .

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وكان المتعمص يقول عند موته : لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان المتعصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس (لا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة - وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ليته كان بهرا . وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم ، قال : عسى .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين والتابعين

ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذ رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظم الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر . ولما اشتد به النزاع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخفقني خنقك فوعزتلك إنك تعلم أن قلبي يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلاءة أحدنا من الدنيا كراد الراكب ^(١) فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك وإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزننا فقال : بل واطرباه ؛ غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه . وقيل . فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لمثل هذا فليعمل العاملون) . ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرني الجنة أو بالنار ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : والله ما أبكى لذنب أعلم أني أتيت ؛ ولكن

(١) حديث : لما حضرت سلمان الوفاة بكى ، وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يكون بلاءة أحدنا من الدنيا كراد الراكب ، أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

أخاف أني أتيت شيئاً حسبه هينا وهو عند الله عظيم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقليل له ما يبكيك ؟ قال ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكى على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء !

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشى عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابد سفره وافلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه . اجمل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا ! قال : اسكت ! فإن سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له لقي ولا تعد على ما لم أكتم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له : تموت ! فقال : ما أملك بعد . وبكى بعضهم عند الموت فقليل له : ما يبكيك ؟ . آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يهود بنفسه فقال : إن أمراً هذا أوله الجدير أن يتقى آخره ، وإن أمراً هذا آخره الجدير أن يزهد في أوله . وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه - وكان يوم الجمعة ويوم النيروز - وهو يقرأ القرآن فحتم ، فقلت له : في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال : ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي ؟ وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للنبايا عليهم	فأغفوا عن الدنيا كل غفاء ذي الشكر
مهمهم جمالة بمعسكر	به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسمى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا . وقيل لدى الذون - عند موته ، مات شهيداً ؟ قال : أن أعرفه قبل موق بلحظة . وقيل لبعضهم وهو في النزاع : قل الله فقال : إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم : كنت عند مشاد الدينوري فقدم فقيرا وقال : السلام عليكم ؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال : فأشاروا إليه بمكان - وكان ثم عين ماء - لجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجله ومات . وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا فقال لها : موتى ، فقامت المرأة ، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت : قد مت ووقعت ميتة . وبكى فاطمة - أخت أبي علي الروذباري - قالت : لما قرب أجل أبي علي الروذباري - وكان رأسه في حجرى - فتح عينيه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا بأهل قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردنا ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لخط وبالحمد المورد من حياكا

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : مانسيته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري - خادم السبلي - ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال علي درهم مظلة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف فاعلى قلبي شغل أعظم منه ! ثم

قال : وضئى للصلاة ، ففعلت ففسيت تخليل لحيته - وقد أمسك على لسانه - فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال : ماتقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر - وكان يشق عليه - كأنك تحب الحياة ؟ فقل : القدوم على الله شديد . وقيل لصالح بن مسيار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ! ولما احتضر أبو سليمان الداراني أناء أصحابه فقالوا أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ؟ ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكى امرأته فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكى ! فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك ! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تهجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طيبي مابي والذي بي أصابني من طيبي

فأخذت المروحة لأروحه فقال ، كيف يحدريج المروحة من جوفه يحترق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف الفرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن علي به ما دام بي رفق

وحكى أن قوما من أصحاب السبل دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله ، فأنشأ يقول :

إن بيتنا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهلك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعته فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فإنني كنت في وردي ! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات . وقيل للكشاني لما حضرته الوفاة ما كان عمله ؟ فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبركم به ! وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبت عنه . وحكى عن المعتز قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فإنه كان وكان - فذكرت محاسنه - فأفاق فقال من المتكلم ؟ فقلت أنا ! فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي : إني بكل سخي رفيق ، ثم طفى . ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلعا فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجوع ؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجوع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي ! فقال حذيفة وأعجباء لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله . وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة - وهو عليل - وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي ، ودخل بعض المشايخ على بمشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع - من باب الدعاء - فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أحسن غيره . ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال أليس ثم أمر ؟ ودخل المزني على الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت

يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلاً والإخوان مفارقاً واسوء على ملائيا ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكترما
ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدماء

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسألة قدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي ، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فأن لي أوان الجواب .

فهذه أقاويلهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

الباب السادس : في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك وليكنهم على القرب لا يقدر ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عند إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكان قد ، ولعله في غد أو بعد غد . ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإننا على الأثر . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فإننا رانحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة لحدثتني نفسى بشئ سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تقرر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من الموت . والآن ! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأنثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم - إلا ماشاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بآثمة المعاصي والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقولوا لبكوا على أنفسهم لأعلى الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يلى على كتابه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول :

ترَوْعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مديرات

كروعة ثلثة لمضار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فن آداب حضور الجنائز : التفكير والتفبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع - كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه - ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة خطيرة لا تدرى حقيقتها . ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذهب وذو خطايا ؟ فن منا غير مذهب وغير ذى خطايا ؟ ويحكى أن رجلا من المنهكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لسكوتهم فسقه ، فاستأجرت حمالين وحملتاها إلى المصلى فاصلى عليه أحد ، فحملتاها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمتنظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال : قيل لى فى المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له ، فزاد تعجب الناس ! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره فى المساخور مشغولا بشرب الخمر ! فقال : انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعه ثم يعود إلى المساخور ويشغل بالفسق (والثانى) أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . (والثالث) أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكي ويقول : يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ يعنى نفسه . فأنصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تنج منها تنج من ذى عزيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقوالهم عند القبر

قال الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور ^(١) ، وقيل لعلى كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إني أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الآسنة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفظع منه ^(٢) ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكي وبكيت وبكوا فقال : ما يبكيكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك ! قال : هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى ، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على ، فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة ^(٣) ، وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته ،

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبور والبلى .. الحديث « تقدم .

(٢) حديث « ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفظع منه » تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

(٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم ... الحديث « وفيه » هذا قبر أمى بنت وهب استأذنت ربي فى زيارتها فأذن لى ... « وتقدم فى آداب الصحبة أيضاً ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب « وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أبو بى هانئ ضفه ابن مسعود وقال أبو حاتم صالح .

فَسئل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١) ، وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه ؟ فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟ وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى ، يوم أوضع في قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى ممادى وإذا قت لم يفتابونى . وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ! ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقت الليلة أنفكر فى القبر وساكنه ، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قرب به بعد طول الأنس منك به ! ولرأيت يبتلى فى الحوام ويمر فى الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ، قال : ثم شق شقة خز مغشياً عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى إخوانك اغتبطت ؟ ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور غار كما يخور الثور . وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وغابهم . وكان بكر العابد يقول يا أماء ليتك كنتى عقيماً إن لابتك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا . وقال يحيى بن من معاذ : يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه ؟ إن أجبت من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبت من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي فى بواطنك ! وكان عطاء السلى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه ! وعانيتم أعمالكم فوامعلا ! ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجدده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ يردد ها ، ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل . وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يهود مضجعه ويسوى فراشه للنوم ، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بينى وبينك شيء ! وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلاث واستحكم فيهم البلى وأصابت الحوام مقيلا فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغنومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

(١) حديث ثمان : كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيتة وفيه : إن القبر أول منازل الآخرة . أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وهدم فى آداب الصلوة .

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وقيل لأنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا
صوتنا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يؤسوا فأنقلبوا . وقال أبو موسى
القيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة - وفيهم الحسن - فقال له الحسن : يا أبا فراس
ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :
أحاف وراء القبر إن لم تعافني أشد من القبر التهابا وأضيحا
إذا جاءني يوم القيامة قائم عني وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكتم منكم في قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جابوك لأخبروك بالسن تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حيساتها
وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا
فكيف أذوق لطم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابنه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصنع داود مكانه وخز مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار : مررت
بالمقبرة فأنشأت أقول :

أبنت القبور فناديتها فأين المعظم والمختقر
وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فتوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما خبير وماتوا جميعا ومات الخبير
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم
وقال ابن السماك : مرت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فينا الله أسرع ما لسوني

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا ينفع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعدّ عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغزته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب أسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداد مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي رأيت عيناى بينهم مسكاني

ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لي قائل صار لقمان إلى رسمه
فأين ما يوصف من طبه وحذقه في الماء مع جسده
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثقله سينقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكاهم مالم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بخلافها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد للوفق به ورتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه لحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيق لها ، فوطن نفسك على التحسر على تضييعهما عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لي في الله - فيما يرى النائم - فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها - بمعنى الحمد لله رب العالمين - أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يفتنونني فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

بيان أقاوليهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت - منزلة مالهو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعله أنه لاحق به على اقرب ، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر . وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جوعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله »^(١) ، وإنما ذكر السقط تنبيها بالآدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال زيد بن أبله : توفي ابن لداود عليك السلام لحزن عليه حزننا شديدا فقبل له : ما كان عدله عندك ؟ قال ملء الأرض ذبا قيل له : فإن لك من الاجر في الآخرة مثل ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيجثسهم إلا كانوا له الجنة من النار ، فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو اثنان ؟ قال : أو اثنان^(٢) ، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب إلى الإجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه لحق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال : اللهم إني قد غفرت له ماوجب لي عليه فأغفر له ماوجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من ربي فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذو بن عمر بن ذر فأم أبوه عمر بن ذر - بعد ما وضعه في الحدة - فقال : يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا فات وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت ألزمتك طاعتني ، اللهم ما وعدتني عليه من الاجر في مصيبتني فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه . فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه : ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ولو أقنما نفعناك ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن ! فقالت : يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد ، قال : فكيف ؟ قالت : إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطا في دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب العلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله ، فخرج أبوه يطلبه فبات عطشا من شدة الحر ، قالت : فأرداني الدهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب يلزمني أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجرع ، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(١) حديث « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله » لم أجد فيه ذكر « مائة فارس » وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة « سقط أقدمه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خلفي » .

(٢) حديث « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيجثسهم ... الحديث » تقدم في النكاح .

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد ^(١) .

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا ^(٢) ، وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ ^(٣) ، وفي هذا اليوم قال : أذن لي في الزيارة دون الاستغفار ^(٤) ، كما أوردنا من قبل . وقال ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن ، فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت نعم ، ثم أمر بها ^(٥) ، ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فلهن يكثرن الهجر على رموس المقابر فلا يبق خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام ، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر القبور تذكركم بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجسائر لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله ^(٦) ، وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذروا موتاكم وسلوا عليهم فإن لكم فيهم عبرة ^(٧) ، وعن نافع أن ابن عمر كان لا ير بقر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه . وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا ^(٨) ، وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليوت والداه وهو عاق لها فيدعو الله لها من بعدهما فيكتبه الله من البارئين ^(٩) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من زار قبري فقد

- (١) حديث : نهى عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .
- (٢) حديث علي : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا ، رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى : غير أن لا تقولوا هجرا ، وفيه على بن زيد بن جدهان عن ربيعة بن الدابة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٣) - حديث : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأحمسي متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كتبنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها
- (٤) حديث : وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار ، تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة واستأذنت ربي أن أستغفر لأبي فلم يأذن لي ، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي .
- (٥) حديث ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخي عبد الرحمن قلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها . أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد
- (٦) حديث أبي ذر : زر القبور تذكركم الآخرة واغسل الموتى ، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة . . . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد
- (٧) حديث ابن أبي مليكة : ذروا موتاكم وسلوا عليهم وسلوا عليهم . . . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه حكاه مراسلا وإسناده حسن .
- (٨) حديث : من زار قبر أبيه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا ، أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٩) - حديث ابن سيرين : إن الرجل ليوت والداه وهو عاق لها فيدعو الله لها من بعدهما فيكتبه الله من البارئين ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عتبة أبي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصادق بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عتبة والصادق بن الحجاج كلاهما ضعيف .

وجبت له شفاعتي ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ^(٢) ، وقال كعب الأحبار : ما من حجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبور يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يقرؤنه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً بوجهه الميت ، وأن يسلم ولا يمسه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيت مائة مرة أو أكثر يحجى إلى القبر فيقول : السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ^(٣) ، وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصماً في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، فقلت أين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة الجمعة وصيحتها إلى أبي بكر ابن عبد الله المزني فتتلاقى أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيأت أبلت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعم تعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ف قيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين ؟ قال بلغني أن المرقى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده . وقال الضحاك من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذاك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . وقال بشر ابن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبابة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعوا كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم ؟ قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها ، قلت فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك . وقال يشار بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا يشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور ونهر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الميت في قبره إلا كالنريق المتفوث ينتظر دعوة تلحقه

(١) حديث « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » تقدم في أمرار الحج (٢) حديث « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » تقدم فيه (٣) حديث عائشة « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » أخرجه ابن أبي الدنيا في القدور وفيه عبد الله بن سمان ولم أرف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي .

من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار (١) وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت يشهاب من نار فلولا أن داعيا دعاني لرأيت أنه سيضربني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقيم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنتك رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ، ويكون الله عز وجل حجيجهم دونهما ، فقال رجل يا رسول الله فإن لم يمرف اسم أمه ؟ قال « فلينسبه إلى حواء (٢) »

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روى عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن اسماعيل الحلبي ؟ قال ثقة : قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم « قال أخبرني مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك ، فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقروا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الحندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فتمت ثم تنهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لند آذيتي منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرتهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نورا مثل الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزائه وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلاغى أنها هوتبت ، في كثرة إيمانها المقابر فقالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتي القبور فيكأني

(١) حديث « ما الميت في قبره إلا كالنريق المتنوث ينتظر دعوة تليق به من أبيه أو من أخيه أو صديق له .. الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار يحدّث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال : يا سعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقيم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة ... الحديث » في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف .

انظر وقد خرجوا من بين أطبائها ، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الاجفان الدسمة ، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفاس وأشد تلفها للأبدان ، بل يذبح أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبدالعزيز ؛ حيث دخل عليه فقيه فتهجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيته بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدة تان فسالنا على الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ، وتأتأ البطن فملا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن .

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضی الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تنسوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار تحسبهم ما هم فيه ^(٣) ، وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم فائتوا عليها شرا فقال عليه السلام : وجبت ، ومروا بأخرى فائتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبت ، فساله عمر عن ذلك فقال : إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء الله في الأرض ^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد لم يمت فيتمني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبادي وتجاوزت عن علمي في عبادي ^(٥) .

الباب انسابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها .
فظن بعضهم : أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كوت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .
وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم به نيب ولا يتنعم بشواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر . وقال آخرون : إن الروح باقية لا تتعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا .
وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتطلق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد

(١) حديث : إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تنموا فيه ، أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد
(٢) حديث : لا تنسوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا ، أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضا
(٣) حديث : لا تذكروا موتاكم إلا بخير .. الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد متصرا على ما ذكر منه هنا بلفظ « هل كلكم » وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس
وهلم عليه علامة الدقائق والطبراني (٤) حديث أنس : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فائتوا عليها شرا فقال : وجبت ، الحديث متفق عليه (٥) حديث أبي هريرة : إن العبد لم يمت فيتمني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره ذلك .. الحديث أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يروي عن ربه عز وجل : « ما من عبد مسلم يموت فيتمني له ثلاث آيات من جيرانه الأديين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما عملوا وخبرت بما أعلم »

انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى إنها لتبطل باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد بعد الموت ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباد الله . وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها ، وأعني بالروح : المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغموم ولذات الأفراس . ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراس والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات وذلك لا يموت - أى لا ينعدم - ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية .

نعم تغير حاله من جهتين : (إحدهما) أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلماؤه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المولم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والآل واحد في الحالتين . وإما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقتة ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قبيص كان يلبسه مثلا ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

(والثاني) أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة ، كما قد ينكشف للشيخ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعبد ذلك يقال له (كنى بنفسك اليوم عليك حسيباً) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتشتمل فته نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا العانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقة بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعيته . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده

واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمه تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقديعنى عنه ، ويكون حال المتسم بالدنيا المظلمين إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل في أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دقنت فيها جميع فواحشه وجنائياته ذرة ذره وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخلجلة والحياء والنحس والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المظلمين إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدا أولوا البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربي ^(١) ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة (أما الآيات) فأورد في الشهادة : ذنبا تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾ ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فقبل يارسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنهم لاسمع لهذا الكلام معكم إلا أنهم لا يقدرון على الجواب ^(٢) ، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفة آياتها والآية نص أرواح في الشهادة . ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة . وقال صلى الله عليه وسلم : القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ^(٣) ، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسادته يتعجل عند الموت من غير تأخير ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة ^(٥) ، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال : كنا مع علقمة في جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه :

(١) حديث : لأنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) وقد تقدم . (٢) حديث : ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر « يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا ... » أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب . (٣) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف . (٤) حديث أس « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٥) حديث « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغدوة والعشية ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات غريبا مات شهيدا ووفى فتات القبر وغدى وريح عليه رزقه من الجنة (١) ، وقال مسروق ، ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال : الموت ، قلت : فإن لم يموت؟ قال : يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء . فكل ماسوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة . وهذا قال عبد الله بن عمرو . إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في بطن فأخرج منه فهو يتفلسح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه ؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراجه بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ! لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته ، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع ، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه ! وتجوزد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير . والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد به قال الله تعالى ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لمعان لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم . وهذا النعيم يدركه الشهيد - كما انقطع نفسه - من غير تأخير . وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع لجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعيير عن منتهى نعمهم بعبارة أخرى ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر : ألا أبشرك يا جابر ، وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال : بلى بشرك الله بالخير فقال : إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعد بين يديه وقال تمن على يا عبدى ما شئت أعطيك فقال : يارب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) ، وقال كعب : يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له : لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال : أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة ! فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ،

(١) حديث أبي هريرة : من مات غريبا مات شهيدا ووفى فتات القبر ، أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا « فتان » (٢) حديث عائشة : ألا أبشرك يا جابر ... الحديث « وفيه » لأن الله أحيا أباك فأقعد بين يديه . الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعيف ولا ترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر « ألا أبشرك بما أتى الله به أباك » قال : بل يا رسول الله ... الحديث « وفيه فقال » يا عبدى تمن على أعماك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون .

ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الاكتاف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات « أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ^(١) » ، فعرفك بهذا أن نسبة السعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ^(٢) » ، وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه ^(٣) » ، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه . وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة . وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويسكنونه وإنه لينظر إليهم . وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تذهب حيث شامت . وقال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يور في جوفها فآله الله في إخوانكم من أهل القور فإن أعمالكم تعرض عليهم ^(٤) » ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ^(٥) » ، ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً آخرى به عند عبد الله بن رواحة - وكان قد مات وهو خاله - وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره ^(٦) » وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان مأواك وفي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث ؟ وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتتهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم . . . أو

(١) حديث : قال لرجل مات « أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث « إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن جهم السلفي عن سليم بن عامر الجنازي مرسلًا هكذا

(٣) حديث : قبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن فلا أقدمات فقال « مستريح أو مستراح منه » متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ : مر عليه بمجازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف

(٤) حديث النعمان بن بشير : ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فآله الله في إخوانكم من أهل القبور ، فإن أعمالكم تعرض عليهم » أخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله « آله الله » ورواه بكه الأزد في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكامله في ترجمة أبي اسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول ، قال الأزد لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدى

(٥) حديث أبي هريرة « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » أخرجه ابن أبي الدنيا والحاملي بإسناد ضعيف ولا أحد من رواة من سمع أسناناً عن أس « أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات . . . الحديث »

(٦) حديث أبي سعيد الخدري « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره » رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن .

ما قدم عليكم ؟ فيقولون ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بإصلاح ولده في قبره . وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أحاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة فإذا سأله عن رجل مات قبله وقال : مات قبلي قالوا ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ذهب به إلى أمه الهاوية (١) .

بيان كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ! ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمزج في فذاذا ؟ فإن كان مصلحا أجاب عنه بحبيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إني إذا أنحوت عليه خضرا ويعود جسده نورا وأصعد روحه إلى الله تعالى (٢) . والفتاد هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسر الرواي . وقال عبيد بن عمير اللبثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطعيا خرج مسرورا ، ومن دخلني عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره مذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة ، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أعلك في بطن الأرض عن غزته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبر وأنت تراه محمولا تهاده أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه ؟ وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الإخلاء والأهلون فلا تيسر لك اليوم عندنا . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجئ ملائكة العذاب من قبل رجله فتقول الصلاة إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليك عنه فقد أنصب نفسه وأتعبد بدنه وحج وجهه لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئا طبت حيا وطبت ميتا . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتي بقنديل من الجنة

(١) حديث أبي أيوب : « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أحاكم حتى يستريح » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ، ورواه ابن المبارك في الزهد ، ووافاهل أبي أيوب بإسناد جيد ، ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه . من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرك في ! ألم تعلم أني بيت الفتنة ... » الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكفي من حديث أبي الحجاج النخعي بإسناد ضعيف .

فبستهضى بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضبقي ونلتى وهولى ودودى فإذا أعددت لى ، (١) .

بيان عذاب القبر وسؤال منسكرو منسكرو

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار لجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منسكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ثلاثا ثم قال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون متبصره ، فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وأنه ليسمع خفق لعالم (أذاولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد ، صلى الله عليه وسلم قال : فينهترانه انتهارا شديدا وهى آخر فرصة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : أنا عمالك النصالح والله ما علمت أن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله لجزاك الله خيرا ، قال : ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ، قال : وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرايل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه تكل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وأنه ليسمع خفق لعالم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول : لا أدري فيقال : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيح الوجه منن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول : بشرك الله شرا من أنت ؟ فيقول : أنا عمالك الخبيث ، والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله لجزاك الله شرا فيقول وأنت لجزاك الله شرا ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد لواجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار ترابا ، فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين ، قال : ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (٢) ، وقال محمد بن على مامن ميت يموت إلا مثل له

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ... أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا سريلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرعه . (٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار لجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منسكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر .. الحديث « قوله »

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباط الریحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين . وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جرة فتزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجرة وأن لها نسيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى جهنم (١) ، وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال أى شئ تريد فى أى شئ ترغب أن ترجع لتجتمع المسال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتثيق الأنهار ؟ قال : لا ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، قال : فيقول الجبار ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ أى ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيما إذا أنزلت ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تزيينا هل تدرون ما التين ، تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة دوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون (٢) ، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والنل والحقده وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تنشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذى إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات والنشأ فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا

(أحدهما) وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور المملوكة ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحى أم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا فى الميت ؟ وكأن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هى من جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى .

= أخرجه أبو داود والحاكم بكامله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

(١) حديث أبى هريرة « إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباط الریحان .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بألف المصنف . (٢) حديث أبى هريرة « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ... الحديث » ورواه ابن حبان .

(المقام الثاني) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان . وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلفك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفرض إليه في العادة ، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات الممالكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذينا فطرات حالة صار اللذيق بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يحسق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليتني لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذى بفراقه ؟ فالمرت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فأحال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعيم به . فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذلل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿ كلا لهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴿ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثار الصبر على لدغ العقرب . فإذا لم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب ، وحب الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستمتد لهذه اللدغات ؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ، وبأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حتى فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لأننا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذاب بعد الموت أشد . لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذ قد انسَدَّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس . فإذا كل قيصر له ومندبل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به ، فإن كان مخضا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون ، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكذا أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم : صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين ^(١) ، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل ، فإن استكثر فليست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقلت فليست تخفف إلا عن ظهرك .

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدري أبنا له قد مات في المنام فقال له : يا بني عظمي ، قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بني زدي ، قال : يا أبت لا تطيق ! قال : قل ، قال : لا تجعل بيدك وبين الله قيصا . فما لبس قصيا ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثاني . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله بالتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصديق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذي أوصيك به أن لا تنكسر فظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان . فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأهل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهم وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول في النبي ، فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينثر له في قبره . ثم يقال له نعم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقال له نعم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقا قال لا أدرى

(١) حديث « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين » لم أجده أصلا .

كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التمس عليه فتلتصم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ^(١) ، وعن عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا عمر كيف بك إذا أنت مت فأنطلق بك قومك ففاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحطوك ، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكرو وكبير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يحزان أشعارهما ويبحثان القبر بأيابهما فتلتلاك وترترك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر : ويكون معي مثل عتلى الآن ؟ قال : نعم ، قال : إذن أكفيكما ^(٢) ، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذى لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تأثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه الدم . وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسقط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة ، لآراء فتنتيه ولا تسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاءته القرآن . وإن أتاه من قبل رجله جاءته قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة لجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال : يضبط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله ^(٣) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن القبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ ^(٤) ، وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسادنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يا رسول الله رأينا منك شأناً فم ذلك ؟ قال : ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأثبت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين ^(٥) .

(١) حديث أبي هريرة : « إذا مات العبد أتاه ملكان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن حبان مع اختلاف . (٢) حديث عطاء بن يسار : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : يا عمر كيف بك إذا أنت مت فأنطلق بك قومك ففاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب البور هكذا ومرسله ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد . رويته من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسله قلت : ووصله ابن بطه في الإبانة من حديث ابن عباس ، ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمرو قال فرب هذا الإسناد تفرد به بفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر ؛ فقال عمر : أريد ألبا هؤلاء ؟ فقال : نعم كهيتكم اليوم ، فقال عمر : فيه الحجر . (٣) حديث حذيفة : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة لجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ... الحديث رواه أحمد بسند ضعيف . (٤) حديث عائشة : أن القبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ ، رواه أحمد بإسناد جيد (٥) حديث أنس : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ... الحديث ، وفيه : لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر - المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار - نعرفنا أحوال الموتى على الجلة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنما إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التوقى الباطن قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة مايجرى عليه ، وإذا مات فقد قبول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملوكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثينة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملوكوت ما لم تنفثع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملوكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى في عالم الملوكوت فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمطة القبر في حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته (١) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أئتمه بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والاولياء الذين تقرب در حتم منهم .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة (٢) ، وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا (٣) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمتع والنيكلة لها . ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ (٤) وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملوكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال مرآة تترامى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ؛ كما ورد في القرآن : لجميع

(١) حديث : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته ، وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله . (٢) حديث : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . تقدم . (٣) حديث : أمره بالطهارة عند النوم . متفق عليه من حديث البراء : إذا أتيت مضجعا فتوضأ وضوءك لفلاة . الحديث . (٤) حديث : انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم . أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

ما جرى في العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو ورق ، بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا . وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه . واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع في مقابلة المرأة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرأة تراهي في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعتة تلالا في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخادف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وسادام متيقظ فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب ، فإذا تخلص به ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه ، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمعاني التي بين المتخيل والمعاني . وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير . ويحكى لك مثال واحد وهو أن رجلا قال لادن سيرين : رأيت كأن بيدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أن روح الختم هو المنع ولا جله يراد الختم . وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فإذا نرى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح - نعوذ بالله من ذلك - ولما مكثوا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ويقال (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوه فاصبروا وأولوا تصبروا) سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون (وإليه الإشارة بقوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عمادا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من (٦٤ - إحياء علوم الدين - ٤)

شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ؟ لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا ! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا ! مع أننا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا . ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين « أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ماشئت . فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك مجزى به ^(١) » ، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ^(٢) ولم يخلف دينارا ولا درهما ^(٣) ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن ^(٤) » ، فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه متسعا للخليل ولا حبيب ! وقد قال لامته ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه ما - عا - إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة ، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المساوى ﴾ فلو خرجت من مكن الغرور وأنصفت نفسك يارجل - وكما ذلك الرجل - لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لاتسعى إلا في الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! وما أبعد ظنك وما أبعد طمعك ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾ .

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ، ولنذكر الآن من المنايات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنايات .

بيان منايات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام « من رأى في المنام فقد رأى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي ^(١) » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فـ رأيت أنه لا ينظر إلى فقلت : يا رسول الله ما شأني ؟ فالتفت إلى وقال « ألتست المقبل وأنت صائم ؟ » ، قال : والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضي الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتيت أن أراه في المنام ، فـ رأيت أنه لا عند رأس الحول فرأيت أنه يسمح العن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهت لولا ألى لقيته ره و فارحيا . وقال الحسن بن علي : قال لي علي رضي الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامى فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني ! فخرج فضربه ابن ملجم . وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني فقلت : يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم . (٣) حديث : لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة . تقدم أيضا . (٢) حديث : لم يخلف دينارا ولا درهما . تقدم أيضا . (٤) حديث « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن » تقدم أيضا . (٥) حديث « من رأى في المنام فقد رأى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال : غفر الله لك (١) ، وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزن علي عليه وأمنى أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام قال : فرأيت به يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبى ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ؛ فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمان الله أباك وسود وجهه ! قال : فقممت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلتني من ذلك رعب ، فبينما أنا في ذلك الغم إذ غلبتني عيني فتمت فإذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنجسوا ، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال : قم فقد بعض الله وجهه أببك ! فقلت له : من أنت بأبى أنت وأبى ؟ فقال : أنا محمد ، قال : فقممت فكشفت الثوب عن وجهه أي فإذا هو أبيض ! فترك الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده - فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعل و معاوية فأدخلا بيوتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فإذ كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول : مضى لي ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال : ألا تعلم ما صنعت أمي بعدى ؟ قتلوا بني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . لجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه .

وروى الصديق رضي الله عنه فقيل له : إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا أوردني الموارد ، فإذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورق في المنام فقلت : ياسيدي ما فعل الله بك ؟ فقال : ديرني في الجنان فقيل لي : يا متمم هل استحسنيت فيها شيئا ؟ قلت : لا ياسيدي ، فقال : لو استحسنيت منها شيئا لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى . وروى يوسف بن الحسين في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ؛ قيل : بماذا ؟ قال : ما خلطت جدا بهزل . وعن منصور بن إسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فإن استحييت أن أقربه ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت .

(١) حديث ابن عينة عن محمد بن المنكدر عن جابر : ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا . رواه مسلم وقد تقدم .

ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره . وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما : بيده طشت ، ويد الآخر : لمبريق ، فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ! فقلت : يا رسول الله ! ليس قد روى عنك أنك قلت : المرء مع من أحب ، ؟ قال : بلى ، قلت : يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء ! فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم . وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنني أنكلم على الناس فوقف على ملك فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفي بهيزان وفي قول الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤى يجمع في النوم فقلت له : كيف رأيت الأمر ؟ فقال : رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة ! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فقصمت منه فأخصر رجلا يقتلني ! وقال محمد بن واسع : الرؤيا قسر المؤمن ولا تنفرد . وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له : رحمة الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، قال : أما والله لقد أعطيني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما ، فقلت : في أي الدرجات أنت ؟ فقال (مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وسئل زرار بن أبي أوفى في المنام : أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال : الرضا وقصر الأمل . وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في المنام فقلت : يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخا كبيرا ، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ فقال : كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي . وقال علي الطلمحي : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت : من أنت ؟ فقالت : حوراء ، فقلت زوجيني نفسك ، قالت : اخطبني إلى سيدي وأمهرني ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتنا . وقال إبراهيم بن اسحق الحربي : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي ، فقلت لها : بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت : أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لي بنبتي . ولما مات سفيان الثوري روى في المنام فقلت له : ما فعل بك ؟ قال : وضعت أول قدمي على الصراط الثاني في الجنة . وقال أحمد بن أبي الخوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية - ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نورا - فقلت لها : بماذا ضو وجهك ؟ قالت : تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها ؟ قلت : نعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهي ، فن ثم ضو وجهي كما ترى . وقال السكتاني : رأيت الجنيد في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركتين كنا نصليهما في الليل . ورؤيت زبيدة في المنام فقلت لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي هذه الكلمات الأربع : لا إله إلا الله أفنى بها عمري ، لا إله إلا الله أدخل بها قبري ، لا إله إلا الله أخلى بها وحدي ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي . ورؤى بشر في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ربي عز وجل وقال يابشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف . ورؤى أبو سليمان في النوم فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم لي . وقال أبو بكر السكتاني : رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ قال : التقوى ! قلت : فأين تسكن ؟ قال : كل قلب حزين ! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا السقم ! قلت : فأين

تسكنين ؟ قالت : كل قلب فرح مرح ! قال : فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة . وقال أبو سعيد الخزاز : رأيت في المنام كأن إبليس وثب على ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها ، فهتف في هاتف : إن هذا لا يخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون في القلب . وقال المسوحى : رأيت إبليس في النرم يمشى عريانا فقلت : ألا تستحي من الناس ! فقال : بالله هؤلاء ناس ! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية . وقال أبو سعيد الخزاز : كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدرى ، فقال : شر هذا أكثر من خيره . وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقلت له : أوصني ، قال : أقلل من معرفة الناس ، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثوري نقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عيمد
فدونك فاختر أى قدر أردته وزرني فإني منك غير بعيد

وروى الشبلى بعد رته بثلاثة أيام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : ناقشني حتى أيسر ، فلما رأى بأسى تمدنى برحمته . وروى نون بنى عامر بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وجعلني حجة على المحبين . وروى الثوري في المنام فتيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو بمن يلج على ربه في كل يوم مرتين . وروى بعضهم فسئل عن حاله فقال : حاسبونا فدفقوا * ثم منوا فأعتقوا * روى مالك بن أنس فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنزة سبحانه الحى الذى لا يموت . وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن ماديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض . وروى الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غيرى يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس ؟ فقال هؤلاء ناس ! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأسرهم أكتدى ! قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رموسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الحديث . وروى الثمرا بآذى بمكة - بعد وفاته - في النوم فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نودت يا أبا القاسم أبعده الاتصال انفصال ؟ فقلت لا يا ذا الجلال ، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي . ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيجالي بيني وبينك ، فقال عتبة طلقت الدنيا فلا رجعة لي عليها حتى ألقاك . وقيل رأى أيوب السخثياني جنازة عاصم ، فدخل الدملج كيلا يصل علىها . فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وقال قل لا إله إلا الله (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لم مسكنم خشية الإنفاق) وقال بعضهم رأيت في الليل لتي مات فيها

داود الطائي نورا ، وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع الشيخ ، قلت : تلك الأحوال التى شاهدتها ، فقال : لم تكن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم - فى النوم - فقال لى : قل لآبى سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد - وحياة الحب - حلم وما حلنا

قال : فأنتم فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت : أليس قد مات ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال : بئج ذاك ﴿ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت : يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب . ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فأتيته فقلت أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى أرشدك الله ، فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى . وقال أبو بكر بن أبى مریم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت ما فعلت يا ورقاء ؟ قال البكاء من خشية الله . وقال يزيد بن نعام هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرأها أبوها فى المنام فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة ؟ قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسيحنا أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها . وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة فى المنام فقلت ، ما صنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك ! قال فلما أصبحت جئت إلى بيتى فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت (يا هادى المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين) وقال موسى بن حماد رأيت سفیان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت ، يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال بالورع ، قلت فما بال على بن عاصم ؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب . ورأى رجل من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال يا رسول الله عظمى ، قال نعم من لم يفتقد نقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فآلموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمنى فى هذه الأيام أمر أمضى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتانى فى منامى فقال لى يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتى ولا أتق إلا ما وقيتنى اللهم فوقتنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية ؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها . فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى

الله زلنى ، فلنذكر بعدها ما بين يدى الموق من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أوفى النار والحد لله حمد الشاكرين .

الشطر الثانى

من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهله . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها وأسماها . وصفة المسألة عن الذنوب . وصفة الميزان ، وصفة الخصاء ورد المظالم ، وصعة الصراط . وصفة الشفاعة . وصفة الخوض . وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسرهم ، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان . وصفة النظر إلى وجه الله تعالى . وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبقت شترأحوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العقابة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لشكر ونكير وزوالها . ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور . يك يوم النشور وأمراض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونفس الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دفته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبثق من قلبك دواعى الاستعداد لها ، وأنت الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحز جهنم وزمهرير ما مع ما تكتشفه من المصائب والأهوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر فطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه - الذى أصر - صدقت ، ثم مد يديه لتناوله ؛ كان مصداقاً لبسانه ومكذباً به . اه وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، وكذبى وما ينبغى له أن يكذبى ، أما شتمه إياى فيقول إن لى ولداً وأما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى (١) ، وإنما فتور البواطن من قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور ؛ ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانعاً يصنع من النطفة القدرة مثل هذا الأدنى المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ يحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ فى خلق الأدنى - مع كثرة هجائه واختلاف تركيب أعضائه - أعاجيب تزيد على الأعاجيب فى بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

(١) حديث « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبى وما ينبغى له أن يكذبى ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

ذلك في صنعته وقدرته ؟ فإن كان في إيمانك ضعف ففقر الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والاختار وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإياها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رموس الموق فيثيرون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الحميم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ فلم يكن بين يدي الموق إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض - يعنى يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) .

قال مقاتل : الصور هو القرن ؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر ملك الموت فيموت . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيى الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة (٢) ، فتفكر في الخلائق وذلم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من معاناة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم . بل إن كنت في الدنيا من المترفين والأغنياء المتنعمين فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطئون بالأقدام مثل الذرة ، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم

(١) حديث « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ « إن صاحبه القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان بلا حظان النظر متى يؤمران » وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه . (٢) حديث « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث » لم أجده هكذا بل قد ورد : أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب الظلمة من حديث أبى هريرة « إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضع على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قال البخارى ولم يصح وفي رواية لأبى الشيخ « ما طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينتظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » ولإسنادها جيد .

الذشور من غير خطيئة تدأست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمزدها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى ﴿ فوركك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جهنم ﴾ فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صنفص لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، ولا ترى عليها ربوة يحتفى الإنسان وراها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد »^(١) . قال الراوى : والعفراء : بياض ليس بالناصع . والنقي : هو النقي عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمتد مد الأديم العكاظي ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسماوات تذهب شمسها وقرها ونجومها . فانظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدة ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تسأرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها . فينأى كذاك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم وانثقت مع غلظتها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيأهول صوت انشقاقها في سمك وبها هيبة ليوم تلتشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالهن ، واشتبك الناس كالفراس المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان ، قالت سودة - زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال « شغل الناس عن ذلك بهم ﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »^(٢) ، فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله وكيف يمشون على

(١) حديث « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله « ليس فيها معلم لأحد » لجملها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه .
(٢) حديث « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة راوية الحديث : واسوأناه ... الحديث « أخرجه الترمذي والنسائي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائمة « واسوأناه » ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائمة « واسوأناه » .

وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يشبههم على وجوههم ^(١) ، فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمتص على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها . فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف طاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشیطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كغاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين . ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرهما واشتد كربه وغمه من وهبها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الحجلة والحياء من الافتضاح والاختزاع عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحترق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبته ، وبعضهم - قويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه ^(٢) » ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ أذقنهم ^(٣) » ، كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح . وفى حديث آخر « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب ^(٤) » ، وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيمرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه - وأشار بيده فألجمها فاه - ومنهم من يغطي العرق - وضرب بيده على رأسه هكذا ^(٥) » ، فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق ؟

(١) حديث أبي هريرة « يحمر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ... الحديث » رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يا نبي الله ، كيف يحمر الكافر على وجهه ؟ قال « أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يشبه على وجهه يوم القيامة » . (٧) حديث ابن عمر « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه » متفق عليه . (٣) حديث أبي هريرة « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذواعا ... الحديث » أخرجه فى الصحيحين كما ذكره المصنف . (٤) حديث « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن هدى لا ظن أنه كان يعتمد الكذب لسنن أمه تشبه عليه . (٥) حديث عقبة بن عامر « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيمرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه ... الحديث » رواه أحمد وفيه ابن لهيعة .

واعلم أن كل عرق لم يخرج له التعب في سبيل الله - من حج وجهاد وصيام وقيام وردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر - فسيخرج له الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عطية شتبه طويله مدته .

صفة طول يوم القيامة

يوم تنف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منتظرة قايهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم ، يقفون ثلثائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجردون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال : يقومون مقدار ثلثائة عام . بل قال عبد الله بن عمرو ، تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال : كيف بكم إذا جمع الله كما تجمّع النبل في السكّانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم ^(١) ، وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حترها واشتد لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يسكّتم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتعلّقوا ببني لإدفعهم وقال : دعوني ! نفسي نفسي ؟ شغلي أمرى عن أمر غيري . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه (لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للبوت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك إلى خاصة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا ^(٢) » ، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام بقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك ، فاعمل في أيام قصار لا أيام طوال ترجح ربما لا تنتهى لسروره ، واستحقق عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان رجلك كثيرا وتعبك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كذرت ، والجبال قد

(١) حديث ابن عمر . تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال : كيف بكم إذا جمع الله كما تجمّع النبل في السكّانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ، قلت : لما هو عند الله بن عمر ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولم يرو عنه عبد الرحمن بن ميسرة الحضرى أربعة هذا أحدهم . مصرى والثلاثة الآخرون شاميون . (٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذي نفسي بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا » أخرجه أبو بلى والبيهقى في الشعب من حديث أبي سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي بلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . « يكون ذلك على المؤمن كبتل النفس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقى في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ « لئلا الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة » .

سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلقت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قدزلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراش المثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الأجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال ، شيبني هود وأخواتها ^(١) ، وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت ، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك أن تجمع القرآن وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قمعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه . وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أسماها بالنقف بكثرة أسماها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الاسماء تكرير الاسماء والالفاظ بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوته معنى ، فاحرص على معرفه معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أسماها . وهي : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الخافة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المسآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم الذشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الترجة ويوم الزجزة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم المنتهى ويوم الجزع ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم الساعة ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم

(١) حديث « شيبني هود والواقعة والمرسلات وهم يتساءلون وإذا الشمس كورت » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون ويوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الاستار . يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد ومعهم الشهداء ، ويشيب الصغير ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأعلى الجحيم ، وزفرت النار ويئس الكفار ، وسعرت النيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين ، يرسل الله لما سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعترفنا غفلتنا ويقول ﴿ اقترب الناس حساسهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم ياعبون لاهية قلوبهم ﴾ ثم يعترفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر - لأنهم يرون بعيدا ونراه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته .

صفة المسائلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والفقير والغني . فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي الجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عز وجل ملكا مابين شمرى عينيه مسيرة مائة عام ^(١) ، فاطنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وترام على عظم أشخاصهم متكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده . وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذنانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون . فهذا حال المقربين فاطنك بالعصاة الجرمين ؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم لإجلالها لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين للمسيكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخالق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله ﴿ فلنسلأن الذين أرسل إليهم ولنسلأن المرسلين فلننصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ وقوله ﴿ فوربك لنسلأنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول

(١) حديث « إن لله عز وجل ملكا مابين شمرى عينيه مسيرة مائة عام » لم أره بهذا اللفظ .

ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴿ فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتدهى علومهم من شدة الهيبة ؛ إذ يقال لهم : ما أجبتهم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بما إذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة . لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب . وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويمهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أمانا من نذير . ويؤتى عيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلين من دون الله ﴾ فيبقى متشجعا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان بن فلانة ألم إلى مرقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتمت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض بمباح أعمالهم على الجبار . ولا يكشف سترهم على ملائكة الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمسألة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المأخوذ بالأخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل ائتني بالنار ، فيجى لها جبريل ويقول : يا جهنم أجبني خالك ومليكك ، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائها أن تارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق نغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوتبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فأخطربياك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاورعا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين يوم ﴿ ترى كل أمة جاثية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانتهضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الخناجر كاظمين ، وذهلّت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتهم ، فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ، ففرّ الوالد من ولده والآخر من أخيه والزوج من زوجته ، وبقي كل واحد منتظرا لأمره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال ﴿ هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب ، قالوا لا ، قال ﴿ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، قالوا لا ، قال ﴿ فوالذي نفسى بيده لا تضارون في رؤية ربكم ؛ فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجهك وأسهر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وترجع ، فيقول العبد بلى ؛ فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى ١١١ ﴾ فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعصديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالثياب ففياذا أبليت ، ألم أمهل لك في العمر ففياذا أفنيت ، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفياذا أنفقت ، ألم أكرمك بالعلم فاذا عملت فيها علمت . فكيف ترى حيائك وخجلتك وهو يعتد عليك لإنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال ﴿ هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب ... الحديث ﴾ معنى عليه دون قوله ﴿ فيلقى العبد ... الخ ﴾ فأفرد بها مسلم .

فضحك ثم قال « أتدرون مم أضحك » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تحمرني من الظلم ، قال « يقول بلى » قال « فيقول فإني لأجيز على نفسي إلا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسبيا وبالكرام الكاتين شهودا » قال « فيختم على فيه ويقال لأركانه النطق ، قال « فتتطرق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وحقا فمنكن كنت أناضل ^(١) » فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الأعضاء ، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ^(٢) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة ^(٣) » فهذا إنما يرجي لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكشف لك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتحرق الصفوف وتقاد كاتقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : يا ابن آدم أدن مني ، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فأنكشفت لك عن مساوئها ؟ فكم لك من خجل وجبن ؟ وكم لك من حصر وعجز ؟ قلت شعري بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ما تقول ؟ ثم تفكر في عظم حياثك إذا ذكرك ذنوبك شفاها ما يقول : يا عبدي ؟ أما استحييت مني فبارزتنى بالتعبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادي ، استخففت بنظري إليك فلم تكثرت واستعظمت نظر غيري ، ألم أنعم عليك ؟ فماذا غرتك في أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلقاني . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتيتك ما لا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليقت أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة ^(٥) » ، وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخول الله عز وجل به كما يخول أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ما غرتك في يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل

(١) حديث أنس « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه ... الحديث » رواه مسلم

(٢) حديث : سأل ابن عمر رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في النجوى ... الحديث » رواه مسلم .

(٣) حديث « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة » تقدم .

(٤) حديث « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله تعالى رب العالمين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبي حاتم بإفظ

« إلا سيكلمه » الحديث . (٥) حديث « ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان . » الحديث » أخرجه البخاري من حديث هدى بن حاتم .

لك ألم أكن رقيبا على أذنك ، وهكذا حتى عد سائر أعضائه ، وقال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفق ؟ فأعظم يامسكين بحياتك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم - فعند ذلك يعظم سر ، رك وفرحك ويغبطك الأقولون والآخرون - ولما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فقلوه ثم الجحيم صلوه - وعند ذلك لو بكى السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك ! .

صفة الميزان

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطائر الكتب إلى الأيمان والشمالك ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار ، فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها (وقسم آخر) لاسيئة لهم فينادى مناد ليقم المحادون لله على كل حال ؛ فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعزفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب ، فتطائر الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتخص الأبصار إلى الكتب أنقع في اليمين أو في الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكى حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال « ما يبكيك يا عائشة ؟ » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهلكم يوم القيامة ؟ قال : والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أن يخف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أي يمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط (١) ، وعن أنس « يوثق بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوصخوا بصاحك ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس ، قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال « يا أجوج وما أجوج ، قال : فسرى عن القوم فقال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس

(١) حديث الحسن : أن عائشة ذكرت الآخرة فبكى ... الحديث « وفيه : فقال « ما يبكيك يا عائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهلكم يوم القيامة ... الحديث « أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنها ذكرت النار فبكى فقال « ما يبكيك » دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نعس واستاده جيد .

محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة ^(١) .

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية ﴾ واعلم أنه لا ينجون من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولخطاته كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل توزنوا . وإلما حاسبه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، وبطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلبيه ، هذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شتمتني ، وهذا يقول استهزأت بي ، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتني فغششتني ، وهذا يقول بايعتني فغبتني وأخفيت عني عيب سألعتك ، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فأطعمتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم ومارعتني . فيينا أنت كذلك وقد انشبت الخصماء فيك مخالهم وأحكموا في تلايليك أيديهم وأنت مهوت متحير من كثرتهم - حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عن الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالهوار ، وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعين رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفقتهم هواء وأنذر الناس ﴾ الآية

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وناولك أمواهم ! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا ؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون من المفلس ، قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع ، قال : المفلس من أمني من يأتي يوم القيامة بضلالة وصيام وزكاة ، وبأني وقد شتم هذا وقذف هذا وكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ^(٢) ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدراها خصماؤك وأخذوها ، وإلما لو حاسبته نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري

(١) حديث « يقول الله يا آدم قم فابث بئ النار فيقول : ولم بئ النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

(٢) حديث أبي هريرة « هل تدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ... الحديث . منهم (٦٦ - إحياء علوم الدين - ٤)

على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجاء من القرناء ؟ فقد روى أبو ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان ؟ قلت : لا ، قال : ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة ^(١) ،

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة - البهائم والدواب والطيور وكل شيء - فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجاء من القرناء ، ثم يقول كوني ترابا ، فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت ترابا . فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك عالية عن حسنات طال فيها لعبك فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصيبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يارب هذه سيئات ما قارفتها قط ! فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المباينة والمجاورة والمخالطة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليحجى يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهم سينجيهم فايزال عبد يحجى فيقول رب إن فلانا ظلمني بمظلة فيقول أبح من حسناته فايزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بغلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا ^(٢) ، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير : يارسول الله أيكتر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ! قال : نعم ليكثرن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه ^(٣) ، قال الزبير : والله إن الأمر لشديد . فأعظم بشدة يوم لا يسأح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لظمة ولا عن كلمة حتى ينتقم المظلوم من الظالم ! قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد عراة غبرا بهما ، قال : قلنا : ما بهما ؟ قال ليس معهم شيء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا يذنبى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عند مظلة حتى أقتصه منه ؛ حتى اللظمة ، قلنا : وكيف وإنما نأى الله عز وجل عراة غبرا بهما ! فقال : بالحسنات والسيئات ^(٤) ، فاتقوا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذ أموالهم

(١) حديث « يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان » قلت : لا ، قال : ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما » أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

(٢) حديث ابن مسعود « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات ... الحديث » وفي آخره « وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بغلاة ... الحديث » رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرا على آخره « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهم يحجى من على الرجل حتى يهاككته » وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثالا ... الحديث . واستاده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر « إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصابون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم » ، (٣) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير : يارسول الله أيكتر علينا ما كان بيننا ... الحديث . أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح . (٤) حديث أنس « يحشر العباد عراة غبرا بهما » قلنا : ما بهما ؟ قال « ليس معهم شيء ... الحديث » قلت : ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال « غرا » مكان « غبرا » .

والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أبواب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكل الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ، ففساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي اذخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم ، كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال ، رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذني مظلتي من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته قال : يارب لم يبق من حسناته شيء فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال : يارب يتحمل عني من أوزاري ، قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باليكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال : فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكدلة باللؤلؤ لاى في هذا أو لاى صديق هذا ؟ أو لاى شهيد هذا ؟ قال لمن أعطاني الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال عموك عن أخيك ، قال : يارب إني قد عفوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) ، وهذا نذير على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو لإصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تطلب لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد ؛ كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلج عليك خلعة الرضا وحدث بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وبيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبهتريك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النسيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينبطونك في حسنك وجهالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رموس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المسكنة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لالنسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ففتك لاجلها فقال : عليك لعنتي يا عبد السوء لا أقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تنال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك بسحرورك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك : لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان

(١) حديث أنس : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر : ما أشحك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

كشف الله عن فضائحه وعمازیه ولعنه بقبائح مساويه فشق شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فسا أعظم جهلك إذ تحتز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الآليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ فالتاس من بعد هذه الأحوال يساقون إلى الصراط - وهو جسر مدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر - فن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفرع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمك شهيقي النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتنازلهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب ، وأنت تنظر إليهم كيف يتكسسون فتسفل إلى جهة النار رموسهم وتعلوا أرجلهم ، فياله من منظر ما أفظعه ومرتقي ما أصعبه وبجاز ما أضيقة ! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهاقون في النار والرسول عليه السلام يقول : يا رب سلم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك ؟ فنادت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياتي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتنا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا يا ليتني كنت ترابا يا ليتني كنت نسياً منسيا يا ليت أُمي لم تلدني أو عند ذلك تحتطفك النيران - والعياذ بالله - وينادي المنادي ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والآنين والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ! وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متمهوناً فما أعظم خسارتك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه أفلم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياح قلبك من خطر الجواز عليه - وإن سلمت - فناهيك به هولاً وفزعاً ورعباً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفي جهنم كلايب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تحتلف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخرذل ثم ينجو ^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله

(١) حديث « ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل

صلى الله عليه وسلم ، يمر الناس على جسر جهنم وعليه حراك وكلايب وخطاطيف تحتطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يحبوا ومنهم من يرحف زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة (١) ، وذكر إلى آخر الحديث : وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال : ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطاهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضئ مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدم قدمه فشى وإذا أظلم قام ، ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كأنه ضاغط السحاب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمتلئ أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار ، قال : فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلاص قال الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيته فينتالني به إلى شأ بر عند باب الجنة فيغتسل (٢) وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الصراط كحد السب أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام لاخذ بهن حتى وإنى لا قول يارب سلم سلم فالزوالن والزالات يومئذ كثير (٣) .

فهذه أهوال الصراط وعظائمها ، فليقل فيه فكريك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرامة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنفسا على القرب وتعود إلى لهوك ولعلبك ؟ فإذا من الخوف في شيء ؟ بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه . فلا ينجيك إلا خوف يملك عن معاصي الله تعالى ويحكك على طاعته . وابتعد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم . فالشيطان يضحك من استعاذتهم . كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصوله من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأذ بغته عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول : لا إله إلا الله ، صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

(١) حديث أبي سعيد « يحضر الناس على جسر جهنم وعليه حراك وكلايب وخطاطيف . . الحديث » متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

(٢) حديث ابن مسعود « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » قال : وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والمحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا .

(٣) حديث أنس « الصراط كحد السيف - أو كحد الشعرة ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا « الصراط كحد الشعرة - أو كحد السيف » قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

بعيد من الصدق في توحيدِه وأمره عظم في نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كله فكُن حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سننه ومشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعتهم أو شفاعتهم فتجعو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

أهل أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكُن حريصا على أن تكتسب لنفسك عند مرتبة الشفاعة ، وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبا ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ، ولا تستصغر معصية أصلا فإن الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فاعلم مفت الله فيه ، ولا تستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الكلمة الطيبة أو التوبة الحسنة أو ما يجرى مجراه .

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ روى عمرو ابن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه وقال : أمي أمي ، ثم بكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسله فأخبره . والله أعلم به . فقال : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إننا سرضيك في أمتك ولا نسوءك ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبل نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي القنائم ولم تحل لأحد قبل وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا فأبما رجل من أمي أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبي بعث إلى قومه خاصه وبعثت إلى الناس عامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة كنت إمام المؤمنين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غر ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تفتح الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ^(٤) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعثني إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى ، فأقول : يارب أمتي فيقول الله عز وجل : يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول : يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صككا برجال قد بعث بهم

(١) حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه وسلم ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه ، ثم قال : أمي أمي ، ثم بكى . الحديث . وفيه : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : لنا سرضيك ولا نسوءك في أمتك ، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ . (٢) حديث : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبل ... الحديث . وفيه : وأعطيت الشفاعة . متفق عليه من حديث جابر . إذا كان يوم القيامة كنت إمام المؤمنين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غر . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح . (٣) حديث : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري . (٤) حديث : لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة .

إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يا محمد ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من بقية (١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » (٢) ، وقال أبو هريرة أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد المرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الناعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قوى ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبى الله وخليه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك برسائله وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا وأمر بقتلها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما آخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فأطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : أمى أمى يارب ؛ فقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب اليمين من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسى بيده إن بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحير أو كابين مكة وبصرى (٣) ، وفى حديث آخر . هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ؛ وهو قوله فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لأهلهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله

(١) حديث ابن عباس « ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويوق منبرى لأجاس عليه فأعما بين يدي ربى متصفا ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط وفى مسنده محمد بن ثابت والبرقي ضعيف . (٢) حديث « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن . (٣) حديث أبو هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد الناس ... الحديث بطوله فى المغفاعة ، قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم ، تنفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجه مسلم .

إلى سقيم . فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأحد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله ^(٢) » ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتي شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفع لي بها عند ربك ! فيسأل الله تعالى ذكره ويقول : لاني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال : هل تعرفني ؟ فقلت : لا من أنت ؟ فقال : أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه ، فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار ^(٣) » ، وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يؤسوا ، لو الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا نخر ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري ^(٥) » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ! وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كليمه تكليما ! وقال آخر : فعيسى كليم الله وروحه ! وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال « قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نبي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا نخر وأنا حامل لو الحمد يوم القيامة ولا نخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا نخر وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا نخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا نخر ^(٦) » ،

صفة الخوض

اعلم أن الخوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبيينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الاخبار على وصفه ، ونحن

- (١) حديث « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر » رويناه في جزء أبي عمر بن السباك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال « مثل أحد الحيين ربيعة ومضر » وفيه : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان واستأذنه حسن والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعد « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم » قالوا : سواك قال « سواي » قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .
- (٢) حديث « يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « ان من أمتي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة ... الحديث » وقال حسن والبخاري من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة . (٣) حديث أنس « ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا يوما فاستسقيتي شربة فسقيتك ... الحديث » في شفاعته فيه وأخراجه من النار . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضيف . (٤) حديث أنس « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ... الحديث » أخرجه الترمذي . وقال حسن غريب .
- (٥) حديث « فأكسي حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح . (٦) حديث ابن عباس : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا : لأن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ... الحديث . رواه الترمذي وقال غريب .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا عليه وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس : أغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له : يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : آية أنزلت على أنفاس ، وقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء ^(١) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر ^(٢) ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء - أو مثل ما بين المدينة وعمان - ^(٣) ، وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، شرا به أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنات اللؤلؤ والمرجان ^(٤) ، وقال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقان مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، أول الناس وبرودا عليه فقراء المهاجرين ، فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : هم الشعث وموسا الدنيس ثيابا الذين لا ينكحون المتبهمات ولا تفتح لهم أبواب السدد ^(٥) ، فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتبهمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله ، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ . وعن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المضحية ، من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ، مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ^(٦) ، وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة ^(٧) ، فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغتورا وهو يظن أنه راج ، فإن الرأى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوام الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن

(١) حديث أنس . أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : آية نزلت على أنفاس ، وقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (إنا أعطيناك الكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس : بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ... الحديث « أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس : لما خرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء . الحديث . وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنس : ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة ما بين المدينة وعمان » رواه مسلم . (٤) حديث ابن عمر : لما نزل قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ... الحديث « أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف . (٥) حديث ثوبان : إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقان ... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه . (٦) حديث أبي ذر : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ... الحديث « رواه مسلم . (٧) حديث سمرة : إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ... الحديث « أخرجه الترمذي وقال غريب قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

وليس من الراجين في شيء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الخلق . نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى ﴿ فلا تغترنكم الحياة الدنيا ولا يغترنكم بالله الغرور ﴾ .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكأها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ؛ دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك . فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فحسبك تستعد للنجاة منه ، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوا يبتظرون حقيقة أنبائها وتشفيغ شفعاها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجئت الأمم على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب . وخرج المنادي من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمتماع حديد ويستقبلونه بعظامم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فأسكوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير ، شراهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، أمازيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يامالك قد حق علينا الرعيدي يامالك قد أثقلنا الحديد يامالك قد فضجت منا الجلود يامالك أخرجنا منها فإننا لا نعود . فتقول الزبانية : هيأت لآلئكم حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان فاحسبوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكانتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشراهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات الثيران وسراييل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضايقتها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيتها ، تغلى بهم الذار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيفتجر الصديد من أفواههم وتنتطح من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها وتشمط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما اضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، قد عزيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفتح تلك الثيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

« إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله ^(١) ، وقال على كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن ، قيل يا رسول الله وما وادى - أو جب - الحزن قال « وادى في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعذه الله تعالى للقراء المرائين ^(٢) ، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى : جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا ، فسكا لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتأذرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها ^(٣) » .

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات وأكبر تفضيلا ، فسكا أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن غائص فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبيه ، إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بخلافير لا تقدي بها من شدة ما هو فيه ما هو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنملين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه ^(٤) ، فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذابا في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهبها لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضوها طامعين وربما ما هم فيه . وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا ^(٥) » بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احترت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما يجودونه في الصيف من حرها وأشد ما تجودونه في الشتاء من زهريرها ^(٧) » ،

(١) حديث « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله » لم أجده هكذا بمجملته وسيأتي بعده ماورد في ذكر الحيات والعقارب .
(٢) حديث علي : تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن . الحديث « رواه ابن عدى بلفظ « وادى الحزن » وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « جب الحزن » وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء . (٣) حديث أبي هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ... الحديث « وفيه « هذا حجر أرسل في جهنم ... الحديث » رواه مسلم . (٤) حديث « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنملين من نار ... الحديث » مضى عليه من حديث الثمان بن بهير . (٥) حديث « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا » ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس « وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » ولابزار من حديث أنس وهو ضعيف « وما وصلت للبكر » حتى أحسبه قال « انضعت بالماء فتضى عليكم » . (٦) حديث « أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احترت ... الحديث » تقدم . (٧) حديث « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

وقال أنس بن مالك : يؤتى بالناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقال : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له : هل رأيت ضرا قط؟ فيقول : لا وقال أبو هريرة : لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء في قوله (تلفح وجوههم النار) إنها لفحمتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما عسلى عظم إلا ألقته عند أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه وهو الغساق : قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن دلوا من غساق جهنم ألقى في الدنيا لأنتن أهل الأرض (١) « فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحرم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى (ثم إنكم ليها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فالتون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم) وقال تعالى (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كآته رهوس الشياطين فإنها لا تكون منها فالتون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم ليل الجحيم) وقال تعالى (تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية) وقال تعالى (إن لدينا أنكالا وججيا وطعاما ذا غصة وعذابه أليما) وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم (٢) ، فكيف من يكون طعامه ذلك ؟ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٣) ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون كما كانوا يحيزون النعص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، وإذا دخل الشراب بطونهم قطع مافي بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، قال : فيدعون خزنة جهنم (أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أو لم تأتكم برسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) قال : فيقولون ادعوا ما لكافيدعون فيقولون يا مالك ليقتض علينا ربك ، قال : فيجيبهم إنكم ما تكون (٤) ، قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إبراهيم ألف هام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) قال : فيجيبهم (اخشوا فيها ولا تكلمون) قال :

(١) حديث أبي سعيد الخدري « لو أن دلوا من غساق ألقى في الدنيا لأنتن أهل الأرض » أخرجه الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف . (٢) حديث ابن عباس « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه . (٣) حديث أنس « ارغبوا فيما رغبتكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه من جهنم ... الحديث » لم أجده له إسنادا . (٤) حديث أبي الدرداء « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام . الحديث » أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، قال الدارمي : والناس لا يعرفون هذا الحديث ، وإنما روى من الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .

فمعد ذلك يؤسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال « يقرب إليه فيسكره فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميا فقطع أساءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ فهذه طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١)

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهي لا تفتر عن النّش والدغ ساعة واحدة ! قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه - يعني أشداه - فيقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ... الآية ﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « إن في النار لحيات مثل مثل أعتاق البخت يلسعن اللسعة فيجد حوتها أربعين خريفا ، وإن فيها لعقارب كالبنغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثله (٣) » ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا فالصة قد غطت وجهه (٥) » وقال عليه السلام « إن الكافر ليحتر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس (٦) » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن في قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غير ما ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشبهتهم ودعاتهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧) » ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (٨) » قال محمد بن

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال يقرب إليه ... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب . (٢) حديث أبي هريرة « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه . (٣) حديث « إن في النار لحيات مثل مثل أعتاق البخت يلسعن اللسعة » أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء . (٤) حديث أبي هريرة « ضرس الكافر في النار مثل أحد ... الحديث » رواه مسلم . (٥) حديث « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا فالصة قد غطت وجهه » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب . (٦) حديث « إن الكافر ليحتر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس » أخرجه الترمذي من رواية أبي الخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو الخارق لا يعرف . (٧) حديث « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . (٨) حديث أنس « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دعوات يحجبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ﴿ ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ فيقول الله تعالى مجيبا لهم ﴿ ذاكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ فيقولون ﴿ ربنا أخرنا لعمل صالحا غير الذي كنا نعمل به ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكري وجاءكم التذير فذوقوا فلما للظالمين من نصير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخشوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضى الله عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت وبأهل النار خلود بلا موت ^(١) . وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بغد ألف عام وليقى كنت ذلك الرجل . ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي ف قيل له : لم تبكي ؟ فقال : أخشى أن يطرحنى في النار ولا يبالى . فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لانهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمان بخص دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياها قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكثرة منقصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياها قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ؟ فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم لأنهم لولم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنها تعرض عليهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الأقولون والآخرون بمثلها ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرينا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أحسن علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين تراون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم مبهتم الناس ولم تهابوني وأجللتهم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم ^(٢) ، وقال أحمد بن حنبل : إن أحدا لا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام . كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود : إلهى لاصبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك ؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فانظر يلمسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خالق النار بأهوالها وخلق أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾

(١) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي حميد وقد تقدم . (٢) حديث « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها . الحديث » رويها في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية لإبراهيم بن هدية مالك .

ولعمري الإشارة به يوم القيامة ، بل في أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك !

فإن قلت : فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجمى وما الذى سبق به القضاء في حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك بعد عن النار ، وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الآليم ، فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نظرة النعيم يسقون من رحيق محتوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، مخوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالخور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمئن لئس قلبهم ولا جان ، يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تحير فيه الأبصار ، مكلمات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرآت آمناة من الهرم والبوس ، مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نظرة النعيم ، لا يرهقهم فتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من رب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضها من فضة وحصباؤا مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كشبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم مزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحه أحداثه . فيا عجا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويتهنا بعيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن

من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثنان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ١ وأن لا يؤثر عليها ما التصبرم والتتبع من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تأسوا الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون ﴾ (١) » .

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلمت على جملتها ، وتأمل أولا عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم لإلراء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (٢) » ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم (٣) » ، وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرنا لأخفظة ثم قال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعدوا إلى إحداها كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ، ثم عدوا إلى الأخرى فتطهروا منها لجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها ﴿ سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشرا عذ الله لك من الكرامة كذا ، قال : فينطق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان - باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا - فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لآلم أن يذهب بصره ، ثم يطأ طيء رأسه فإذا أزواجه ﴿ وأكواب موضوعة ونبارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ﴾ ثم اتكأ فقال ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي

(١) حديث أبي هريرة : « ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد . (٢) حديث : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى ، (٣) حديث أبي هريرة : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة ... الحديث » متفق عليه .

لولا أن هدانا الله ﴿ ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ١١ .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطالب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنقص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخذافيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليرامون أهل الغرف فرقمهم كما ترامون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ١٢ ، وقال أيضاً : إن أهل الدرجات العلى ليرامهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنما ١٣ ، وقال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أحدثكم بغرف الجنة ، قال : قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبيننا أنت وأما قال : إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال : قلت يا رسول الله ولما هذه الغرف ؟ قال : لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام ، قال : قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقي أعياه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام ١٤ ، يعني اليهود والنصارى والمجوس . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ ومساكن طيبة في جنت عدن ﴾ قال : قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة - يعني من القوة - ما يأتي على ذلك أجمع ١٥ .

(١) حديث : « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنس .

(٢) حديث أبي سعيد : « إن أهل الجنة ليرامون أهل الغرف فوقهم كما ترامون الكوكب ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث : « إن أهل الدرجات العلى ليرامهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد . (٤) حديث جابر : « ألا أحدثكم بغرف الجنة » قلت : بلى يا رسول الله فأبيننا أنت وأما قال : « إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر ... الحديث » أخرجه أبو يعين من رواية الحسن عن جابر . (٥) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ ومساكن طيبة في جنت عدن ﴾ قال : « قصور من لؤلؤ ... الحديث » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الظلمة والأجرى في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم ، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور .

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتته بالدنيا عوضاً عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة ابنة من فضة وابنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك »^(١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص »^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا »^(٣) ، وقال « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك »^(٤) ، ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها »^(٥) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها أقرهوا إن شئتم » (وظل ممدود)^(٦) ، وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ أقبل أعرابي فقال : يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هي ؟ » قال : السدر فإن لها شوكاً ، فقال « قد قال الله تعالى (في سدر مخضود) يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوك ثمرة ثم تنفق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر »^(٧) ، وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للعلام : انطلق بهذا النطع فأظله فأطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سليمان فأنتبهت أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدري ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضاً ، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صفه فقال : يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلامها النمر .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى

(١) حديث أبي هريرة « إن حائط الجنة ابنة من فضة وابنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك » أخرجه الترمذي بإفظ « وملأها المسك » وقال ليس إسناده بذلك القوي وليس هندی يمتثل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موفقاً عليه بإسناد صحيح ، (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن سياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره . (٣) حديث أبي هريرة « من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن والنسائي بإسناد صحيح « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يصبها في الآخرة » . (٤) حديث « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك » أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث « لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن . (٦) حديث « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث أبي أمامة : أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال « ما هي » قال : السدر ... الحديث « أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

ثيابه ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر ^(١) ، وقال رجل : يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاهل سأل عالماً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل يذشق عنها ثمر الجنة مرتين ^(٢) » ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغيطون أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ، وفي رواية : « على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال : « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الخيمة ذرة بجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للثوم أهل لا يراهم الآخرون ^(٥) » ، رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس : « الخيمة ذرة بجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) » .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمك واللبن والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى ﴿ كلوا رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به مثقابا ﴾ وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه خبر من أجبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : « فن أول إجازة - يعني على الصراط - ؟ فقال : « فقراء المهاجرين » ، قال اليهودي : « فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « زيادة كبد الحوت » ، قال : « فما غداؤهم على أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها » ، قال : « فما شربهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلا » ، فقال : « صدقت ^(١) » وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا أبا القاسم أليست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه : « إن أنزل بها خصمته » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم

(١) حديث أبي هريرة « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه .. الحديث » رواه مسلم دون قوله « في الجنة مالا عين رأت .. الخ » ، فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة « قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت .. الحديث » .
(٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تنسج نسجاً . . . الحديث أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو . (٣) حديث أبي هريرة « أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر .. الحديث » ، متفق عليه . (٤) حديث : في قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال « إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا يعرفه إلا من حديث رشيد بن سعد . (٥) حديث « الخيمة ذرة بجوفة طولها في السماء ستون ميلاً .. الحديث » عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال « ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض » أخرجه الترمذي باللفظ « ارتفاعها كما بين السماء والأرض » وقال غريب لا يعرفه إلا من حديث رشيد بن سعد .
(٧) حديث ثوبان : جاء خبر من أجبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال : « فن أول الناس إجازة ؟ يعني على الصراط فقال « فقراء المهاجرين » ، قال اليهودي : « فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد التون .. الحديث » رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره .

والمشرب والجماع ، فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضم^(١) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتنتظر إلى الطير في الجنة فتشبهه فيختر بين يديك مشويا^(٢) ، وقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة طيرا مثل البخاتي . قال أبو بكر رضى الله عنه : إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال : أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر^(٣) ، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بصحاف ﴾ قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا . وقال لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

صفة الحور العين والولدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولمئات ما بينهما رائحة وانصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها^(٤) ، يعني الخمار ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من المرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها تنضى ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك^(٥) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن : السلام عليك يا رسول الله ؛ فقلت : يا جبريل ما هذا النداء قال : هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن ، فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ حور مقصورات في الخيام^(٦) ﴾ ،

(١) حديث زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود فقال : يا أبا القاسم ألسنت تزهمن أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون . . . الحديث . وفيه : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك ، أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح .

(٢) حديث ابن مسعود : إنك لتنتظر إلى الطير في الجنة فتشبهه فيختر بين يديك مشويا ، أخرجه البزار بإسناد صحيح .

(٣) حديث حذيفة : إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي . . . الحديث ، غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح ، إن طير الجنة كأمثال البخت ترضى في شجر الجنة ، قال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة قال : أكلتها أنعم منها ، قالوا ثلاثا ، ولأن أرحو أن تكون ممن يأكل منها ، وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر السكوتر وقال : فيه طير أعناقها كعناق الجزر ، قال عمر : إن هذه لناعمة . . . الحديث . وأليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن .

(٤) حديث : غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها . . . الحديث ، أخرجه البخاري من حديث أنس .

(٥) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من المرأة . . . الحديث ، أخرجه أبو بطل من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل دون ذكر أبي سعيد والترمذي من حديث ابن مسعود : إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة . . . الحديث ، ورواه عنه موقفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء الهم .

(٦) حديث أنس : لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر . . . الحديث ، وفيه : أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام ، وفيه : فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط ، لم أجده هكذا .

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم افتضاض الأبكار . وقال رجل : يا رسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم ^(١) ، وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا ^(٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسطط فطوبى لمن كان لنا وكنا له ^(٣) ، وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحور العين في الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام ^(٤) » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى ﴿ في روضة يجرن ﴾ قال السماع في الجنة . وقال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وضده رجله ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه ^(٥) .

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نوريتلألا وريحانة تهتزو صر مشيدونهم مطرد وفاكهة كثيرة نصيجة وزوجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة ، قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله قال : قولوا إن شاء الله تعالى ، ثم ذكر الجهاد وحده عليه ^(٦) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت ، وقال له رجل : إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتيت نفسك ولذت

بتامه والترمذي من حديث علي بن أبي طالب : أن في الجنة الخمر لا يشربها المشركون ولا يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسطط فطوبى لمن كان لنا وكنا له . وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف : فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ... الحديث . (١) حديث : قال رجل يا رسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم . أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس : يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، فليل أو يطبق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة . (٢) حديث : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا . أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب المظلة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال : مائة حوراء . ولم يذكر فيه عناق له ، وإسناده ضعيف ، وتقدم قبله بحديث . (٣) حديث : إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء . . . الحديث . أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي بن زيد . بعضه قبل هذا بحديثين .

(٤) حديث أنس : إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن : نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام . أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به . (٥) حديث أبي أمامة : مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه . أخرجه الطبراني بإسناد حسن . (٦) حديث أسامة بن زيد : ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها . . . الحديث . أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

عينك ^(١) ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة ^(٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتمتعيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة جرد مرد جماد مكحولون أبناء ثلاث ثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع ^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثلثان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها بكلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبعث ، وإذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت ؟ فقالت لزيد بن حارثة ، وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ^(٦) ، وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تسكمنى فقالت ﴿ قد أفلاح المؤمنون ﴾ فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلاً .

وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنها من حمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرموس ، وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ملوك يخدمون أبناء ثلاث وثلاثون في سن واحد طولهم ستون ذراعاً في السماء ، كل جرد مرد قد آمنوا العذاب وأطمأنت بهم الدار ، وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزرجد ، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وتشارها لا يعلم عليها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلاً وبلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاوون فيها وأزواجهم الخور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ من أصبعها سبعين حلة فتلبسها فيرى

(١) حديث جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة شيل فإنها تعجبني . . الحديث أخرجه الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف . رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المدينى عبد الرحمن بن سابط ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحة . (٢) حديث أبي سعيد : إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ، أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب ، قال : وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم : في الجنة جماع ولا يكون ولد ، انتهى . ولاحمد بن حنبل في حديث أبي رزين : يلد ويلد مثل لذاتكم في الدنيا ويلد ذن بكم غير أن لا توالد ، (٣) حديث : إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، أخرجه الزوارق من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أسد وقال : لا يلهى يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أسد انتهى . والربيع بن صبيح ضعيف جداً ورواه الأسفهانى في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أسد . (٤) حديث : أهل الجنة جرد مرد بيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين . . الحديث أخرجه الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله : بيض جماد ، ودون قوله : على خلق آدم ، إلى آخره ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة مختصراً : أهل الجنة جرد مرد كل ، وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً . (٥) حديث : أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم . . الحديث أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد منقطعاً من أوله إلى قوله : وإن عليهم التيجان ، ومن هنا يستأنده أيضاً وقال لا يعرفه إلا من حديث رشيد بن سعد . (٦) حديث : نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها بكلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبعث . . الحديث رواه الثعلبى في تفسيره من رواية أبي هريرة عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه حمارة بن حريث ضعيف جداً وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : يقول الله أهددت لبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك تعالى

(۱) حدیث جریر : کہنا جلوسا عند رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم فرأى القبر لیلۃ البدر فقال « انکم تروون ربکم ... الحدیث » ہو فی الصحیحین کا ذکر المصنف . (۲) حدیث صہیب فی قوله تعالیٰ (للذین أحسنوا الحسنی و زیادۃ) رواہ مسلم کا ذکرہ المصنف .

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل ^(١) ، وليس لنا من الاعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافيقها أعمالنا ، ونستغفره عما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعيدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كل تصرع وتعرض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعئنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا وللمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا فإن الكرم عظيم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وآخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ^(٢) » ، ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا ^(٤) » ، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذنوبه في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف ^(٥) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقاء فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي ^(٦) » ، وقال

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث « ويعجبني المال الصالح والكلمة الحسنة » ولها من حديث أبي هريرة « وخيرها الفأل ؟ » قال « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » .

(٢) حديث « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

وسلمان . (٣) حديث « إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » لفظ البخاري وقال مسلم « كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تلب غضبي » . (٤) حديث « يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا » أخرجه مسلم من حديث أبي موسى « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار » ولأبي داود « أمق أمة مرحومة لأعذاب عليها في الآخرة ... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا « يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه على بن زيد بن جدهان . (٥) حديث « يشفع الله

آدم يوم القيامة من ذنوبه في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٦) حديث « إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقاء فيقولون نعم ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني من

حديث معاذ بن عبد الله بن صفير .

رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام ^(١) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ^(٢) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيلة بولدها ^(٣) » ، وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزقي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه . وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلصقا الآخر ويأمر بردهما ويسألها عن فعلهما ، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لا تعترض لسخطك ثانية ويقول الذي تلصقا حسن ظني بك كان يشعري أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي ^(٤) » ، ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ فقال الأعرابي : فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه . وقال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال : مهلا ... لم تبكي ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حزم الله النار عليه ^(٥) » ، وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مذابحر ، ثم يقول أتذكر من هذا شيئا أظلمت لك كفتي الحافظون فيقول لا يارب . فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

(١) حديث « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب . (٢) حديث « إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار... الحديث » في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر بن عبد الله بإسناد صحيح (٣) حديث « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيلة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله : قصة المرأة من السبي إذ وجدت سبيا في السبي فأخذته بطنها فأرضته . (٤) حديث « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي » رويناه في سابعيات أبي الأسعد اللخيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة . (٥) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار » أخرجه مسلم من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصنابحي بالنظر آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تعلم ، قال « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء ^(١) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراف « إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا ، يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا ، فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فأقرءوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حما فيلقهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ، قالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال « فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول ادخلوا الجنة فإياهم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من العالمين ، فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا ^(٢) » ، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما . وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق ، فتأمل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقيل لي هؤلاء أملاك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا . أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله وربه وله هؤلاء هم أبناءنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتبون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يارب . ول الله فقال « أنت منهم ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سبقك بها عكاشة ^(٣) » ، عن عمر بن حزم الأصبهاني قال : غيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع ، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يارسول الله اجتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال « لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفا لا حساب عليهم وإن سألت ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من

(١) حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يستخلص رجلا من أمي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينصر له تسعة وتسعون سجلا » فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب . (٢) حديث « إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ... الحديث » في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة « فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد . (٣) حديث ابن عباس « عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد ... الحديث » لم يقل « سبقك بها عكاشة » رواه البخاري .

(١) حديث عمرو بن حزم الأنصاري : تئيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج لالا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه « ان ربي وعدني ان يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم » وفيه « أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر « فزادني مع كل واحد سبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر : فهلا استزددته ؟ فقال « قد استزددته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر : فهلا استزددته ؟ قال « قد استزددته فأعطاني هكذا » وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعية وحتى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضيف . (٢) حديث أبي ذر « عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال : بصر أمتك بأنه من مات لا يمشرك بالله شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه بانقط « أنا في جبريل بمشركي » وفي رواية لها « أنا في آت من ربي » . (٣) حديث أبي الدرداء : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولما خاف مقام ربه جنتان) فقلت « وإن زني وإن سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسناد صحيح . (٤) حديث « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل ف قيل له هذا فداؤك من النار » رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم . (٥) حديث أبي بردة . أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يعزب رجل مسلم الا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك . (٦) حديث : وقف صبي في بعض المازي ، ينادي عليه فيمن يزيد ، في يوم صائب شديد الحر ، فبصرت به امرأة ... الحديث . وفيه « الله أرحم بكم جميعا من هذه بابئها » متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بصي فإذا امرأة من السبي تسمى اذ وجدت صبيا في السبي ، أخذته فألصقت به بطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » لفظ مسلم وقال البخاري : فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسمى اذ وجدت صبيا ... الحديث . والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة وهذه . يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي : اني أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١ هـ ، وأكلت ببيض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ انتهى ،

فهرس الجزء الرابع

من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صفحة	صفحة
٦٩ بيان مظان الحاجة إلى الصبر .. الخ	٢ كتاب التوبة
٧٥ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه	٣ الركن الأول في نفس التوبة ... الخ
٨٠ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر	بيان حقيقة التوبة ووجوبها
الركن الأول في نفس الشكر	٤ بيان وجوب التوبة وفضلها
بيان فضيلة الشكر	٧ بيان أن وجوب التوبة على الفور
٨١ بيان حد الشكر وحقيقته	٩ بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص
٨٥ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى	والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبته
٩٠ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه	١٣ بيان أن التوبة إذا استجتمت شرائطها
٩٩ الركن الثاني من أركان الشكر ... الخ	فهي مقبولة لا عمالة
بيان حقيقة النعمة وأقسامها	١٦ الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب
١٠٩ بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر	بياد أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك	٢٣ بيان كيفية توزع الدرجات والمدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
١١١ الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات	٣٢ بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب
١١٢ الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة	٣٤ الركن الثالث في تمام التوبة ... الخ
١١٦ الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل فيها الأظعمة ... الخ	٤٣ بيان أقسام العباد في درام التوبة
١١٨ الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأظعمة إليك	٤٦ بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب ... الخ
الطرف السادس في إصلاح الأظعمة	٤٩ الركن الرابع في دواء التوبة ... الخ
١١٩ الطرف السابع في إصلاح المصلحين	٦٠ كتاب الصبر والشكر
١٢٠ الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	الشطر الأول في الصبر
١٢٣ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر	٦١ بيان فضيلة الصبر
	٦٢ بيان حقيقة الصبر ومعناه
	٦٦ بيان كون الصبر نصف الإيمان
	بيان الأسامي التي تتجدد للصبر ... الخ
	٦٧ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

صحيفة	صحيفة
١٩٩ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقائمين والصادقين	١٢٧ الركن الثالث من كتاب الصبر
٢٠١ بيان فضيلة الفقر على الغنى	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شئ واحد
٢٠٦ بيان آداب الفقير في فقره	١٣٤ بيان فضل النعمة على البلاء
٢٠٧ بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ	١٣٥ بيان الأفضل من الصبر والشكر
٢١٠ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	١٤٢ كتاب الخوف والرجاء ويشتمل على شطرين
٢١٤ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال	الشرط الأول
٢١٥ بيان أحوال السائلين	بيان حقيقة الرجاء
٢١٦ الشرط الثاني من الكتاب في الزهد	١٤٤ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
بيان حقيقة الزهد	١٤٦ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب
٢١٩ بيان فضيلة الزهد	١٥٥ الشرط الثاني من الكتاب
٢٢٥ بيان درجات الزهد وفسامه الخ	بيان حقيقة الخوف
٢٣٠ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة	١٥٧ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
٢٤١ بيان علامات الزهد	١٥٨ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
٢٤٣ كتاب التوحيد والتوكل	١٦٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
بيان فضيلة التوكل	١٦٤ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
٢٤٥ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشرط الأول من الكتاب	١٦٧ بيان الدواء الذي يستجاب حال الخوف
٢٥٩ الشرط الثاني من الكتاب	١٧٣ بيان معنى سوء الخاتمة
بيان حال التوكل	١٨٠ بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
٢٦٤ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل	١٨٣ بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف
٢٦٥ بيان أعمال المتوكلين	١٨٩ كتاب الفقر والزهد
٢٧٢ بيان توكل المعيل	١٩٠ الشرط الأول من الكتاب في الفقر
٢٧٥ بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسامي
٢٨١ بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم	١٩٣ بيان فضيلة انفق مطلقا
٢٨٦ بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ	
٢٩٠ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال	

صحيفة	صحيفة
٣٦١ كتاب النية والإخلاص والصدق	٢٩٢ بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض
٣٦٢ الباب الأول في النية	وكتابه
بيان فضيلة النية	٢٩٣ كتاب المحبة والشوق
٣٦٥ بيان حقيقة النية	والأنس والرضا
٣٦٦ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
المؤمن خير من عمله	٢٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق
٣٦٨ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية	معنى محبة العبد لله تعالى
٣٧٣ بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار	٣٠٠ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٣٧٦ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته	٣٠٧ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة
ودرجاته وحقيقته	الله تعالى الخ
فضيلة الإخلاص	٣١٢ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة
٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص	على المعرفة في الدنيا
٣٨١ بيان أفاويل الشيوخ في الإخلاص	٣١٥ بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى
٣٨٢ بيان درجات الشوائب والآفات المكفرة	٣١٩ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
الإخلاص	٣٢٠ بيان السبب قصور أفهام الخلق عن
٣٨٤ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق	معرفة الله سبحانه وتعالى
الثواب به	٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٣٧٦ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته	٣٢٧ بيان محبة الله للعبد ومعناها
فضيلة الصدق	٣٢٩ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه	بيان معنى الأنس بالله تعالى
٣٩٣ كتاب المراقبة والمحاسبة	٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي
المقام الأول من المراقبة المشارطة	ثمره غلبة الأنس
٣٩٦ المراقبة الثانية المراقبة	٣٤٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها	٣٤٤ بيان فضيلة الرضا
٤٠٤ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ	٣٤٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف
فضيلة المحاسبة	الحرى
٤٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل	٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا
٤٠٦ المراقبة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها	٣٥٤ بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان
٤٠٨ المراقبة الخامسة المجاهدة	المعاصي ومذممتها لا يقدح في الرضا
٤١٦ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها	٣٥٥ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم
٤٢٣ كتاب الفسك	ومكاشفاتهم
فضيلة التفسك	٣٦٠ حاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق
	بالمحبة يلتفت بها

صحيفة	صحيفة
٤٨٤ (الباب السادس) في أقاويل العارفين	٤٢٥ بيان حقيقة الفسك وثمرته
على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور	٤٢٧ بيان مجازى الفسك
٤٨٥ بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور	٤٣٥ بيان كيفية التفكر في خالق الله تعالى
٤٨٩ بيان أقاويلهم عند موت الولد	٤٤٨ كتاب ذكر الموت وما بعده
٤٩٠ بيان زيارة القبور والدعاء للبيت... الخ	٤٤٩ الشطر الأول في مقدماته وتوابه الخ
٤٩١ (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه	الباب الأول في ذكر الموت الخ
الميت في القبر إلى نفخة الصور	بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
بيان حقيقة الموت	٤٥١ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
٤٩٨ بيان كلام القبر للبيت وكلام الموقى لما	٤٥٢ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر
بلسان المقال أو بلسان الحال	الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته
٤٩٩ بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير	وضيلة قصر الأمل
٥٠٢ بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما	٤٥٦ بيان السبب في طول الأمل وملاجه
وضفطة القبر وبقية القول في عذاب القبر	٤٥٨ بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
٥٠٤ (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال	٤٥٩ بيان المبادرة إلى العمل وحذرة التأخير
الموقى بالمسكافة في المنام	٤٦١ الباب الثالث في سيكرات الموت وشدهته
٥٠٦ بيان منامات تكشف عن أحوال المرقى	وما يستحب من الأحوال عنده
والأعمال النافعة في الآخرة	٤٦٥ بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند
٥٠٧ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم	الموت
أجمعين	٤٦٧ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت
٥١١ (الشطر الثاني) من كتاب ذكر الموت	بمحكايات يعرب لسان الحال عنها
في أحوال الميت من وقت نفخة الصور	٤٦٨ (الباب الرابع) في وفاة رسول الله
إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار	صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من
وتفصيل ما بين يديه من الأهوال	بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
والأخطار وفيه بيان نفخة الصور... الخ	٤٧٦ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
صفة نفخة الصور	٤٧٧ وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٥١٣ صفة أرض المحشر وأهله	٤٧٨ وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٥١٤ صفة العرق	٤٧٩ وفاة علي كرم الله وجهه
٥١٥ صفة طول يوم القيامة	٤٨٠ (الباب الخامس) في كلام المحتضرين
صفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها	من الخلفاء والأمراء والصالحين
٥١٧ صفة المسألة	٤٨١ بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين
٥٢٠ صفة الميزان	من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من
٥٢١ صفة الحصاة	أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

صفحة	صفحة
٥٣٨ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأرائكهم وخيامهم	٥٢٤ صفة الصراط
٥٣٩ صفة طعام أهل الجنة	٥٢٦ صفة الشفاعة
٥٤٠ صفة الخور العين والولدان	٥٢٨ صفة الخوض
٥٤١ بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار	٥٣٠ القول في صفة جهنم وأهلها وأنكأها
٥٤٣ صفة الرقبة والنظر إلى وجه الله تعالى	٥٣٥ القول في صفة الجنة وأوصاف نعيمها
٥٤٤ نختم الكتاب بباب في سعة الله تعالى على سبيل التعاؤل بذلك	٥٣٨ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تم الفهرس وبه تم الكتاب